

الأحلام

دراسة للمذاهب الإسلامية – فلسفية وصوفية ودينية – في موضوع الأحلام
مع تتبعها إلى منابعها في الدين والتراث اليوناني والشرق القديم
وبيان ما يقابلها عند المحدثين من علماء النفس

تأليف

الدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الطبعة الأولى

١٣٦٤ هـ – ١٩٤٥ م

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

مطبعة التوكل بالجماميز بالقاهرة

Zava
Tawil, Tawfiq



الأحلام

دراسة للمذاهب الأسلامية – فلسفية وصوفية ودينية – في موضوع الأحلام
مع تتبعها إلى منابعها في الدين والتراث اليوناني والشرق القديم
وبيان ما يقابلها عند المحدثين من علماء النفس

al-Ahlam

تأليف

الدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الطبعة الأولى

١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

الناشر : مكتبة الآداب ت : ٤٢٧٧٧ بدرب الجماميز

مطبعة التوكل بالجماميز بالقاهرة

فهرس تحليلى

تقــــــدمة



تقدمة

لحضرة صاحب المعالى :

مصطفى باشا عبد الرازق

تقدمة

لحضرة صاحب المعالى مصطفى باشا عبد الرازق

الأستاذ توفيق الطويل أعرفه مذ كان طالباً بجامعة فؤاد، ممتازاً بوداعته وعقله وحيائه. يرى ساكن الأوصال خافت الصوت عاكفاً على الدرس، فاذا كتب كان أديباً، وإذا تكلم كان خطيباً، وكان يعده للتأثير الخطابي: صوت خلاب، وسمت جذاب، وذكاء وثاب

وقد غاب عنى توفيق الطويل مدة، وكثيراً ما يغيب عنى هؤلاء الأبناء زمناً، تغمرهم الحياة وتغمرنى، ثم نلتقى فكأننا لم نتباعد ولم نتفرق

لايزال صاحبنا حيياً ذكياً رزيناً، لكنه ليس طالباً فى جامعة فؤاد، بل هو مدرس فى جامعة فاروق، وليس خطيباً همه أن يهز المشاعر، ويحرك أعواد المنابر، لكنه باحث مدقق، يريد أن يصل «بعقله» إلى بواطن الأمور وظواهرها، وأوائلها وأواخرها، هو يعتمد على «العقل» صرفاً، ويريد أن يؤثر فى «عقول» الناس لا فى قلوبهم، أدركت هذا المعنى حين قرأت مؤلفات الأستاذ الطويل، ومنها مؤلفات تتصل بالتصوف والمتصوفة، والتصوف علم القلوب، وأدرك هذا المعنى حين أقرأ من جديد

هذه الرسالة – الأحلام – وقد قرأتها من قبل، وناقشت صاحبها، وسجلت شهادتى له بالنجاح الممتاز فى تأليفها، وفى عرضها على مجلس الامتحان، وما أزداد إلا رضا عن هذه الرسالة. وإعجابا بمجهود المؤلف فى إعدادها أولا، ثم فيما أدخل عليها بعد ذلك من تعديل وتكميل، دلالة على التسامى إلى الكمال، والبعد عن الفتنة بعمله والغرور، وكلما ازداد علم العالم ازداد تواضعه. وكلما ازداد تواضعه ازداد علماً.

عنى الأستاذ توفيق الطويل بالبحث فى موضوع الرؤيا، وفكر فيه طويلا، وقرأ فيه كثيرا، وهداه البحث إلى ترجيح الرأى القائل بأن الرؤيا ليست وحياً إلهيا، قال الأستاذ « وبذلك نزعناها من مجالها الشائك، وأطلقنا العنان « للعقل » فى بحثها، ولم نلزمه إلا بقيود « العقل » نفسه »

كان المؤلف يحاول أن يدرس الرؤيا عند مفكرى الاسلام، لكن البحث قد تحول إلى دراسة مقارنة، وهو يقول « والدراسة الكاملة لموضوع متعدد الجوانب كموضوع بحثنا، وتتبع نواحيه فى شتى العصور وعند مختلف المفكرين، أمر شاق قد يتجاوز الطاقة البشرية. ومن أجل هذا وجب أن نشير إلى أنها مجرد محاولة، وهى محاولة تعتبر ناجحة – فيما أرى – إذا أغرت بعض

الباحثين بارتياد هذا الموضوع ، ومحاولة الكشف عن مجاهله ، وتصحيح ما يحتمل أن نكون قد أخطأنا فهمه ؛ والعصمة لله وحده »

وهذه الدراسة التي يسميها المؤلف – تواضعا – محاولة ، هي ناجحة كل النجاح ؛ ولا خوف عليها من الاخفاق في إغراء الباحثين ، وهي ناجحة فوق ذلك نجاحا عظيما في ضم معارف ومذاهب في شأن الرؤيا وما يتصل بها ، لم يجمعها من قبل كتاب عربي .

ثم إن الأستاذ يذكر في لهجة تشف عن أسف واعتذار . أنه لم يصل بعد العناء في البحث والدرس ، إلى علم اليقين في أمور الرؤيا وتحليلها وتعليلها ، وإنما وصل إلى الظن والترجيح

ولسنا نشاركه الأسف . فقد حلل العلماء وعللوا كثيرا من شئون العالم ، حتى لأدهشونا أخيراً بتحليل الذرة . وكانت غاية الغايات وأسطقس الأسطقسات ، لا تقبل قسمة ولا تحليلا . فتركوا الناس في هم مقيم مقعد

رويداً أيها العلماء الباحثون ، دعوا لنا في هذه الحياة شيئاً ننعم به ، من غير أن نعرف له تعليلا ولا تحليلا .

مقدمة

فى موضوع البحث

التبادل العقلى بين الشرق والغرب ـ التراث العقلى فى موضوع الرؤيا بين الشرق والغرب ـ تاريخ التفكير فى هذا البحث ـ منهج البحث وحقيقة الرؤيا الصادقة ـ متاعب البحث

التبادل العقلى بين الشرق والغرب :

تبادل الشرق والغرب الكثير من وجوه التفكير فيما سلف من مراحل التاريخ ، بل لقد قيل إن ثقافة الشرق القديم فى ماضيه السحيق ـ كما تتمثل فى النظر العقلى المجرد فى مجاهل العالم الآخر ، والتفكير العملى التجريبى فى الفنون والصناعات والعلوم ، قد انتقلت إلى اليونان الذين عالجوها بالاستدلال والبرهان ، فعرفوا ماهياتها ، ومذهبوا موضوعاتها ، وقننوا معلوماتها ، ثم انتقل التراث اليونانى الناضج إلى الشرق الأدنى ، بعد أن دان للأسكندر ، وساد الطابع الهيلينى بامتزاج الفكر اليونانى بالروح الشرقى ، ورحل إلى الرومان ـ غزاة اليونان ، فكسوه ثوبا لاتينيا ، وهاجر إلى الشرق بعد أن حوّل الرومان الشرق إلى مقاطعة رومانية ، ثم تسلل القليل منه إلى الغرب المسيحى ، ونزل أكثره بالعالم الإسلامى ، الذى جد أهله فى السعى فى طلبه ، من اليونان رأسا أو عن طريق السريان ، وحمل المسلمون القبس فى عصور الظلام ، حتى سلموه مع تلامذتهم من بنى إسرائيل ، إلى المسيحيين فى أوروبا قبل العصر الحديث ، وقد شرع هذا التراث العقلى يتسلل من أوروبا إلى الشرق فى عصرنا الراهن ، وليس يتنافى القول بتنقل التراث العقلى وارتحاله ، مع التسليم بنموه مع الزمان ، وتغير ملامحه بالتأقلم فى كل مكان . . . هكذا يقول بعض مؤرخى التفكير حين يتتبعون النظر العقلى فى تطوره مع الزمان ، بقطع النظر عن علاقته بالمكان .

ولعل الأدنى إلى الصواب ، أن يقال إن بعض وجوه النظر العقلى لا يعيش إلا فى بيئته ، كأنما كانت الأفكار كجراثيم الأمراض ، من حيث إن بعضها يلازم أصحابه حتى تموت جرثومته ، ولا يتنقل حتى ولو وجد طريق الانتقال إلى الغير ممهدا ، وبعضها الآخر ينتشر بالعدوى كلما وجد سبيلا للانتشار . . . بل لعل الأدق فى التعبير أن يقال إن طبيعة الأفكار - وجراثيم الأمراض - تدفع إلى التنقل المستمر ولا تطمئن إلى الثبات، ومرجع استقرارها - إن استقرت فى بيئة بعينها أو رأس بعينه ، أن البيئة التى تنزل بها ، لا تصلح لحياتها ونموها ، فيمتنع التفاعل بينها وبين مؤثرات هذه البيئة ، وأكبر الظن أن الكثير من وجوه النظر العقلى قد عاش فى مكانه ، وعمر وطال أجله دون أن يبرح بيئته ، وإن كان فى طبيعته ما يدفع إلى الارتحال . . . والراجح أن التبادل العقلى الذى كان بين الشرق والغرب طوال مراحل التاريخ ، يساير ما نقول ، إذ كان التراث المتبادل حظا مشتركا بين الجنس البشرى إطلاقا ، وهو يتمثل فى وجوه من التفكير العملى الذى يساير كل زمان ومكان ، لأن المنفعة المشتركة أكبر بواعثه ، وفى وجوه من النظر العقلى الذى يجد فى غير بيئته التى نبت فيها بيئات تصلح لحياته ونموه معا . وإذا كان من مؤرخى الفكر والفلسفة من ينكر على المسلمين - والساميين بوجه عام - قدرتهم على تفهم المذاهب اليونانية المجردة مثلا ، فإنى أميل إلى ترجيح القول ، بأن النظر العقلى فى أصله ، حظ مشترك بين الناطقين فى كل زمان ومكان ، وإن كان من المسلم به أن تحول ظروف شعب ما ، فى زمان ما ، دون التمكن من الخلق العقلى والابتكار النظرى ، أو تفهم ما أبدعه غيره من أهل الحق فى مجال النظر العقلى البحت - وهذه مشكلة طال فيها الجدل منذ زمان مديد ، وليس هذا مجال التبسط فى حلها

التراث العقلى فى موضوع الرؤيا بين الشرق والغرب :

وحسبنا الآن أن نقول إن التراث الذى عرفته الإنسانية فى موضوع الرؤيا بعضه وليد الطبيعة البشرية التى لا مجال للشك فى أنها حظ البشر جميعا ، وبعضه

وليد النظر العقلى الذى يتفاوت فيه الأفراد والجماعات فى كل زمان ومكان ، فأما الأول فمن الممكن أن نؤرخه عند المسلمين ، دون أن نبحث عن مصدر استقوه عنه ، لأن الشعوب تتلاقى عنده بطبيعتها ، ولأن العقل البشرى ـ فيما يقول جمهرة علماء الاجتماع ـ يستجيب للمؤثرات المتشابهة بطريقة واحدة ، رغم اختلاف الزمان والمكان ، ولكن الذى حدث فعلا ، هو أن العناصر الأصيلة قد تلاقت بعناصر أجنبية دخيلة تشبهها ، فتفاعلت معها فى البيئة التى التقت فيها ، وقد انحدرت إلى العالم الإسلامى العناصر الدخيلة من اليونان والرومان ، الذين أخذوا أكثرها عن قدماء الشرقيين ، وتفاعلت مع ما كان عنده من وجوه التفكير الذى يشبه هذا الدخيل . وأما الجزء الثانى فى هذا التراث ـ ونعنى به النظر العقلى البحت ، فنى الإمكان أن يكون عند الشعوب أصيلا غير دخيل ـ وقد كان كذلك عند اليونان ، الذين يقال إنهم فكروا على غير مثال ـ ولكنه كان بالفعل عند المسلمين ، مزاجا من عناصر دخيلة وأصيلة نبتت فى عقول أهلها ، وامتدت جذورها إلى قلوبهم ، وما تضمنته من عقائد الدين وتعاليمه ، فأما العناصر الدخيلة فى موضوع الرؤيا عند المسلمين ، فأنها تردّ فى الأغلب والأعم إلى فلاسفة اليونان والرومان ، وسنعود إلى بيان هذا بعد قليل .

وهكذا انحدر التفكير العملى فى الرؤيا وتعبيرها ـ أو أكثره ـ عن الشرق القديم إلى اليونان ، وسلمه هؤلاء إلى المسلمين الذين كان عندهم منه نظائر ، أو كان ينتظر أن يكون لديهم منه نظائر ، لو لم يصلهم تراث الغرب والشرق القديمين ، وقد أحسن المسلمون استقباله لأنه شرقى الأصل غالباً ـ فهو أكثر ملاءمة لروحهم ، وانسياقا مع طبيعتهم ، ولكن هذا لايعنى أن التراث الشرقى لم ينتقل إلى العالم الإسلامى ، إلا عن طريق اليونان والرومان ، وإن كنا لم نعثر فى الموضوع الرؤيا على ما يشهد بالانتقال المباشر بين الشرقيين والمسلمين فى هذا الصدد

وإذا كنا نقرر بأن النظر العقلى البحت فى مجال الرؤيا، يكاد يكون مرجعه إلى فلاسفة اليونان والرومان وحدهم ، فليس معنى هذا أن المسلمين حين تلقوه ، قد اكتفوا بأن يكونوا نقلة وحملة له ، فالواقع أنهم أخذوا منه ما يساير عقائدهم ، وما يتمشى مع عقليتهم ، ثم انصرفوا عما يتعارض مع روحهم أو يتنافر مع نزعاتهم وميولهم وتعاليم دينهم - كما تصوروها حينـــذاك - بل استبدلوا به مذاهب كانت من خلق تفكيرهم ووحى دينهم وإملاء بيئتهم ، وإن لم يخل النسيج الجديد من خيوط قديمة - والمعروف أن الاستعانة بالتراث السابق فى إنشاء الجديد ، لا تطعن فى ابتداع المذاهب - إلا أن الجانب المبتكر فى موضوع الرؤيا عند فلاسفة الإسلام والمتطرفين من الصوفية ، قد أغضب أهل السنة من رجال الشرع والمعتدلين من أهل التصوف معا ، وإن كان الأصل فيه أنه محاولة للتوفيق بين الفلسفة القديمة وتعاليم الإسلام إذ لم يكن من المعقول أن يسلم هؤلاء بمثل نظرية الاتصال بالعقل الفعال كما صورها الفلاسفة، أو بمذهب الاتحاد كما أبان عنه الإشراقيون من الصوفية ، أو بغير هـذا من اتجاهات عرضنا لها فى فصول هذا البحث

ولا يكاد يساورنا الشك فى أن التراث القديم - ولا سيما اليونانى والرومانى - قد انتقل إلى العالم الإسلامى ، حتى الجانب الذى ضاعت أصوله - كمذاهب الرواقية مثلا - إذ عرفه المسلمون فى مؤلفات الذين عرضوا له بالتأييد أو الإنكار، وإن كانوا قد عرفوه مشوها فى الكثير من الحالات ، وكتب المسلمين حافلة بآثار الرواقيـــة والفيثاغورية والأفلاطونية وغيرها ، وقد عرف رجال الرواق بأصحاب الاسطوانة وأهل المظـــلة (١) ، وإذا كانت الآثار

---

(١) سانتلانا : تاريخ المذاهب الفلسفية ج ١ ص ٧٦ و ٧٧ (نسخة فوتوغرافية) ولكن هـذه الأسماء تدل على ثلاث مدارس فلسفية مختلفة ، فأصحاب الرواق كانوا يعلمون فى الاسكندرية ، وأصحاب الاسطوانة فى بعلبك ، وأصحاب المظال فى أنطاكية ، فيما يقول احمد بن الطيب تلميذ الكندى (قارن حمزة الاصفهانى فى كتاب التنبيه على حدوث التصحيف (فيما يروى المرحوم الاستاذ كراوس فى كتابه جابر بن حيان)

العربية – فيما يرجح على الظن – لم تحتفظ بأثر دقيق عن الرواقية ومكانها فى تاريخ التفكير الإغريقى (١) فإن المعروف أن المسلمين قد اهتدوا إلى بعض مذاهبهم فى كتب جالينوس والأسكندر الأفروديسى والأطباء الروحانيين ومن إليهم (٢) ونكاد نقطع بأن آراء الرواقية فى الرؤيا والنجامة والسحر والكيمياء ونحوها، قد تسللت إلى المسلمين منذ زمان مديد – وإذا جاز هذا فى المذاهب التى يجهل الغربيون المحدثون أصولها، كان اتصال المسلمين بالتراث اليونانى الذى لم تفقد أصوله أكبر وأدعى لليقين، وقد أبنا فى فصول هذا البحث، الطرق التى سلكها هذا التراث القديم فى موضوع الرؤيا، حتى بلغ مفكرى الإسلام فلاسفة ومتصوفة ورجال شرع.

ولكن إذا كنا فى معرض الحديث عن تاريخ النظر العقلى فى موضوع الرؤيا – أو فى غيره من موضوعات – فلماذا نقسم العالم إلى شرق وغرب، ونحتاط فى حديثنا عن التبادل العقلى بينهما، كأنما كنا رجال سياسة أو أهل دين . . . ؟ وكأنما كان التبادل العقلى بضاعة لا يسهل نقلها من بلد إلى بلد بغير عوائق جمركية ..!؟ وهل يخضع العقل لهذه القيود التى تضعها الأوطان مساقة بالشعور القومى أو المصلحة الذاتية . . . ؟ بل إن موضوع الرؤيا بوجه خاص، لا يحتمل هذا التقسيم فيما يلوح، لأن فروعه وإن اتصلت بالتفكير الفلسفى والنظر العقلى، فإن جذوره ممتدة إلى عقائد البشر وطبائعهم معا، وقد تكفلت وحدة العقل الإنسانى، وتشابه استجاباته للمؤثرات الواحدة، بإيجاد تراث متشابه فى موضوع الرؤيا، مع اختلاف المكان والزمان، وتيسير نقله مع حسن استقباله فى كل مكان ينزل به، فلماذا نتحدث عن شرق وغرب، ونحتاط فى الحديث عن التبادل العقلى بينهما . . . ؟ فى الحق إن تاريخ فكرة ما، باعتبارها قائمة فى عقل إنسانى، يعيش أصحابه فى الكرة الأرضية، لا ينفى الإشارة إلى

---

(١) كراوس: جابر بن حيان ص ١٧١ – ١٧٢

(٢) سانتلانا فى المصدر السالف جـ ١ ص ٧٨

اختلاف المكان الذى تنزل به هذه الفكرة ، ولا يمنع من الحديث عن تأثرها ببيئته ، أو تأثيرها فى أهله ، بل لعل الإشارة إلى الزمان والمكان ، تساعد على فهم الفكرة ، ومعرفة نشأتها وتطورها معا .

وإذا صح هذا ، كان فى الوسع أن نقول إن الغرب كان سباقا إلى « النظر العقلى » فى مجال الرؤيا وما إليها من أساليب التكهن ، وأن الشرق كان سباقا إلى الاهتمام بهذه الظواهر ، والعناية بمزاولتها والاشتغال بها ـ وهكذا كتب له السبق فى الجانب العملى ، كما كتب للغرب السبق فى مجال النظر والتفلسف ...

ونستطيع أن نقول إجمالا ، إن فلاسفة الإسلام قد انتفعوا فى بحث الرؤيا عقليا ، بتراث اليونان والرومان ، ولاسيما أرسطو ـ وقد أبنا فى فصول هذا البحث ، كيف اتصل مذهبه فى الإسلام بالشرق الإسلامى عن طريق الكندى ، وبالغرب الإسلامى عن طريق ابن رشد ، وقد ظهر مذهبه عند مفكرى الإسلام فيما سموه بأضغاث الأحلام ، إذ صحبوه فى كل مراحل تفكيره ، حتى إذا وقف مترددا فى التسليم بالرؤيا الصادقة ، انصرفوا عنه إلى تأييدها ، مستندين إلى حجج استعاروا بعضها من مؤيدى الرؤيا من فلاسفة اليونان والرومان ، وأضافوا اليها أدلة كانت من إبداع تفكيرهم ، ووحى دينهم ، واستطاعوا بهذا أن يتخذوا الرؤيا دليلا ينهض على صدق النبوة والولاية ، وكانت هذه المحاولة معقد طرافة بدا فيها الكثير من وجوه التفكير المبتكر ، وإن كانوا فيها أشبه بالمتكلمين منهم بالفلاسفة والعلماء ، من حيث إنهم اعتنقوا الرأى أولا ، ثم حاولوا التدليل على صحته بالحجة والبرهان بعد ذلك . . !

وقد جاراهم فى هذا صوفية الإسلام ، الذين نهلوا من مذاهب الفيثاغورية والرواقية والأفلاطونية المحدثة ونحوها ، وإن كانوا قد حوروا فى بعض هذه المذاهب ، ونفثوا فيها روحا إسلاميا صرفا ، كاد أن يفقدها ملامحها الأولى ، ويقطع اتصالها بأصلها . . !

وأما رجال الشرع فقد أخذوا من هذه المذاهب القديمة ما ساير تفكيرهم وقويت عقولهم على تمثله ، ثم أضافوا إليه تراثا من الملاحظات العملية ،

استقوه عن تجاربهم ، وغذوا به جوعة الناس وشوقهم إلى إدراك الرؤيا ومعرفة تأويلها

وما من شك فى أنهم أفادوا من كتاب «أرطميدورس» ـ الذى عرفوه فى ثوبه العربى ـ على وجه الخصوص ، وإن كان الكثير من هذه الآراء الغربية ، قد انحدر إليهم عن تراث الشرق القديم ، فى مصر وبابل والهند ونحوها ، ومن الديانة الأورفية بوجه خاص ـ وهذا كله لا يمنع من تقرير وحدة العقل البشرى ، وإلغاء القول بنقل اللاحق عن السابق ، كلما وجد بينهما تشابه ..

وإذن فقد وضع «أرسطو» وغيره من قدماء المفكرين أصول البحث السيكولوجى والفسيولوجى والميتافيزيقى فى موضوع الأحلام عند المسلمين ـ وحصر هؤلاء أنفسهم فى دائرة هذه الأصول ، وفكروا فى نطاق هذه التيارات ، حتى كادت تقتصر ـ إضافاتهم العلمية فى هذا البحث ـ على موضوع الرؤيا الصادقة ، إذ كان فى تفكيرهم فيها وجوه من الطرافة والجدة لم يعرف بعضها فى التراث القديم ، وما عرف منها تغيرت على يدهم ملامحه حتى بدا على غير ما كان . . .

وليس فى هذا مثار للغرابة ؛ إنما وجه الغرابة أن المحدثين من علماء النفس ، قد لجأوا إلى هذه « الأصول » القديمة فى الكثير من نواحى أبحاثهم ، وإن كانت هذه الأصول قد وردت فى التراث القديم ملاحظات موجزة ـ فى أكثر الحالات ـ فتحولت عند المحدثين إلى مذاهب علمية وفلسفية ، تؤيدها مئات التجارب والمشاهدات ، ويبين عنها عديد المؤلفات ، بما تتضمن من وجوه النظر العقلى ، القائم على فيض من المشاهدات والخبرات ، وذلك بفضل المنهج العلمى الذى سلكوه فى علاج الأصول السالفة وفهمها ، بما كاد أن يطمس معالمها الأولى ، ويبديها فى صورة يتوهم الناظر إليها ، أنها مقطوعة الصلة بالأصل الذى يحتمل أن تكون قد صدرت عنه . . . ! وموقفهم هذا يصاحبه تقدم ملحوظ فى الدراسات السيكولوجية والميتافيزيقية والفسيولوجية الحديثة ، وهذا نفسه هو الذى يجعل حكمنا على التفكير الإسلامى لينا سمحا ، ويميل بنا إلى تقدير الجانب الصوفى والفلسفى فى هذا التفكير ، وإن كانت فيه عناصر

عريقة فى القدم ـ بل حتى التراث الذى خلفه المشتغلون بالأحلام من أهل الشرع ، فيه مايدعو إلى التقدير ، بما تضمن من تجارب ساذجه ، ولفتات عقل سليم ، ووجوه من النظر الذى يساير أحدث وجهات النظر السيكولوجيه ، دون منهج علمى يؤدى إليها ـ على نحو ماعرفنا من قبل ـ وحسب مفكرى الإسلام أن يكون فى دراسة آثارهم العقلية وإطالة النظر فيها ، مايستأصل استخفاف الناظر إليهم على عجل ، وما ينتهى بتقدير آثارهم بعض التقدير ، الذى يقوم على المنطق والعدالة ، ولا يستند إلى الهوى أو المصلحة ، وإن كان من الضرورى مع هذا أن نقتصد فى حسن الظن ، ونحتاط من شر الإسراف فى التقدير ، لأن ماعرضناه فى هذا البحث ، لايبرر إلا الحيطة والحذر فى هـذا الصدد .

ولـكن كيف اتجهت إلى دراسة هذا البحث ..؟

تاريخ التفـكير فى هذا البحث :

منذ بضعة أعوام وكلت إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، تدريس تاريخ العلوم الفلسفية لطلاب السنة الأولى ، واستلزم الحديث عن التيارات الحديثة فى علم النفس ، أن أعرض موقف مدرسة الاستقصاء العقلى والتحليل النفسانى من الذات اللاواعية ، وطرق دراستها عند أتباع هذه المدرسة ، واقتضى هذا أن أعرض موقفهم من الأحلام (١) فى إيجاز ـ وكنت كلفا بهذا الموضوع من قبل ، ولـكن العرض الوجيز أدى فيما بعد ، إلى التفـكير فى دراسة الموضوع فى توسع ، استجابة للذة العقلية التى ينتظر أن تترتب على دراسته ، فلما قطعت مرحلة فى دراسته ، خطر لى أن أضع كتابا عن « الأحلام فى ضوء علم النفس الحـديث » ثم بدا لى أن أتم البحث ، بعرض وجيز لمختلف وجهات النظر

---

(١) على اعتبار أن الأحلام لب التحليل النفسى وجوهره ، وكثيرا ما كان يصرح بهذا « فرويد » نفسه (انظر كتابه Interpretation of Dreams ص ٥٥٩ و The Origin and Development of Psycho-Analysis ص ٢٠٠ وعلى نموذج نظريته فى الأحلام ، صاغ مذهبه فى العصاب (انظر « دالبيه » Dalbiez ج ١ ص ٢٨)

الإسلامية فى مجاله ، فلما شرعت فى دراستها ، وعرفت ميادينها ، تبينت أنها وحدها خليقة ببحث مستقل ، تكون الدراسات السيكولوجية الحديثة تعليقا عليه ، بعد معرفة أصول هذه الاتجاهات الإسلامية ، فى الدين والتراث الغربى والشرقى على السواء ، بهذا لا تكون الدراسة مجرد نقل وتلخيص وتصنيف لما ورد فى كتب المحدثين من علماء النفس ، بل تصبح بحثا طريفا جديدا — حتى فى غير اللغة العربية ، لأن هذا الموضوع بكر لم يطرقه أهل البحث فى العربية أو فى غيرها من اللغات فيما نعلم ، ومذاهب مفكرى الإسلام — فلاسفة وصوفية ورجال شرع — قد ذهبت أشتاتا فى كتبهم ، ولم تصادف من اهتمام الباحثين كثيرا ولا قليلا ، فالكشف عنها ، وتتبعها إلى منابعها الأولى ، ومعرفة مكانها من التفكير العلمى الحديث ، خليق بأن يكون موضوعا لرسالة دكتوراه . . ! وقد سلم بهذا أستاذى المشرف على إعداد رسالتى : معالى مصطفى باشا عبد الرازق ، وكان على علم بهذه التطورات (١)

ولما شرعت فى طبع هذا الكتاب ، آثرت أن أتناول الكثير من فصوله ، بوجوه من التعديل ، اقتضت أن يجرى القلم فيها بالحذف والتبسيط والإضافة ، ليكون الكتاب أكثر ملاءمة لجمهور المثقفين من القراء .

منهج البحث وحقيقة الرؤيا الصادقة :

موضوع الرؤيا حبيب إلى نفوس الناس ، متى صادفوا باحثا عرض لدراستها ، وثب إلى خواطرهم الاستفسار عن حقيقتها ، وطفر إلى ألسنتهم

---

(١) وكنت أقوم إذ ذاك بترجمة كتاب « العلم بالغيب فى العالم القديم » Divination لفيلسوف الرومان وخطيبهم « شيشرون » + ٣٤ ق . م Cicero فخطر لى — وأنا فى منتصف الترجمة — أن ألحقه بالرسالة ، لأنى أدركت فجأة ، أن بين موضوعه وموضوعها علاقة عموم وخصوص ، فأخطرت مجلس الكلية برغبتى فى جعل الترجمة وتعليقاتى عليها ملحقا للرسالة ، وقد جازت الرسالة — وملحقها — امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة فى مايو ١٩٤٣ والمنتظر أن يطبع الملحق قريبا .

السؤال عن مدى الصدق فيما يشاع بصددها ، من تحقق الكشف عن وجوه الغيب عن طريقها ، ومن هنا وجب أن نقف ـ فى مقدمة هذا الكتاب ـ عند هذا الاستفسار قليلا :

سيرى القارىء أننا انتهينا من هذا البحث ، إلى مجرد الترجيح فى عدم اعتبار الرؤيا وحيا إلهيا ، وبذلك نزعناها من مجالها الشائك ، وأطلقنا العنان للعقل فى بحثها ، ولم نلزمه إلا بقيود العقل نفسه . وهذا الترجيح لم نجد مايبرر تحويله إلى يقين جازم ، لأن طبيعة الموضوع ، مع قصور أدوات المعرفة التى توصل إليها الإنسان حتى أيامنا الراهنة ، تجعل الحكم الحاسم إسرافا لا يبيحه منهج البحث العلمى ، ومن الخطأ عند علاج مثل هذه الموضوعات ، القطع فى الأحكام سلبا أو إيجابا ، استنادا إلى المهارة فى الجدل والبراعة فى البيان ، على نحو ما كان يفعل السوفسطائية فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد ، كما أن من الخطأ ـ فيما نرى ـ الامتناع عن القطع فى الحكم برأى جازم ، استنادا إلى أن الحقيقة تحتمل السلب والإيجاب بقوة متعادلة ، والانتهاء بهذا إلى الشك الحائر اليائس المتردد المتخاذل ، الذى يعلن آخر الأمر لا أدريته ، ويقرر إفلاس العقل ويضل سبيل الحق والخير معا ، فيلوذ بالعقائد الشعبية ، ويلتمس الطمأنينة فى رحابها ، على نحو ما كان الأمر عند شكاك القرن الرابع قبل الميلاد ـ من أمثال بيرون Pyrrhon ـ وليس من المساغ ـ فيما يبدو لنا ـ التزام الشك الحقيقى الهدام ، الذى يطيح بالعقل والحواس باعتبارها أدوات لإدراك الحقائق ، وينتهى إلى الفراغ والحيرة والقلق والشك والانتهاء والموت ، فيهدم سلطان العلم فى العقول ، ونفوذ الدين فى القلوب ، ويقضى على القيم والمعايير فى كل ميدان ، كما ذهب دعاة الشك الحقيقى من أمثال « مونتانى » Montaigne و « سانشيه » Sanchez فى القرن السادس عشر ، وربما بدا ـ لأول وهلة ـ أن خير مناهج البحث ـ فى مثل هذا الموضوع ـ اتباع الشك المنهجى ، الذى عرف عند ديكارت فى القرن السابع عشر ، الذى يبدأ بالشك ـ اتقاء لخطر الأحكام المبتسرة ـ ولكن سرعان ما يتحول الشك على يد صاحبه من حال ريب متكاسل ، يذعن لها أهلوها إلى

فعل إرادى يزاوله صاحبه ويمضى فيه بحرية ، ويسيطر عليه ، ومن ثم يتحرر منه ـ كما يشير كواريه A. Koyré فى دروسه عن ديكارت .

على أن التزام هذا المنهج فى مثل هذا الموضوع ، لا يمكن صاحبه ـ فيما يخيل إلينا ـ من الاستقرار إلى يقين جازم . . ! فإن العلم لم يقل كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولعله لن يقولها أبدا . . ! ومن الخير ألا يزعم القدرة على إعلانها ، أو أن يعتقد المفكرون أن ليس فى وسعه أن يقولها ، حتى لا يتعصبوا لها ، ويثبتوا عندها ، فإن مثل هذا الثبات فى مجال البحث العقلى ، ليس مفخرة لصاحبه ، وإن جاز أن يكون كذلك ، فى ميدان العقائد الدينية ، أو عند الاشتغال بالشئون السياسية . . !

وإلى هـذه النتيجة الترجيحية انتهى بحثنا فى موضوع الرؤيا ، وهى نتيجة تشيع مبرراتها فى فصول الكتاب طولا وعرضا ، وحسبى هذا انتصارا . . إنه عندى خير من انتصار موهوم أعود فيه بعد البحث بغنائم وأسلاب ، هى أشبه ما تكون بغنائم السوفسطائيـة ، التى يربحونها على حساب الحقيقة ، كما يظفر قادة الحروب بالأسلاب ، على حساب الضحايا من نفوس وأموال . . إن معين الدراسة العقلية لا ينضب ولا ينفد ، ومصباته لا تغيض مياهها ، لأنها بغير شواطىء . . ! إنها طلقة لا تحدها إلا قيود العقل نفسه ، ومن أجل هـذا كانت فى أمان ، والخسران إنما يكون فى تقييدها ، ووضع نهاية تقف عندها ، كأنما قال العقل كلمته الأخيرة فى موضوعها . . . إن العقل الذى يدعى هذا الادعاء ، يقدم لنا الدليل الناطق على إفلاسه ، فيكون انتصاره الموهوم فى صراعه لإدراك الحقيقة ، أعدل شاهد على عجزه عن بلوغها ، بادعائه الوصول إليها ، وتحريمه مواصلة البحث عنها . . . إن العقل الذى يدعى أنه بلغ الغاية فى إدراكه ، وظفر باليقين بعد تأملاته ، فلا حاجة بعد هذا إلى تفكير . كالعقل الذى ينتهى بعد التفكير إلى الشك الهدام ، فيقف من الحقيقة حائرا مترددا يعلن لا أدريته . كلاهما مفلس ، بل إن إفلاس الأول مصحوب بادعاء وغرور ، سلم منه العقل الشاك

وإنما الانتصار يكون بعد الدراسة الدقيقة المنهجية ، فى مجرد الترجيح ، وإغراء أهل البحث والنظر العقلى ، على مواصلة الدراسة والتفكير ، عسى أن يدنينا هذا من بلوغ الغاية فى إدراك الحقيقة . . !

وقد حاولت جهد الطاقة أن ألتزم منهج البحث العلمى عند ما شرعت فى دراسة هذا الموضوع ، فعنيت أول الأمر بالتخلص من أحكامى المبتسرة prejudices ، وحاولت أن أبرأ من كل هوى لا يستند إلى دراسة علمية جادة، ثم حاولت — بعد هذا — مراجعة الآراء التى تهيأت لى عن الموضوع ، وامتحانها والتثبت منها ، لأعتنق منها ماساير منطقى وحده ، وفى هذا كله يتفق المنهج العلمى مع المنهج الفلسفى ، وإن اختلفت وسائل امتحان الأفكار والتثبت منها ، بين المشاهدة والتجربة عند العلماء ، والنظر العقلى عند الفلاسفة ، وكنت أقف من وجهات النظر الإسلامية — فلسفية كانت أو صوفية أو دينية — موقف المؤرخ النزيه ، الذى يحاول أن يسجل ما يرى عن غير هوى ، ويتناول تحليله فى غير احتقار له ، أو إعجاب به ، أو هكذا خُيل إلىّ ، فإن من العسير — إن لم يكن من المستحيل — أن يبرأ المرء من الهوى برءا قاطعا ، ثم عنيت بعد عرض هذه الاتجاهات بردّها إلى منابعها فى دين أهلها وبيئتهم ، ثم فى التراث اليونانى والشرق القديم ، وعقبت على هذا بعرض ما يقابلها فى الدراسات السيكولوجية الحديثة ، حتى إذا تحولت من موقف المؤرخ إلى موقف القاضى ، تيسر لى أن أكون حاكما عدلا فى تقرير مكانة التفكير الإسلامى فى مجال النظر العقلى فى موضوع البحث فى الرؤيا طوال العصور .

متاعب البحث :

ومن هذا نرى أن دراسة هذا الموضوع كانت دراسة مقارنة ، والدراسة الكاملة لموضوع متعدد الجوانب — كموضوع بحثنا ، وتتبع نواحيه ، فى شتى العصور وعند مختلف المفكرين ، أمر شاق قد يتجاوز الطاقة البشرية ، ومن أجل هذا وجب أن نشير إلى أنها مجرد محاولة ، وهى محاولة تعتبر ناجحة — فيما

أرى - إذا أغرت بعض الباحثين بارتياد هذا الموضوع ، ومحاولة الكشف عن مجاهله ، وتصحيح مايحتمل أن نكون قد أخطأنا فهمه ، أو أسأنا الحكم بصدده والعصمة لله وحده .

ومن أجل هذه الرحابه فى ميادين البحث ، كان شرما فى الكتاب أن وجوه نقده ومناقشته كثيرة وميسورة ، واتجاهات التفكير فى موضوعاته متعددة ، ولكل منها ما يبرره من أدلة وحجج ، والعقول فى الناس متفاوتة ، وأظهر ما يبدو تفاوتها ، فى الموضوعات التى ترقى إلى العالم العقلى ؛ وليس المهم فى مثل هذه الميادين أن تتفق فى اتجاهاتها وتصور موضوعاتها ، وجهات النظر عند الناقد والباحث ، وإنما المهم موقف الباحث من موضوعه ، كيف تصوره ، وماذا كان منهجه فى بحثه ومنطقه فى دراسته ، ومدى استيعابه لتراث القدماء والمعاصرين فى موضوعه ، ومبلغ ما ولده هذا من معان جديدة فى عقله ، وإلى أى حد استطاع أن يستغل هذا كله فى تمثل الموضوع وإبداعه ... وسيان بعد هذا أن يكون بين الناقد والباحث اتفاق أو اختلاف ... هذه هى كبرى ميزات الدراسات العقلية فيما يلوح ، إنها تحتمل التباين فى وجهات النظر ، ولا يؤثر مثل هذه الخلافات فى تقديرها - إن كانت جديرة بالتقدير ....

وقد استلزمت دراسة هذا البحث جهودا مضنية استغرقت زمنا طويلا ، أفدت إبانه من أهل العلم بهذه الدراسات الرحبة حسبي أن أذكر منهم أستاذى الجليل معالى مصطفى باشا عبد الرازق ، الذى تولى الإشراف على هذا البحث ، وأحسن رعايته وأكرم عند الطبع صاحبه ، بتقديمه لجمهور القارئين ، والمرحوم الأستاذ وادل Wadell الرئيس السابق لقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب . فقد كان - رحمه الله رحمة واسعة - عظيم الفضل فى إمدادى بالمصادر اليونانية والرومانية التى تتصل بهذا الموضوع . ومن أصدقائى وزملائى فى جامعة فؤاد الأول :

الطبيب الموفق الدكتور رجب عبد السلام ، إخصائى الأمراض الباطنية بكلية الطب وقصر العينى، والدكتور محمد سليم سالم إخصائى الدراسات القديمه بكلية الآداب ، والدكتور يوسف مراد إخصائى علم النفس بكلية الآداب ، وقدكان لحضراتهم أطيب الأثر فى النواحى الفسيولوجية والسيكولوجية واليونانية والرومانية . فى هذا البحث، وقد أعد كشاف الأعلام المنشور فى آخر هـذا الكتاب صديق وتلميذى ، مصطفى إسماعيل سويف ، ـ أول خريجى قسم الفلسفة بجامعة فؤاد هذا العام ـ فلحضراتهم جميعا أجمل آيات الشكر والتقدير

° ° °

وبعد فما رجوت من وراء هذا الجهد ، إلا أن أصل مع القراء ـ بصدد هذا الموضوع الدقيق الشائك ـ إلى كلمة حق ، يسكن لها منطق العقل ، ويطمئن إليها حدس القلب ، ولهذا كفلت للعقل سلطانه ، وأبيت عليه أن يتجاوز مجال الترجيح ، إلى نطاق اليقين ، رعايةً لحدس القلب ، واتقاءً لما يترتب على انفراد العقل من شطط التقدير ـ وإن كنت لم أملك طوال البحث ، إلا تحكيم المنطق وحده ـ فأرجو أن أكون قد أصبت من التوفيق ، لقاء ما استنزفت من جهود . . والعصمة لله أولا وآخراً ؟

توفيق الطويل

الاسكندرية فى { شوال ١٣٦٤ هـ
سبتمبر ١٩٤٥ م



تمهيد

فى أبواب الكتاب وفصوله

اتفق جمهرة مفكرى الإسلام ، على أن الله يطلع على غيبه من شاء من عباده فى يقظه أو منام أو فيهما معا ، فأن وقع هذا إبان اليقظة ، كان نبوة أو ولاية أو نحوها ، وإن وقع أثناء النوم ، كان رؤيا صادقة ، فأن لم تكن بوحى من الله لكشف غيب ، كانت أضغاث أحلام . لا تقبل تأويلا ولا تستحق اهتماما .
وهكذا جمع النوم بين الرؤيا الصادقة ، التى تكون بوحى إلهى أو إلهام ملكى ، وبين الأحلام الباطلة ، التى تكون صدى وسوسة نفس أو غلبة مزاج أو وحى شيطان - فيما يقولون - كما جمع الوحى الألهى بين الرؤيا الصادقة والنبوة والولاية فى سمط واحد ، فتوحد معدنها وإن اختلفت رتبتها على نحو ما سنعرف بعد .

ومن أجل هذا كان البحث فى الرؤيا ، يستلزم الحديث عن النوم الذى تقع أثناءه مختلف الأحلام ، وعن الوحى الألهى الذى يقع لبعض الناس أيقاظا كانوا أو نياما . وقد عالجنا الوحى إبان اليقظة ، فى كتاب وضعناه عن « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » (١) وقصرنا هذا البحث على الأحلام فى مختلف آفاقها ، فعرضنا فى أول أبوابه للحديث عن النوم ، وعما يقع أثناءه من

---

(١) سينشر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية هذا الصيف .

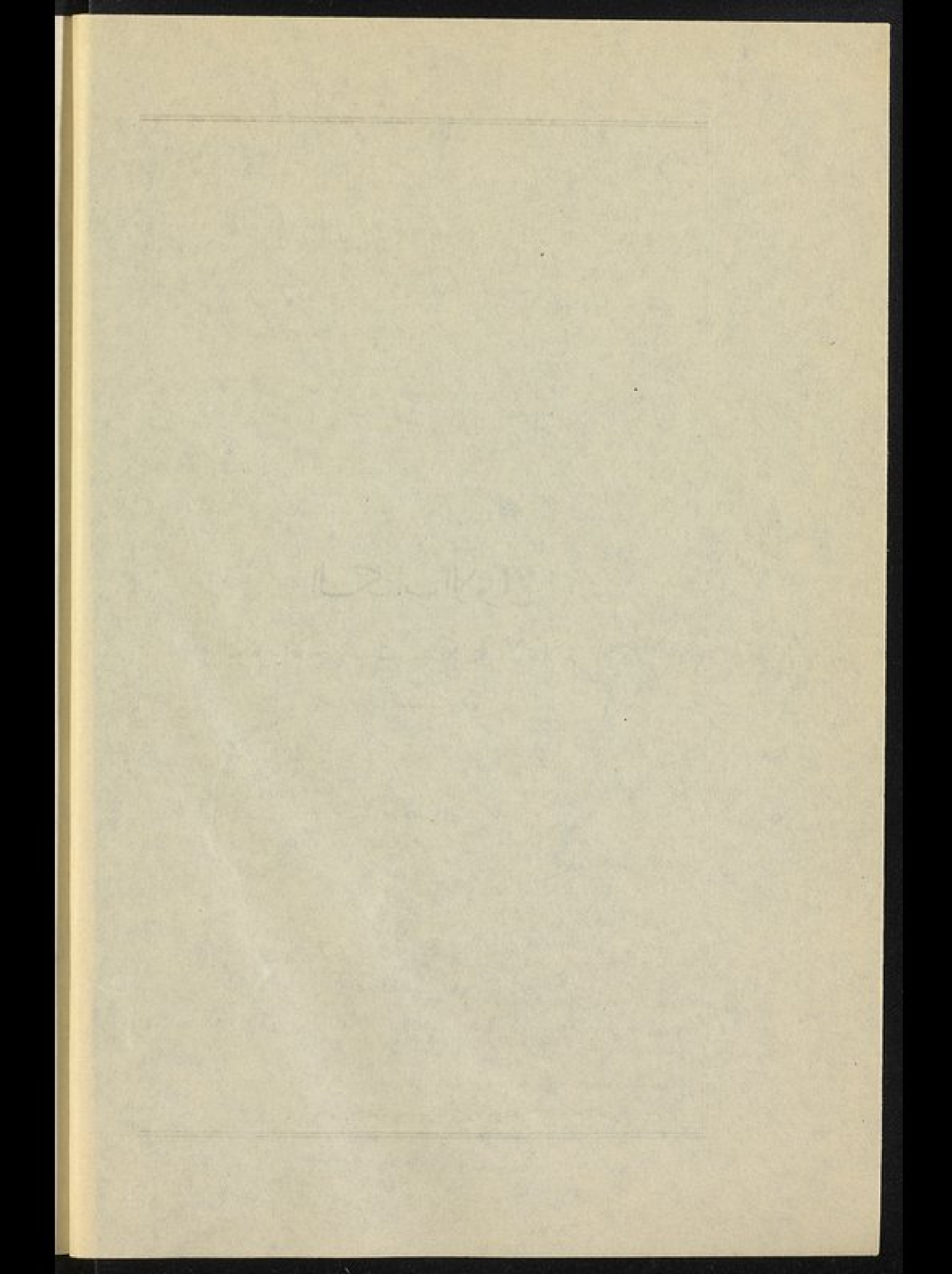
باطل الأحلام ، ووقفنا الكتاب الثانى على الرؤيا الصادقة وتعليلها ، وعقبنا فى الكتاب الثالث بالحديث عن تعبيرها .

أما منهجنا فى البحث ، فالوقوف فى كل فصل موقف المؤرخ ، فنعرض فى أمانة وجهات النظر الأسلامية - شرعية وصوفية وفلسفية - ثم نتتبعها إلى منابعها الأولى فى التراث العقلى عند اليونان والرومان والشرقيين القدامى ، لنميز بين العناصر الأصيلة والدخيلة فى التفكير الإسلامى ، ونتبين مدى ما فيه من وجوه الجدة والابتكار ، ثم نعرض ما يقابل هذا التفكير عند المحدثين من علماء النفس ، لنتبين مكان المسلمين فى مجال التفكير الأنسانى .

والآن إلى الكتاب الأول ، نعرض فى فصل منه ، موقف مفكرى الأسلام من ظاهرة النوم وتعليلها ، ونعقب فى فصل ثان بالحديث عما يقع أثناءها من باطل الأحلام ، وموقف المفكرين من تعليلها .

الكتاب الاول

النوم والأحلام عند مفكرى الأسلام



الفصل الأول

النوم وتعليله عند مفكرى الأسلام

علاقة النوم بالرؤيا ـ موقف مفكرى الأسلام من ماهية النوم الحس المشترك عند الفلاسفة ـ عود إلى تعريف النوم ـ النوم عند الحيوانات وناقصى الحواس ـ تعليل النوم عند المفكرين ـ منابع أفكارهم فى النوم وتعليله — النوم فى تراث أرسطو — تعليل النوم عند أرسطو — موقف المحدثين من علماء النفس ـ موقف المحدثين من علماء وظائف الاعضاء — ما يقابل أفكار المسلمين عند المحدثين ـ نظرية التعب وغيبة المحسوسات الظاهرة — نظرية بافلوف فى الأبطال الشرطى — نظرية أنيميا المخ — نظرية التغيرات الكيميائية الطبيعية ـ ملاحظات على بعض ماسلف من آراء .

علاقة النوم بالرؤيا :

عالج مفكرو الأسلام النوم عند ما عرضوا للرؤيا فى مباحثهم ـ إن جاز أن يكون لهؤلاء المفكرين أبحاث علمية مستقلة ، فصلوا فيها الحديث عن هاتين الظاهرتين ـ ولعلهم تأثروا فى هذا بمنهج أرسطو فى دراسة الأحلام ، وهو أساس تفكيرهم فى الرؤيا كما سنعرف بعد ـ أو بمنطق البحث نفسه ، فاستعانوا بفهم النوم على معرفة هذه الآفاق الغامضة فى مجال الأحلام ـ كما فعل المحدثون قبيل مطلع القرن الحاضر ، اقتناعا منهم بأن الأبحاث المفصلة فيما يمكن إدخاله فى نطاق الأحلام ، هى وحدها التى تمكن من إلقاء ضوء على هذه المسائل الغامضة (١)

---

(1) S. Freud : Interpretation of Dreams p. 4

ومن أجل هذا كان لا بد لنا من أن نعرض «موقف المفكرين من ظاهرة النوم»، قبل الشروع فى دراسة الرؤيا :

موقف مفكرى الأسلام من ماهية النوم :

رسمه البعض بأنه «حسٌّ مّا بالقوة»، لأن اليقظة «حسٌّ مّا بالفعل» (١) فهو عدم اليقظة لأن ما هو بالقوة عدم بالفعل. وما يكون حسا بالقوة قد يتفق أن يخرج إلى الفعل فى رؤيا صادقة، وعندئذ يكون أشرف من الحس بالفعل، أما الكاذب من الحس الذى بالقوة فخسيس، وأشرف منه حسٌّ مّا بالفعل (٢). وهكذا يتسلسل الحس فى مراتب الشرف، من رؤيا إلى يقظة إلى أضغاث أحلام. ويجمع هذا الرسم بين احتمال وقوع الرؤيا، وإمكان وقوع الأحلام الباطلة إبان النوم. ويرتد به النوم واليقظة إلى القوة الحساسة المدركة وينسبان - فيما يظهر - إلى الحس المشترك، إذ ليس من الممكن أن يعزى النوم إلى القوة الغاذية، فأن النبات لا ينام، لأنه غير مدرك، فالنوم ينسب بالضرورة إلى النفس المدركة، وإلى غير الناطقة كذلك، لأن الحيوان غير الناطق ينام (٣) وقد يوهم هذا التعريف أن الحس كله يتعطل عن أداء وظيفته أثناء النوم، ولكنا سنعرف بعد قليل وجه الخطأ فى هذا الرأى.

ولكن ما هذا «الحس المشترك» الذى ينسبون إليه النوم واليقظة . . ؟ ينبغى أن نبين عنه أولا، فعليه تعتمد تعريفات أخرى للنوم :

الحس المشترك عند الفلاسفة :

قسم الفلاسفة الحواس إلى خمس ظاهرة - من بصر وسمع ونحوه - وخمس باطنة هى الحس المشترك والخيال والوهم والحافظة والمتصرفة. وقد رفض علماء

---

(١) فى الاصل — وهو نسخة فوتوغرافية فى مكتبة جامعة فؤاد لا أظن فى مصر سواها « النوم حس لا بالقوة » واليقظة « حس لا بالفعل » وخطأ هذه الصيغة ظاهر فيما يلوح، وقد صححته معتمدا على فهم المعنى وسياق الحديث فى الاصل (٢) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٧٥—٧٦ (٣) المصدر السالف ص ٧٦

الـكلام إثبات الخمس الأخيرة ، واعتبروها من مخترعات الفلاسفة ، ويعنينا الآن منها الحس المشترك ، وهو القوة التى ترتسم فيها صور الجزئيات المحسوسة بالحواس الظاهرة (١) . وهو بالنسبة إلى الحواس كحوض ، تصب فيه أنهار خمسة ، وهو الذى يشاهد صور المنام معاينة لا على سبيل التخيل (٢) . وهو روح حيوانى جسمانى ، يتألف من بخار لطيف يقوم مركزه بالتجويف الأيسر من القلب - كما ورد فى كتب التشريح لجالينوس وغيره (٣) . وينبعث هذا البخار مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيؤدى إلى الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع النوع اللطيف من هذا البخار إلى الدماغ فيعدل من برودته ، ويتم أفعال القوى التى فى باطنه ، والنفس الناطقة إنما تدرك وتفعل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة التكوين من أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف ، ولما كان هذا الروح الحيوانى قد لطف فقد أصبح محلا لآثار الذات التى تباينه فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وعن طريقه تحصل آثار هذه النفس فى البدن . والمعروف أن إدراك النفس الناطقة يكون على نوعين : أولهما إدراك بالظاهر تؤدى إليه الحواس الخمس ، وثانيهما إدراك بالباطن تؤدى إليه القوى الدماغية . وهذان النوعان من الأدراك يصرفان النفس عن إدراك ما فوقها من ذواتها الروحانية التى تهيأت لها بالفطرة ، فاذا انحبس الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ، ورجع إلى الحس الباطن

---

(١) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٤ وابن مسكويه فى الفوز الاصغر ص ٩٧ وما بعدها . وعجائب النصوص فى تهذيب الفصوص ص ٧٣ و ٧٤ و٧٦ من الطبعة الاولى ولكن بعض مفكرى الاسلام قد قسمها تقسيمات أخرى؟ أنظر تعليقات الدكتور يوسف مراد على كتاب الفراسة للرازى (ص ١٤٣)

(٢) السهروردى : هيا كل النور ص ١٤

(٣) هكذا يقول ابن خلدون ولكن التهانوى يقول إنه بالتجويف الاول من تجاويف الدماغ الثلاثة (ج ١ ص ٣٠٤ ، ٤٥١) ويقرر ابن رشد (٧٨ من الحاس والمحسوس) بأن مبدأه القلب

وقع النوم (١) .

وهذا رأى انتهى إليه الفلاسفة كذلك ، فقد عرفوا النوم بأنه غور الحس المشترك إلى داخل الجسم ، وانصرافه عن المحسوسات خارجه ، لأنهم يرون أن النائم لا يعدم فى حال نومه شيئا من آلات الحس ولا من آلات الحركة ، ومع هذا فهو لا يحس ولا يتحرك حركة إرادية ، وتمر به المحسوسات فلا يشعر بها ، ومن هذا رأوا أن السبب فى النوم ، أن مدرك المحسوسات ـ وهو الحس المشترك ـ قد انصرف عنها إلى باطن البدن ، وهذا هو النوم (٢) .

عود إلى تعريف النوم :

وبهذا تصبح اليقظة حركة هذا الحس المشترك إلى آلاتها من خارج ، وهكذا أضحى رسم النوم عندهم سكون الحركة ، واليقظة اتصالها ، ودللوا على أن النوم غور الحس المشترك إلى باطن البدن ، بأن اليقظان قد يعرض له هذا فتمر به المحسوسات دون أن يدركها ، وذلك متى استغرق فى التفكير فى أمر ما إذ تتعطل عندئذ أدوات حسه ، ويقبل بالحاسة المشتركة إلى داخل الجسم ليعين القوة المفكرة ، وهذه تقوى عند سكون سائر الحواس ، ولهذا كان الانسان يدرك فى النوم أمورا مقبلة لا يقوى على إدراكها إبان يقظته (٣) .

ولكن القول بامتناع الحس والحركة على النائم ؛ مع توافر آلات الحس والحركة عنده ، قد يجر إلى الخطأ فى فهم الحقيقة ، والأصح أن يقال إن النائم يعجز عن الأحساس بحواسه الظاهرة وحدها ، أما الحواس الباطنة فأنها لا تسكن أثناء النوم ـ وإن ذهب البعض إلى غير هذا الرأى ، فأن النفس قد تتصل عند خفة الشواغل فى البداهة بعالم المثل ، فيفيض عليها ما يفيض ،

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٠ وقارن ما يقوله عنه الغزالى فى « مقاصد الفلاسفة ص ٣١٣ — ٣١٤ (٢) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٧٦

(٣) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٧٧

وتخبر به محاكيا للأمور الخيالية ، وكذلك يقال فى امتناع الحركة عند النائم ، فالأدق فى التعبير أن يقال إنه يعجز عن الحركات غير الضرورية والأرادية معاً ، وبذلك تستبعد الحركات الضرورية — كالتنفس — وغير الأرادية من نطاق هذا العجز(١) فالأفعال النفسانية كلها تهدأ أثناء النوم ، فيعدم الأنسان حواسه الخمس والحركة الأرادية كذلك ، أما الأفعال الحيوانية والطبيعية فأنها تجرى على حالتها أثناء النوم ، فلا يعدم الأنسان النفس والاغتذاء ، ويشهد بهذا حركة الشرايين والنفس الظاهر وجودة الاستمراء (٢) وإذا لم يحدث هذا ، وقع الموت ، فأن بقاء الحياة يستلزم قيام هذه الأفعال الحيوانية . (٣)

ومن قبيل هذا قول بعضهم فى تعريف النوم ، إنه غيبة عن المحسوسات الظاهرة ، مردها إلى تعب ينشأ من الحركة إبان اليقظة ، فيوجب الراحة بهذه الغيبة (٤) وتقع هذه الغيبة حين تترك النفس استعمال الحواس جميعا . (٥) وبهذا يقع النوم حين يمتنع البصر والسمع ونحوه من غير آفة طارئة(٦) فأن وقع لآفة طرأت على الحس من إغماء أونحوه ، لم يكن هذا نوما طبيعيا. ومن أجل هذا قيل فى التفرقة بينه وبين اليقظة ، إنه ربط القوى ووثاقها، أما اليقظة فانحلالها وضعفها ، وذلك أن الحواس تستعمل فى اليقظة آلاتها ، فيعرض لها الانحلال من جراء التعب ، والنوم جمام لهذه القوى ، فهو رباط لها، لأنها تجد فيه قوة ونشاطا . ولما كان الكلال يعرض لآلات الحواس عن آلام تطرأ عليها من تعب ونحوه ، كان لهذه الأشياء مدخل فى رسمه

---

(١) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٤٣٠

(٢) على بن عباس المجوسى : الصناعة فى الطب ج ١ ص ٢١١

(٣) ابن سينا . القانون فى الطب ج ٢ ص ٥٥

(٤) ابن عربى : الفتوحات ج ٢ ص ٤٩٨

(٥) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ١٠٩ — ١١٠

(٦) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٤٣٠

وفى المصادر الأسلامية تعريفات أخرى للنوم ، لاتكاد تخرج فى جوهرها عما أسلفناه (١)

النوم عند الحيوان وناقصى الحواس:

وقد أدى هذا إلى القول بوقوع النوم عند كل حيوان له يقظة ، لأن الضعف يعتريه لامحالة ، وإن كان النوم لايلزم للحيوانات على نحو واحد ، فأن من الحيوان ماله خمس حواس ، فيقع له النوم واليقظة على التمام ، كما يقع له الحزن والسرور والشهوة ونحوها على التمام ، وتتهيأ له الحاسة التامة المشتركة بين الحواس الخمس ، ومن الحيوان ماله أربع أو ثلاث حواس ، فلا يقع له النوم فى القوى الخمس جميعا ، لأنه لايسهر بها جميعا فتتعرض للتعب وتحتاج للاستجمام ، ولكن مثل هذا الحيوان ينام لأن النوم يعرض للحس المشترك ، وفقدان بعض الحواس العرضى لايمنع النوم ، ومن أجل هذا فأن الكفيف والأصم ونحوهما ينامون ، لأنهم لم يفقدوا الحس المشترك ، وإنما فقدوا بعض الآلات التى بها يشرق على المحسوسات (٢)

قلنا إن اليقظة انحلال القوى الحسية وضعفها ، والنوم رباط لها وتجدد لنشاطها ، ومن هنا نشأ تعريف رُسم فيه النوم بأنه مايحدث عن ضعف القوى الحسية ، وإن لم يقع كل نوم عن ضعف يعترى هذه القوى ، فقد يحدث النوم عن إعمال الفكر فى شىء ما ، فيعرض للحس المشترك لمعونة الفكر ، لا لأن ضعفا لحقه ، بل لأن فعله مع سائر القوى وقت النوم ، أقوى منه أثناء اليقظة .

---

(١) انظر المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ ص ٨٥ — ٨٦ والابشيهى فى المستطرف فى كل فن مستظرف ج ٢ ص ١٠٨

(٢) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٧٧ — ٧٨

وقد دلل أصحاب هذا التعريف على انقباض القوى الحسية عند النوم ، بأن المرء إذا عسر عليه المعنى وفكر فيه ، عرض له النوم . وقد يبلغ هذا المعنى ببعض الناس أن يعرض لهم شبيها بالموت ، لضعف قواهم الخارجة ، لمكان تصرف القوى الداخلية الروحانية ، وإدراكها للأمور الجزئية ، واطلاعها على الأمور الروحانية الموجودة فى العالم ، كالملكية والسموات وهؤلاء هم الذين يقال إنه عُرج بأرواحهم (١)

هذا هو النوم كما صوره مفكرو الاسلام ، ولعله يزداد وضوحا إن عرضنا موقفهم من تعليله وتفسير ظاهرته :

تعليل النوم عند المفكرين .

قلنا إن النوم انحباس الروح الحيوانى ، أو انصراف الحس المشترك عن الحواس الظاهرة ، وغوره إلى باطن البدن ، ومرد هذا الانحباس عند المفكرين إلى علل وردت فى أقاويلهم متناثرة مضطربة أشد الاضطراب ، حتى ليكرر المفكر الواحد العلة باعتبارها علتين ، وتختلف عند المفكرين طريقة التعبير عن العلة الواحدة ، حتى ليخالها القارىء عدة علل . فلنحاول أن نجمع شتيتها ، وأن نحسن تصنيفها ، بعد أن نبعد عنها ما يحوطها من كدر وغموض ، أما أظهر العلل التى تؤدى إلى انحباس الروح إلى الباطن فهى :

(١) التماس الأجمام :

فأن الأصل فى الروح أن ينتشر أثناء اليقظة إلى ظاهر البدن ، عن طريق العروق الضوارب ، وقد ينحبس إلى الباطن لطلب الراحة بعد حركة متواصلة (٢) لأن الحواس الظاهرة جسمانية تعرض للوسن ، من جراء ما يصيبها

---

(١) ابن رشد . الحاس والمحسوس ٧٨

(٢) الغزالى مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨

من تعب وكلال ، (١) ومن أجل هذا فطرها الله على طلب الاستجمام ، لتجرد الأدراك على الصورة الكاملة ، بانحباس الروح إلى الباطن ، ويساعد على هذا مايغشى الجسد من برد الليل (٢) وذلك أن الحرارة الغريزية تدخل أثناء النوم إلى قعر البدن ، فيحتاج النائم إلى الدثار والغطاء ، والمعروف أن النوم إذا طال بردت الأطراف ونقص الدم عنها ، ولا حاجة لليقظان إلى كثرة التغطى والتدثر (٣) وهكذا اعتبرت راحة الدماغ والحواس بما يعرض لها من الكلال الحادث عن كثرة الحركة ، من أسباب النوم (٤) وإن كان ابن سينا يرى أن النوم الذى يجىء من فرط تحلل الروح الناشىء عن الحركة ، وهو الذى يقع من جراء التعب والرياضة القوية ، ليس نوما طبيعيا على الأطلاق (٥)

وعلى هذا يكون مردّ النوم عند أكثر مؤرخيه ، إلى الأعياء (٦) والأعياء معناه نقصان الروح بالتحلل ، حتى لا يفى أثره فى الباطن والظاهر جميعا ، فيعجز عن سرعة الحركة (٧) ويزول عنه نقصه بالأجمام ، ولنضرب بالعين مثالا يوضح ذلك : إن إبصار العين يتم بالروح المهذب فى الشريانات التى تقوم فى بطون الدماغ ، وهو يأتى فى القصبة المجوفة التى تنقسم إلى نقبى العين ، وهو من اللطف بحيث يتحلل من الثقب فى طبقات العين ، ويخرج منه الشعاع بالقوة

---

(١) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ١٠٩ وابن خلدون ص ٩٠

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٠

(٣) على بن عباس المجوسى : الصناعة فى الطب ج ١ ص ٢١١

(٤) المصدر نفسه فى نفس الصفحة السالفة وأشار الى هذا ابن سينا فى الجزء الثانى من القانون فى الطب ص ٥٥

(٥) ابن سينا : القانون فى الطب ج ٢ ص ٥٥

(٦) لعل الاصح أن نقول : التعب ، لأن الاعياء إنهاك يمنع النوم ويؤدى إلى الارق كما سنعرف عندما نعرض رأى «كلاباريد» Claparède

(٧) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨

التى تتبعه ، ويستكمل بما يصادفه فى الهواء خارج العين من ضوء الشمس أو نحوها فيقبل من ضوء الأشياء التى حصلت فى الجرم الثقيل من باطن العين ، مايسمى رؤية ونظرا . فاذا تحلل ذلك الروح المهذب الصافى بأجمعه ، تبعه الكدر منه والغلظ ، ولذلك يحس الانسان فى تلك الحال ألما يعرض فى عينه ، وكأنه يحس بما يشبه الرمل ونحوه من أشياء خشنة ، لأن العين فى تلك الحال تشبه حوضا فيه ماء صاف رائق ، خرج الماء من منفذه بالتدريج ، ثم تبعه الكدر آخر الأمر ، فأن سد ذلك المنفذ وصب فى الحوض ماء آخر ، جرى أمره على الاستقامة ، وإلا فسد ونفد ماء الحوض ؛ وكذلك حال العين ، اذا فنى الروح الصافى منها ، وجب أن يسد ثقبها ويطبق جفنها ، أى لزم النوم حتى يتجمع فيها من الروح الصافى ، ما يمكنها من عودة الأبصار فى يسر ، ولايزال هذا حال العين مااستقام مجراها الطبيعى . وإذا صح هذا كان الأجمام ضروريا للعين . وما قيل فى العين ينسحب على سائر الحواس (١) وهكذا يتوقف الأدراك على الأجمام . ولهذا فطر الله الحواس على طلب الاستجمام . لتجرد الأدراك على الصورة الكاملة (٢) بعد أن يسد الروح نقصه ، ويفى أثره فى الظاهر والباطن جميعا .

(٢) الرطوبة والبرودة اللتان تصيبان الدماغ ، من جراء الأبخرة التى تتصاعد اليه ، فتضعف بذلك الآلات الجسمانية التى تصدر عنه ، لأن الأبخرة السالفة مغلظة للروح النفسانى ، ومانعة من نفوذه فى الأعصاب (٣) . ومن شأن البرودة أن تسد مجارى الحار الغريزى فى العروق والأعصاب .

---

(١) ابن مسكوية : الفوز الاصغر ص ١٠٩ — ١١٠

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٠

(٣) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ٢ ص ١٤٣٠ ، وعلى المجوسى : الصناعة فى الطب ج ١ ص ٢١١

فتمنع الروح وتحجبه عن الوصول إلى الآلة الخاصة ، كما يحجب ضوء الشمس حجاب ما ، وبذلك لا يصل هذا الروح إلى خارج ، متى كثرت الرطوبة فيه . ويشهد بفاعلية الرطوبة والبرودة للنوم ، ما يعرض من كثرة النوم عند تناول الأشياء الباردة والرطبة ، ومرجع هذا إلى طبخ الغذاء ، ونضجه فى الدماغ والقلب ، وإلى الكلال الذى يلحق آلات الحواس والحار الغريزى . وإن كان ابن سينا يعتبر النوم غير طبيعى على الأطلاق ، إن كان مرده إلى مبردات مضادة لجوهر الروح الحيوانى ، أو مرطبات مكدرة تسد مسالكه (١)

أما كيف يعرض هذا للحار الغريزى عن السببين السابقين . فذلك أن الغذاء إذا استحال دما ، صار صفوه إلى القلب ، ثم توزع على سائر الأعضاء فى البدن ، كلٌ بحسب ما يلائمه ويشاكل طبيعته ، صار إلى الدماغ أيضا ما يشاكله ، وهو الجزء البارد الرطب ، ومن شأن الأعضاء إذا ورد عليها الغذاء أن تبرد وترطب أكثر مما كانت ، ثم إن الطبخ تحدث عنه كذلك أبخرة غليظة ، فيكدر لها الروح الغريزى ، ويتحرك منقبضا إلى مبدئه ـ وهو القلب فيحدث النوم لا محالة ، ولكن القلب أيضا قد تبرد حرارته الغريزية وقت الغذاء ، فيضعف فعلها لذلك فى الدماغ وفى غيره من الأعضاء ، وعلى هذا فالنوم يعرض بالضرورة لمكان ضعف الدماغ والقلب معا ، وكلاهما سبب فى ضعف صاحبه ، وإن كان الدماغ سببا فى ذلك لموضع مزاجه ، أما سبب ضعفهما معا فهو نضج الغذاء وطبخه ، ولذلك ينام الحيوان ضرورةً مادام الغذاء فى طريق النضج ، وينتبه إذا فرغ من الطبخ ، إذ تصفو عندئذ الحرارة الغريزية من تلك الرطوبة والأبخرة ، وتتحرك الشرايين والأعصاب إلى خارج النفس ، فيحدث السهر بالضرورة (٢) . ومن هنا اعتبر البعض هضم الغذاء من أسباب النوم

---

(١) ابن سينا : القانون فى الطب ج ٢ ص ٥٥

(٢) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٧٨ — ٨٠

لأنه يتطلب دخول الحرارة الغريزية إلى مقر البدن لتعمل على إنضاجه ، وهذا نفسه يؤدى إلى النوم (١) وأشار الغزالى إلى نضج الغذاء باعتباره علة لانحباس الروح إلى الباطن (النوم) (٢) وأشار الكندى إلى تفرغ الجهاز الهضمى لوظيفته فى إنتاج الغذاء باعتباره علة غائية للنوم ، وإلى رطوبة المخ وليونته من جراء الأبخرة ، باعتبارها علة فاعلية للنوم .

حسبنا هذا عن موقف مفكرى الأسلام إزاء النوم وتعليله ، ولنحاول أن أن نتتبعها إلى منابعها التى صدرت عنها :

منابع أفكارهم فى النوم وتعليله :

سنتحرى أصولها خارج نطاق الأسلام ، إذ ليس من غرض الدين أن يعرض للبحث فى ماهية النوم وتفسيره ، تفسيراً عقليا أو فسيولوجيا ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن القرآن قد تضمن نواة الفكرة التى تردّ النوم إلى الراحة ، قال تعالى ٧٨ : ٩ - ١١ « وجعلنا نومكم سباتا - أى راحة لأبدانكم - وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا » على أن هذا ومثله - إن كان له مثيل فى موضوعنا هذا - لم يقصد به تعليل النوم أو شرح ماهيته . فلنحاول إذن تتبع أفكار المسلمين فى مظانها - وأرجحها تراث اليونان ، وأرسطو على التخصيص ، وإن كان من المؤرخين من أشار إلى كتب لغيره فى النوم واليقظة قد ترجمت إلى العربية ، فابن النديم مثلا يشير إلى كتاب النوم واليقظة لفورفريوس (٣) ، ولكننا لم نعثر على هذه الكتب .

النوم فى تراث أرسطو :

عرض أرسطو للنوم واليقظة والرؤيا فى ثلاث رسائل قصار ، وقد عاش

---

(١) ابن سينا : القانون فى الطب ج ٢ ص ٥٥ والمجوسى فى الصناعة فى الطب ج ١ ص ٢١١

(٢) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨

(٣) ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٢٥٥

الكثير من آرائه التى ضمنها هذه الرسائل ، وتسلل إلى مفكرى الأسلام ، ولعلها انتقلت إلى المسلمين عن طريق الكندى وابن رشد معا ، ذلك أن الكندى قد وضع رسالة لا تزال حتى اليوم بين مخطوطات استامبول ، وقد عرض فيها لتعليل الرؤيا (١)

ومقارنة هذه الرسالة ببحث أرسطو السالف الذكر ، تفضى إلى توكيد العلاقة بين أرسطو والتفكير الأسلامى .

وهذا بالأضافة إلى أن ابن رشد قد عرض لتلخيص أرسطو فى موضوع النوم والرؤيا فى كتابه « الحاس والمحسوس » (٢). وتلخيصه للجانب الفسيولوجى دقيق شامل ، ولعله لم يخرج عن أرسطو إلا حينما كان ينزع إلى تأييد الرؤيا الصادقة ، فلنعرض مايقابل آراء المسلمين فى بحث أرسطو ، لنعرف مدى اقتباسهم عنه :

فأما تعريف النوم بأنه « حسّ ما بالقوة . . . إلى آخر ماورد فى التعريف الأول ، فأنه منقول عن أرسطو الذى اعتبر النوم واليقظة ضدين ، فالنوم إن وقع تعين غياب اليقظة ، والعكس فى هذا صحيح ، ومن يزاول الأدراك الحسى فهو يقظان . ومن سلب عنه هذا الأدراك فهو نائم ، لأن النوم غيبه عن المحسوسات الظاهرة ، ومن هذا نرى أن الكائنات الحية التى تتصف بالنمو والفناء وحده لا تنام ، فالنباتات لا يعتريها النوم لأنها لا تقوى على الأدراك الحسى ، والنوم واليقظة ينسبان إلى القوة الحاسة المدركة ولا ينسبان إلى القوة الغاذية ، أما الحيوانات فأنها جميعا سواء فى أنها تنام . . (٣) .

والنوم يغشى الحواس جميعها ، ولو أنه شمل بعضها لأمكن للحيوان أن

---

(٢) انظر فصل المراجع

(٣) انظر فصل المراجع كذلك ، وتحتفظ مكتبة جامع ينى باستنبول بنسخة منه

3) Aristotle : De Sommo et Vigillia 454 A.B

يحس بعضها الآخر وهو نائم، وهذا مستحيل . والحواس تشترك فى قوة إذا تعطلت بطل الحس كله ، وتلك هى الحاسة المشتركة ، فالعين حاسة البصر والأذن حاسة السمع ، وهكذا فى سائر الحواس منفردة ، بهذا تتميز الحواس ولكنها جميعا تشترك فى قوة . يدرك المرء عن طريقها أنه يرى ويسمع ، فالأنسان على وجه التحقيق لا يدرك بحاسة البصر أنه يبصر ، وليس بمجرد الذوق أو البصر أو بهما معا يميز الأشياء الحلوة من البيضاء ، ولكنه يدرك هذا بملكة تتصل بأعضاء الحس جميعا . ومن البين أن النوم أو اليقظة تغيرٌ يعرض لهذه الحاسة المشتركة ، التى تهيمن على الإدراك الحسى كله (١) . ومن هنا قيل إن النوم احباس هذا الحس المشترك عن الحواس الظاهرة ، لأن النائم يتمتع بقوى الحس كلها، ومع ذلك لا يحس ، لأن النوم حبسٌ أو رباط لها ، واليقظة إطلاق لهذه القوى (٢) . وأن لم يمنع هذا من القول بأن الحواس الباطنة تقوم بوظيفتها أبان النوم .

على أن ربط قوى الحس (النوم) لا ينبغى أن يكون عن آفة طارئة ، فالأغماء وضغط الدم فى أوعية العنق ونحوه ، يعوق هذا الأدراك ، ومع هذا فأن مثل هذا لا يسمى نوما (٣) . وعلى هذا يكون النوم غيبة عن المحسوسات من غير آفة طارئة ، ومردّ هذه الغيبة إلى التعب الذى يعترى الحواس إبان اليقظة ، فأن من المستحيل أن يواصل الحيوان يقظته أو نومه طوال حياته ، فأن الأعضاء التى تؤدى وظيفة طبيعية ، تفقد قوتها عند ما تعمل زمنا يتجاوز طاقتها ، فالعين تفقد القدرة على الأبصار ، متى دام إبصارها مدة ما ، وكذلك الحال فى اليد وسائر أدوات الحس وجوارحه . فإذا كان الأدراك الحسى وظيفة عضو ما ، فأن هذا العضو يفقد قوته ، ويكف عن العمل متى استمر

---

1) Ibid, 455 A.

2) Ibid. 454 B.

3) Ibid, 455 B. & 456 B.

الأحساس حتى تجاوز حده الأقصى ، ومن أجل هذا أطلق الناس الراحة على النوم على سبيل الاستعارة ، فهو راحة من عناء الحركة التى تنشأ عن إدراك حسى ، والنوم تعطيل أو حبس للأدراك الحسى كما قلنا ، وهو فقدان للقوة ينشأ عن إفراط فى اليقظة ، وعلى هذا فكل كائن له يقظة ، يعتريه النوم لامحالة ، لأنه لايستطيع أن يستخدم قواه بغير انقطاع ، كما أنه ليس ثمة حيوان يستطيع أن ينام سرمديا ، والحيوانات كلها سواء فى أنها تنام (١) ، إبقاءً على حياتها ، وهذا هو الغرض الأسمى ، فأن مزاولة الأدراك الحسى أسمى غرض تسعى إليه الكائنات التى تدرك وتفكر (٢) وأرسطو يعتبر الحواس الباطنة : الحس المشترك والمخيلة والذاكرة ، فأما الحس المشترك فله ثلاث وظائف : إدراك المحسوسات المشتركة (بما فيها الزمان) والمحسوسات بالعرض ، فأن الأدراك يستعين بالتخيل والتذكر ، فلا بد من قوة واحدة يلتقى عندها الأحساس الظاهر والتجربة السابقة ، وتكون الصلة بينهما ، والوظيفة الثانية إدراك الأدراك أى الشعور ، فبالحس المشترك يدرك الأنسان نفسه رائياً أو سامعاً ، . . . والوظيفة الثالثة التمييز بين المحسوسات فى كل حس باعتباره جنسا ، . . وبين موضوعات الحواس المختلفة . . فأن هذا التمييز لا يمكن أن يصدر عن الحواس أنفسها ، إذ أن كلا منهامعين إلى موضوع ، فيجب أن يصدر عن قوة واحدة تجتمع عندها الأحساسات ، فتضاهى بينها ـ أما مركز الحس المشترك فهو ـ عند أرسطو ـ القلب . وحجته فى ذلك أن شرط الأحساس الحرارة ، والقلب هو الذى يوزع الحرارة على الدم فى أطراف الجسم ، (٣)

تعليل النوم عند أرسطو .

أما رأيهم فى إرجاع النوم إلى الرطوبة والبرودة اللتين تصيبان الدماغ ، فلعله

---

1) Ibid, 454 A. B.   2) Ibid, 455 B.

(٣) ـ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٠٩ طبعة أولى

مأخوذ عن أفلاطون وجالينوس (١) ، فأن أرسطو قد اعتبر القلب مركز الحس المشترك على ما عرفنا ، ورأى أن هذا القلب هو منشأ الأوردة التي تحمل الدم في جسم الحيوان ، وأن الغذاء إذا دخل إلى الباطن تبخر ، وتسلل بخاره إلى الأوردة وتحول فيها إلى دم ، ومن ثم يجد طريقه إلى المنبع ، ونعني به القلب ، والنوم ينشأ عن هذه الأبخرة التي تندفع إلى الأمام ، ثم تعود جيئة وذهابا ، كسباق المد في مضيق ضيق . والدافيء في كل حيوان ينزع إلى الحركة بالضرورة ، فإذا وصل إلى نقطة في أعلاه (الدماغ) برد فهبط إلى أسفل مرة ثانية ، وهذا يفسر لنا وقوع الخمول والنوم عقب الأكل ، فأن المادة السائلة المتجسدة المحمولة إلى أعلى تكون كثيرة ، فإذا وقفت ، ثقل الأنسان ومال إلى النوم . وكذلك يقال في التعب الذي يعمل كمذيب ، والمذاب إذا لم يكن باردا ، فأنه يعمل عمل الطعام قبل هضمه ، أي يسبب النوم . . . . . ويمضى أرسطو في شرحه حتى ينتهي إلى تفسير اليقظة بأنها تقع بعد الفراغ من عملية الهضم . . . . . الخ (٢)

ويلاحظ من كل ما أسلفناه ، أن ليس الكندي وابن رشد وحدهما هما اللذان ينقلان عن أرسطو ، فالغزالي يقرر ـ نقلا عن الفلاسفة ـ بأن القوى الحيوانية النفسانية (الحس المشترك) إن وقعت سدة في مجاريها من الأعصاب التي تؤدي إلى الحس ، بطل الحس ووقع الصرع والسكتة ، وإذا شدت يد إنسان شداً محكما بطل في الحال حسه ، ولبث على هذا حتى يحل فيعود الحس بعد زمان (٣) ولعل هذا صدى ما يقوله أرسطو من أن الحس المشترك هو الذي يتحكم في الأدراك الحسي ، وأن ضغط أوعية الدم في العنق أو نحوه ،

---

1) Dr Youssef Mourad, La Physiognomonie Arabe p. 143.

2) Aristotle Ibid. 456 B — 458 A.

(٣) الغزالي ، مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨

يؤدى إلى إبطال الأدراك الحسى وربطه – كما أشرنا الآن . وقول الغزالى بوقوع النوم بعد الامتلاء ، صدى لرأى أرسطو الذى أسلفناه منذ حين ، وقد أشار اليه فى غير موضع (١) وما يقال فى الغزالى ينسحب على ابن خلدون وابن مسكويه والتهانوى ومن إليه من مفكرى الأسلام . . !

وهكذا كان مفكرو الأسلام فى موقفهم من النوم وتعليله أبواقا لأرسطو ، فكأن القرون التى فصلت بينه وبينهم ، لم تؤد إلى أى تقدم فى التفكير الفسيولوجى ، فهل مصدر هذا دقة آرائه وبلوغه مكمن الحقيقة فى كل ما قال؟ أو أن مرجع ذلك إلى قصور فى التفكير الأسلامى . ؟ هذا ما يكشف عنه موقف المحدثين من علماء وظائف الأعضاء من آراء أرسطو من ناحية ، ومن ظاهرة النوم وتعليلها من ناحية أخرى ، فلنعرض موقفهم موجزين :

موقف المحدثين من علماء النفس :

ليس جمهرة مفكرى الأسلام والقدامى وحدهم ، هم الذين عالجوا النوم عند بحث الرؤيا فى دراساتهم ، فقد كان الباحثون إلى عهد قريب ينحون هذا النحو بل كانوا يعالجون مع هذا الظواهر التى تشبه الأحلام ، كعلم أمراض النفس والأوهام المجسمة والرؤى ونحوها ، ثم ازداد هذا النزوع إلى التزام هذه الخطة ، عند مؤلفين أحدث من هؤلاء عهدا ، واعتبروا هذه الظواهر كلها فى نطاق الأحلام ، وكان مرجع هذا إلى اقتناعهم بأن البحث المفصل الشامل ، يكشف عن مجاهل الغامض فى هذه الآفاق – كما أشرنا من قبل – ولعل مردّ هذا إلى نشاط الدراسات الفسيولوجية فى العصر الحديث ، إلا أن النوم لم يصادف مثل هذا الاهتمام – فيما يلوح – عند المعاصرين الذين عنوا بدراسة الأحلام . بل إن « فرويد » ، وهو الطبيب الذى قيل عنه إنه رفع دراسة الأحلام

---

1) Ibid. 456 B, 457 B, & 468 A.

من مجال الكهانة والسحر ، إلى ميدان البحث العلمى الدقيق ، قد مر بالنوم والسهاد دون أن يطيل النظر فى أمرهما (١) . وأعلن بأنه تحرى إهمال دراسة النوم فى مصادره القديمة ، عند ما كان يستعرض ما سبقه من آراء الباحثين فى موضوع الأحلام (٢) . ومن عنى بالنوم من أهل البحث السيكولوجى الدقيق ، لم يساير التصور الفسيولوجى الدقيق فيما يلوح ، فأن « تريدون » Tridon مثلا ـ وهو طبيب سيكولوجى ـ قد اعتبر النوم أصح مظاهر الحياة ، وليس مظهرا من مظاهر الموت كما يقول الرأى الشائع ، وتحدث عنه حديثا فسيولوجيا عليه مسحة أدبية ، أخرجت آراءه من نطاق البحث الفسيولوجى الدقيق (٣)

وإذن فلنغفل الحديث عن آراء المحدثين من علماء النفس فى موضوع النوم ولنلجأ الى المحدثين من علماء وظائف الأعضاء ، فأن النوم كظاهرة فسيولوجية لا يدخل فى نطاق البحث السيكولوجى .

موقف المحدثين من علماء وظائف الأعضاء :

وينبغى أن ننبه القارىء ونحن فى مستهل حديثنا ، إلى أن النوم عند المحدثين ، مشكلة لا يسهل عرض موقفهم منها فى صفحات ، وأن ليس غرضنا قط ، أن نعرض هذه المشكلة كما تبدو فى الدراسات الفسيولوجية الحديثة ، وحسبى من هذه الدراسات ما اتصل بالتفكير الأسلامى بصلة تشابه (أو تضاد) أو ما يلقى على موضوعنا ضوءا ، أما للتدليل على أن بعض ما كان عند المسلمين ـ على قصور الدراسات الفسيولوجية فى عهدهم ـ قد عاش ووجد له مكانا فى التفكير العلمى الحديث . أما علاج النوم عند المحدثين ـ من حيث هو كذلك ـ فلا يستلزمه بحثنا الراهن وقد حفلت كتب المحدثين بوصف النوم ، وحسبنا أن نعرف مما قالوه ، أنه

---

1) A. Tridon: Sleep & Dreams p. 12

2) Freud, ibid, p. 4.

(٣) قارن A. Tridon فى الفصل الاول من كتابه السالف ـ فى تحديده لماهية النوم والموت

ضعف تدريجي لاستجابة العقل لمؤثرات البيئة، يعقبه فقدان الوعي بالمؤثرات التي تجذب في العادة اهتمامنا، سواء أكانت من الوسط المحيط بنا، أم نشأت عن إحساسات جسدية كالألم ومرض القلب ونحوه، وفيه انحلال للشخصية أو زوال مؤقت للذات، وتفرق للعوامل التي تكون باجتماعها شخصية الانسان يصحبها كف enhibition مؤقت لحاسة النقد والتمييز، كما صحب فتور الوعي نشوة يعز وصفها (١). وما ظننا في حاجة إلى تتبع الآثار التي تترتب على النوم، فيما يتصل بانعدام الحركات الارادية وارتخاء العضلات وبطء التنفس ودقات القلب وضغط الدم ودرجة الحرارة ونحوها، فقد حفلت بهذا كتب الفسيولوجيا (٢).

ما يقابل أفكار المسلمين عند المحدثين :

وأظهر ما تردد صداه عند المحدثين، مما قاله مفكرو الاسلام في النوم وتعليله، أنه غيبة عن المحسوسات الظاهرة، إذ أن بعض المحدثين يقول إن انقطاع المؤثرات الخارجية، وعدم اتصالها بالحواس الظاهرة، يؤدي إلى النوم، فانقطاع النور عن حجرة النوم، وإغماض العينين وسكون المكان، وارتخاء العضلات وتجانس درجة الحرارة في الفراش والجسم معا، ونحو هذا من مظاهر انقطاع المؤثرات التي تقع على الحس الظاهر والباطن، هو الذي يؤدي إلى تعطل المخ عن أداء وظيفته فيقع النوم لا محالة. (٣) وهكذا انتهى البعض إلى القول بأن النوم انسحاب الرقابة على البيئة التي تحيط بنا، والشعور بالطمأنينة واتقاء كل خطر (٤)

---

1) P. Stewart : The Diagnosis of Nervous Diseases, p. 731-732.

(٢) قارن « سامسون رايت » ١٤٩ وما بعدها وفي غيره من مصادر أشرنا اليها في هذا الفصل

3) S. Wright : Applied Physiology (Sixth Edit.) p. 150.

4) A. Tridon : Sleep & Dreams P. 17 ff.

ويرى «كلاباريد» Claparède أن النوم عدم اكتراث disinteressement فالتواق إلى النوم، لا يسعه أن ينام، وفى ذهنه خاطر يشغله، والذى يمل من موضوع يزاوله، ويسحب منه اهتمامه، يستسلم إلى النوم سريعا.

نظرية التعب وغيبة المحسوسات الظاهرة

وقد كان مفكرو الأسلام يردون غيبة المحسوسات الظاهرة، إلى تعب يعترى الحواس، من جراء حركتها إبان اليقظة، وقد ذهب بعض المحدثين إلى مثل هذا، فقرروا بأننا نتعب، وأن المتاعب التى يحتملها المرء طوال يومه، تؤدى إلى إفراز مادة ينشأ النوم عن تراكمها، وعند النوم يأخذ الجسم فى التخلص منها، بطريق الأفراز أو بتحويلها إلى مواد أخرى، ومتى تم هـذا استيقظ النائم. ولكن «رسل برين» R. Brain. يقول إن العلماء يرون بأن هذه المادة التى افترضها البعض، لم يثبت وجودها بعد، وإن كان من المسلم وجودها فى الدم، والسائل الذى يوجد فى النخاع الشوكى والمخ عند الحيوانات المسهدة، وأن التجربة قد أثبتت بأن حقن الحيوانات بها، يحدث نعاسا فيما يقول «بيرون» Piron، ولجندر» Legendre.، وذلك بالأضافة إلى أن التعب جسمانى، قد يؤدى على العكس إلى الأرق، كما يقول كلاباريد Claparède الذى رأى أن النوم لا يكون نتيجة لاحتمال التعب، بل لمنع وقوعه، لأنه يسلبنا الشعور به، وقد يغشى النوم من كان موفور الحظ من الراحة، وقد يعز على من تنهكه المتاعب، فليس ثمة تلازم بين النوم والتعب على نحو ما يدعى أصحاب هذه النظرية. (١)

أما لماذا يؤدى الأفراط فى الأنهاك إلى الأرق، فمرد ذلك إلى أنه ينبه الغدة فوق الكلوية، فتنشط وتفرز فى الدم ما يمد الجسم بالنشاط، فيمتنع النوم حتى يستنفد الجسم هذه المادة، ويستهلك النشاط الذى ينجم عنها، لأن

1- P. Stewart : The Diagnosis of Nervous Diseases 8 th, ed. p.753

النوم ممتنع مع توافر هذا النشاط . (١)

والتفرقة بين التعب العقلى والجسمانى فى هذا الصدد ، لا تُيسر حل هذا الأشكال ، بل لعلها تزيده تعقيدا ، فأن راحة العقل أثناء النوم ، لا تكون بتقليل النشاط الذى يشغلنا ونحن أيقاظ ، فأن العقل إبان النوم يزداد نشاطا فينطلق - فى أكثر الأحايين - بلا قيد ولا شرط ، ولا توجيه ولا إيحاء خارج عن ذاته - (٢) وهذا من تأثير اللاشعور - وهو بالأضافه إلى أن المتاعب متى اقترنت بالنجاح ، وبعد الصيت واقتناص المجد ، وما إلى ذلك من بواعث الأعجاب بالنفس ، انتهت هذه المتاعب بنوع من النشاط واليقظة ، يكاد أن يمتنع معه النوم ، فقد كان « أديسون » يواصل عمله أكثر ليله ونهاره ، ولا ينام أكثر من أربع ساعات ، ولو كان يعمل تحت إشراف غيره لاحتاج إلى ضعف هذه الراحة فى نومه (٣) . وكذلك الحال مع نابليون ، يقل نومه - فيما يقول كتاب سيرته - إبان ظفره وانتصاره ، ويكثر أثناء اندحاره (٤) .

على أن المحدثين من العلماء لم يقنعوا بهذه النظرية التى هوجمت كثيرا ، فأضافوا لتعليل النوم نظريات ، بلغت من الكثرة حدا جعل أحد مؤرخيها يقول عنها إنها خيالية ، تشبه فى كثرتها الأرانب فى قبعة الساحر ، (٥) وحسبنا

1- A. Tridon : Sleep & Dreams p. 13.

2- A. Tridon : p. cit. op. 16-17.

3- idid. p 15.

(٤) المصدر نفسه ص ٢١ وما بعدها (مثل أخرى تاريخية) ويرد هذا الى النوم الذى يكون نتيجة الهرب من الحقيقة المؤلمة ، كان نابليون قليل النوم حتى انهزم فى موقعة Aspern : بعد ١٧ موقعة انتصر فيها ، فنام ٣٦ ساعة متوالية ، وكان فى منفاه نؤوما مكثارا . . . الخ وأمثلة أخرى الى ص ٢٧

5- D. A. Liard, C. G. Müller : Sleep & why we need it, p. 3.

أن نعرض فى إيجاز بعضها لنتبين اتجاه المحدثين ، عسى أن يساعدنا هـذا على تحديد مكان التفكير الأسلامى فى هذا الموضوع :

نظرية بافلوف فى الأبطـال الشرطى :

تعزى النظرية التالية إلى بافلوف ، وإن لم يكن أول من نادى بهـا ، فقد سبقه إلى اقتراحها تعليلا للنوم العلامة الفرنسى « براون سيكار » Brown-Sequard وتبعه غيره فى ذلك ، إلا أن اقتراحهم كان مجرد افتراض ، لم يتحول إلى نظرية إلا على يد بافلوف ، صاحب التجارب المعروفة فى هذا الصدد ، والواقع أنه لم يتحرّ الاهتداء إلى هذه النظرية أول الأمر ، وإنما سبق اليها لتفسير ظاهرة النوم الذى أدرك كلابا كان يجرى عليها تجاربه (١) . وخلاصة النظرية أن المؤثرات الشرطية (٢) متى تكررت دون أن تتحقق نتائجها ، فقدت تأثيرها ، فإذا أحدثت صوتا على مسمع من كلب ، اتجه الكلب إلى الصوت بأذنيـه ، وحاول أن يتبينه عسى أن يحمل الصوت إليه شيئا يعنيه - كتقديم طعام مثلا ، وهذا هو انعكاس التوجيه عند « بافلوف » ، فأن تكرر الصوت مرات دون أن يعقبه شىء ، أو يصحبه مؤثر آخر يثير الانتباه ، ضعف اهتمام الكلب به ، حتى ينتهى به الأمر إلى سحب انتباهه منه ، فيقع الصوت ، والجهاز السمعى سليم يؤدى وظيفته فى الاستماع إليه ، ولكن تكرار الأنصات إليه فى فترات متعاقبة على غير جدوى ، يبطل حاسة السمع إبطالا إيجابيا ، فان كثرة التكرار تجعل الأبطال يتجاوز حاسة السمع إلى اللحاء المخى بأسره ، وعندئذ يحدث النوم ، والفكرة التى أقيمت عليها هذه النظرية عريقة فى القدم ، فقد عرف الناس من قديم الزمان النوم الذى ينشأ عن تكرار المؤثرات على الحواس ، وعلى هذا اعتمدت الأمهات

1- W. Russel Brain et al. : Recent Advances in Neurology (3rd. ed.) p. 271. (وله طبعة حديثة عام ٩٤٥)

(٢) انظر شرح هذه المؤثرات وخواصها بالتفصيل فى «سامسوزرايت» ص ١٣٧ وما بعدها

فى إنامة أطفالهن بالأغانى المتكررة التى تبعث على الملل ، ولا يعقبها أو يصحبها ما يثير انتباه الطفل ، وكذلك يقال فى النعاس الذى يغشى من يستمعون إلى خطيب أو مدرس يجرى فى حديثه على نسق واحد ، عرف هذا منذ القدم ، ولكن بافلوف قد أفرغه فى قالبه العلمى .

وأول ما يلاحظ على هذه النظرية ، المبالغة فى التفرقة بين الوسائل التجريبية التى استخدمها بافلوف فى تجاربه لأنامة الكلاب (أى بين النوم الصناعى) ، وبين حالات النوم الطبيعى المألوف عند الناس ، بل إنا لنلاحظ أن بعض الناس يرى فى الأنصات إلى دقات ساعته تحت وسادته ، مايؤدى إلى استغراقه فى النوم (١) .

بل لقد قيل فى تفسير النوم رأى مضاد لهذه النظرية ، فاعتبر النوم انعكاسا شرطيا إيجابياً ، مؤثراته هى وسائل التهيؤ للنوم ، من ظلام يسود الغرفة ، ومألوف زمان ومكان ولباس وفراش وغطاء ونحو ذلك ، فهذه الظاهرة تتكرر ويعقبها النوم كل مساء ، فتصبح مؤثرا إيجابياً لا إبطالا شرطياً كما يرى بافلوف .

ولكن هذا الرأى مدفوع بأن الطفل ينام قبل أن تتكون عنده هذه الانعكاسات الشرطية ، التى تعتبر مكتسبة وليست فطرية (٢) ثم كيف نام الأنسان أول مرة ، إن كان تكرر وسائل التهيؤ للنوم هو علة نومه .؟

بل إن هذا الرأى نفسه قد قيل ما يضاده ، وأن لم يتفق مع نظرية بافلوف ، فذهب البعض إلى أن النوم انقطاع المؤثرات الخارجية وعدم وصولها إلى الحواس ، على نحو ما أبنا من قبل . ولكن أليس الأصح أن يقال إن هذا الانقطاع يقع نتيجة للنوم وليس علة له .؟

---

1) W. R. Brain et al : Recent Advances in Neurology, 3rd. ed. P. 272.

(٢) قارن المصدر السالف فى الحديث عن الانعكاسات ص ١٣٧

نظرية أنيميا المخ

المعروف فسيولوجيا أن كمية الدم في المخ تنقص في حالات النزيف الشديد أو بطء حركة القلب وتوقفها مؤقتا (١) أو الانخفاض في ضغط الدم الذي يحدث في الأصابات العصبية ، أو عند بعض الناس متى نهضوا من وضع أفقي إلى وضع رأسي ، كما تقع الغيبوبة عند الطاعنين في السن إذا كانوا مصابين بانسداد في الشرايين المخية ، وقد أدى هذا كله عند البعض (٢) إلى القول بأن السبب في وقوع النوم ، هو نقص في كمية الدم في المخ (٣) ، وإن قيل إن من المحتمل أن يكون مرد هذا إلى أن المخ لا يحتاج في حال النوم ، إلى كمية كبيرة من الدم شأنه في هذا شأن سائر الأعضاء التي لا تحتاج في حال الراحة - في اليقظة والمنام - إلى كمية كبيرة من الدم .

وقد لاحظ غير القائلين بهذه النظرية ، أن حالات النوم الطبيعي ، لا تبرر قيام هذه العلة ، وقد أنكر بعضهم صحة هذه النظرية ، واعتبروا الأنيميا المخية نتيجة للنوم وليست علة لوقوعه (٤) وقالوا إنها لا تستمر طوال المدة التي يستغرقها النوم ، فأن هبوط ضغط الدم يبدأ قبل النوم ، ويتدرج حتى يصل إلى أقله بعد بداية النوم بساعة ، ثم يعود فيتدرج في الزيادة حتى يعود إلى حالته الطبيعية المألوفة إبان اليقظة ، ويذهب البعض إلى نقيض هذه النظرية ،

---

(١) توقف القلب خمس ثوان يؤدي إلى فقدان مؤقت في الوعي ، فأن امتد التوقف إلى خمس عشرة ثانية أصيب المرء بتشنجات ، فان امتد دقيقة أو دقيقتين وقع الموت وإذا أبطأت دقات القلب إلى ما بين عشرين وثماني دقات فقد المرء وعيه (المصدر رقم ٣)

(٢) قال بهذا Blubenbech منذ عام ١٧٩٥ م وقال بعكس هذا Browy وغيره

3) Stewart : op. cit. p. 734 & 735.

4) A. Tridon : op. cit: p. 3 & 11.

فأن مخ النائم يحوى من الدم كمية تكبر ما يحويه مخ اليقظ (١) ، وقد أيدت التجربة صدق هذا ، وذلك بالنظر من فتحات ثُقِبت من أجل ذلك فى التربانة فى جماجم الحيوانات ، ومن فتحات أخرى ثقبت فى جماجم الانسان لأغراض تتصل بالعلاج ، كما ثبتت بمشاهدة الأوعية فى شبكة العين التى تكون جزءا من المخ .

نظرية التغيرات الكيميائية الطبيعية

تمكن العلماء التجريبيون من إحداث نوم ، مشابه كل الشبه للنوم الطبيعى ، باستخدام نوع من العقاقير ، فأدى هذا ببعض العلماء إلى الظن بأن النوم الطبيعى ، يقوم على أساس كيميائى طبيعى معا . أى أن المخ يكون أثناء النوم فى حالة يمكن إحداثها بالعوامل الطبيعية الكيميائية . وفى كتب الفسيولوجيا التى تعرضت لدراسة النوم ، فيض من التجارب فى هذا الصدد (٢) . ولكنا أهملناها لأن الأصح أن يقال إنها تعلل النوم الصنعى(٣) لا الطبيعى .

وقد أشرنا من قبل إلى كثرة النظريات التى قيلت فى تفسير النوم ، وحسبنا أن نشير الآن موجزين ، إلى النظرية التى رددها بعض أتباع التحليل النفسى ، حين قالوا بأننا ننام ، رغبة منا فى استمرار الاعتقاد بأنا لانزال أطفالا ، والنظرية البيولوجية التى تعتبر النوم ، خاصة من خواص الحياة ، تشمل الحيوان كله ـ حتى ذا الخلية الواحدة منه ، وتكتفى فى تعليلها للنوم بذلك . ونظرية الشعوب البدائية التى ترى أن النوم وجد لتتمكن النفس من مغادرة الجسم إلى رحاب النعيم ، وأن اليقظه قبل عودتها تؤدى إلى الجنون (٤) إلى آخر هذه النظريات التى لا يسلم بها الكثيرون .

---

1) S. Wright : p. 149.
2) Wright : P. 151

(٣) Artificial كما يترجمها مجمع فؤاد للغة العربية

(٤) النظريات الثلاث فى كتاب : Müller. , Liard ص ٤ — ٥

ملاحظات على بعض ماسف من آراء :

لقصور الدراسة فى النوم وتعليله عند مفكرى الأسلام ومن سبقهم ، ما يبررها من تقدم الزمان ونقص الدراسات الفسيولوجية فى العالم كله ، وليس عند المسلمين وحدهم ، على أن ما أضافه المحدثون فى هذا الموضوع قد لا يتناسب مع وفرة النشاط الملحوظ فى الدراسات الفسيولوجية فى هذه الأيام ، وليس أدل على هذا من أن المحدثين من العلماء ليسوا على اتفاق بصدد الآفاق الغامضة فى هذه الظاهرة ، وقد عرفنا اختلاف وجهات النظر عندهم فى تعليل النوم .

وحسبنا الآن بضع ملاحظات خاطفة على اتجاهات التفكير الأسلامى :

(١) وأول ما نلاحظه فى ذلك رأيهم فى الأبخرة الصاعدة والنازلة وأثرها فى النوم ، وهو ضرب من التصورات لا مقابل له عند المحدثين فيما نعلم ، إلا إذا قلنا إن الأرواح الحيوانية عندهم ، تقابل مايسميه المحدثون بالسيال العصبى الذى يفسرون به انتقال التنبيه الحسى والحركى معا ، مع الفارق فى تفسير كل منهما ، وهو فارق يبرره اطراد تقدم الدراسات الفسيولوجية بتقدم الزمان .

(٢) واتفاقهم على تعطل الحس إبان النوم ، أو قصرهم التعطل على الحواس الظاهرة وحدها ، يمنع من التسليم بالمؤثرات الحسية التى تؤدى أو تمهد لنشأة الأحلام ، وسنعرف فى الفصل التالى أنهم سلموا بها ، وإن حقروا من شأن الأحلام التى تكون استجابة لها ، ولكنهم هنا لم يفطنوا إليها ، لأنهم كانوا فيما يلوح ، منساقين عن غير وعى إلى ترداد ما قاله أرسطو فى هذا الصدد ولعل الغريب أن بعض المحدثين من علماء الفسيولوجيا ، قد ردد هذا الرأى ، فقرر بأن النوم يفقدنا الأحساس بأمراض القلب والآلام ونحوها ، وهذا لا يتمشى مع القول بوجود أحلام مردها إلى هذه الاضطرابات . فإن

الاضطرابات قد توجد ـ غير مشعور بها ـ وتكون مثارا للأحلام (١) وسنعود إلى شرح هذا بعد

(٣) رجحنا أخذ المسلمين عن أرسطو ، وهذا لا يمنع من اتفاق بعض آرائهم مع ما قاله غير أرسطو من القدامى ، وقد أشرنا إلى أن ابن خلدون يذكر فى نص له جالينوس ، ولاحظنا أن رأيهم فى التضاد بين النوم واليقظة موجود فى محاورة فيدون لأفلاطون ، وأن رأيهم فى استمرار الحواس الباطنة فى أداء وظيفتها أثناء النوم ، شبيه بعض الشبه برأى الرواقية فى اعتبار النوم ، تراخيا فى النفس يزيد من إحساسها ، وهو رأى تردد صداه عند ديوجانس اللايرتى (٢) ، وأشرنا الى رأيهم فى الرطوبة والبرودة فى الدماغ ، وأرجعناه إلى جالينوس وأفلاطون .

(٤) لاحظنا فرط اهتمامهم بالحس المشترك ، واتفاقهم على توقف الإحساسات بمختلف صورها على وجوده ، وهو رأى لم يسلم به المحدثون من العلماء ، إلا أن بعض هؤلاء قد ذهب إلى ما يشبه هذا الرأى من بعض الوجوه ، فقرر وجود مركز للنوم يقع النوم بتأثيره . ويحسن بنا أن نفصل رأيهم قليلا :

قالوا إن النوم يقع بتأثير مركز فى أسفل المخ ، فى قاع البطين الثالث وقناة سلفيس ، وذلك لأنهم لاحظوا فى بعض الحالات المرضية المصحوبة باختلال فى النوم ، (بالأسراف فيه أو الأمعان فى السهاد) وجود تغيرات فى هذه المنطقة ، فقالوا إن هذه التغيرات هى التى تحدث هذا الخلل ، بتعطيلها سير التنبيهات الصاعدة إلى المخ أو النازلة منه ، وأجرى العلماء تجارب يثبتون

---

1) H. Piéron : La Psychologie du rève au point du vie médicale, Paris 1920

(٢) شارل أبون Ch. Appuhn فى تعليقاته على كتاب « العلم بالغيب » Divination لواضعه شيشرون Ciceron فى طبعة جارنييه الفرنسية Garnier وقد ترجمنا هذا الكتاب وألحقناه بهذا البحث فى الاحلام رسالة للدكتوراه وسننشرة قريبا

بها وجود هذا المركز ، فذهب « هس » Hess إلى إمكان إحداث النوم ، بحقنه عقاقير فى البطين السالف الذكر ، وأيد بالتجربة ما يقول ، بتنبيهها بتيار كهربائى (١) وأثبت « ديبوا » Dubois أن اضطرابات النوم تقع بأحداث إصابات فى هذه المنطقة ، وأحدث « ديمـــول » Demole النوم بحقن هذا البطين بكلورود الكلسيوم ، فلما حقن المخ بمادة البوتاسيوم ـ وفعلها الفسيولوجى مضاد لفعل الكلسيوم ـ امتنع النوم ووقع الأرق .

ومن المشاهدات التى أيدت وجود هذا المركز ، أن أورام المخ التى تقع فى المنطقة السالفة ، أو تسبب ضغطا عليها ـ مباشرا أو غير مباشر — يصحبها اضطراب فى النوم ، أكثر مما تحدثه أورام تقع فى مناطق أخرى من المخ ، أولا تسبب ضغطا على مركز النوم ، كما أن التهاب المخ السبـــاتى Lethargic Encephalitis تتميز بوجود تغير يصيب تلك المنطقة . ويعتقد فون إكونومو Von Economo. أن وجود هـــذه التغيرات الباثولوجية ، هو الذى يسبب الأسراف فى النعاس الذى يصدر عن هذا الالتهاب (٢) .

ولكن من علماء الفسيولوجيا من لم يسلم بهذا الرأى ، فيرى « سامسون رايت » أن من الصعب أن نتصور قدرة هذا المركز ، على التحكم فى النوم واليقظة (٣) وقيل إن الاعتقاد فى هـــذا المركز يتنافى فى ظاهره مع نظرية بافلوف ، التى اعتبرت النوم إبطالا شرطيا من عمل اللحاء المخى .

وهكذا نرى أن بعض المحدثين قد قرر رد النوم واليقظة ، إلى تأثر مركز فى المخ بعوامل بيوكيميائية ، وهو رأى شبيه برأى المسلمين الذين افترضوا وجود الحس المشترك ، وردوا إليه النوم واليقظة ، وإن اختلفت وجهة النظر عند الفريقين ، وأيد المحدثون رأيهم بالتجربة ولم يكتفوا بافتراضه ، كما فعل مفكرو الأسلام الذين حال قصور الدراسات الفسيولوجية فى عصرهم ، دون الالتجاء إلى منهج

---

1 & 2- R. Brain et al : Recent Advances in Neurology, p. 273-275.
3- S. Wright, p. 150

البحث العلمى الصحيح ، مع ملاحظة أن مركز النوم فسيولوجى ، وأن الحس المشترك عملية نفسية ، وإن كان لها عضو أو مركز .

٠ ٠ ٠

ولكن : فى أى مرحلة من مراحل النوم تقع الأحلام .؟ إن ابن خلدون يرى رأيا له مشابه عند بعض المحدثين ، إذ يقول إن الرؤيا تقع فى مبادىء النوم ، عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار فى الكلام (١) ولا يشير إلى أنه يقع فى حال النوم العميق ، ويرى بعض المحدثين من علماء النفس ـ من أمثال « ودويرث » Woodworth أن الحلم يقع عقب النوم ، أو فى النوم الخفيف أو قبيل اليقظة (٢) ، والرأى الشائع عند علماء النفس ، هو فيما يقرر فولكمان : Volkmann, أن النوم العميق لاوعى فيه ولاشعور إطلاقا ، وإنما تقع أحلامنا جميعها فى الانتقال التدريجى إلى حال اليقظة (٣) ، وقد قسم « فولكمان » النوم إلى خمس مراحل ، جعل وقوع الأحلام فى المرحلة الرابعة منها ـ وهى تسبق اليقظة مباشرة ـ والواقع أن من المستحيل القطع برأى فى هذا الصدد .

والحلم الذى يقع إبان النوم يتفرع إلى أنماط كثيرة متباينة ، فيحسن بنا أن نعرض لبيانها وعللها عند مفكرى الأسلام ، بعد أن عرفنا موقفهم من النوم وتعليله ، وتتبعنا أفكارهم إلى منابعها فى التراث الغربى القديم ، وعرفنا ما يقابلها عند المحدثين من علماء النفس ووظائف الأعضاء :

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٤ — ٩٥

(٢) فصل التخيل فى .Woodworth, Psychology

3- A. Lang & A. E. Taylor, Hastings' Encyclopedia of Religion & Ethics, vol, V.

الفصل الثانى

الأحـــلام الباطلة وتعليلها

موقف المسلمين من أنماط الأحلام — صنوف الأحلام الباطلة — تعليل الأحلام الباطلة — تعليل الفلاسفة للاحلام الباطلة — صنوف الرؤيا الصادقة — منابع التفكير الاسلامى فى هذا الصدد — موقف الاسلام ـ مدى فضل اليونان على التفكير الاسلامى فى تصنيف الاحلام — أثر ارطميدوروس فى تصنيفاتهم — منابع تفكيرهم فى تعليل الاحلام — أثر أرسطو فى تعليل المسلمين للاحلام الباطلة ـ منابع الاحلام فى علم النفس الحديث ـ الاحلام الحسية ـ علاقة المؤثر الحسى بمكنونات الحلم ـ الاحلام النفسية — مناقشة الاتجاهين السالفين ـ تقدير مكانة المسلمين من التراث العقلى فى تعليل الاحلام .

موقف المسلمين من أنماط الأحلام :

فى تصنيفات المسلمين للأحلام لون من السذاجة ، قد يبرر ـ عند البعض ـ إهمال دراستها فى مثل هذا البحث ، ولكنا نقف من وجهات النظر الأسلامية ـ كما أشرنا فى منهجنا فى البحث ـ موقف المؤرخ النزيه ، الذى لا يستخف بما يراه ضروريا لبحثه ، وإن بدا عند البعض تافها يعوزه البريق واللمعان ، والحديث عن تصنيفات المسلمين لأنماط الأحلام ، ضرورى للنظر فى بحثهم عن عللها وأسبابها ، وفهم تفكيرهم على أدق الوجوه ، ومن أجل هذا ، رأينا أن نخص هذه التصنيفات بكلمة موجزة ، نعقّب عليها ببيان موقفهم من تعليلها ثم نتتبع أفكارهم إلى منابعها فى التراث العقلى القديم ، ونعرض ما يقابلها عند

المحدثين من علماء النفس ، حتى نعرف مكانهم فى مجال النظر العقلى :

كان طبيعيا أن تتفرع الأحلام إلى أنماط ، يتفاوت تقدير الناس لها قوة وضعفا ، فأنها تصور مناظر شتى وقصصا متباينة ، يأتلف بعضها مع مقتضيات العرف ، وأوضاع المنطق وتعاليم الدين ، ويساير بعضها الآخر نزعاتنا الشريرة وغرائزنا الجامحة ، ويتبدى بعضها واضحا سافرا ، ويظهر غيرها فى رموز تخفى معانيه ، وقد تبديه على غير ما يسيغ المنطق . ولا نكاد نجد مصنفا إسلاميا فى الأحلام ، لاينظم شتاتها فى أنماط ، وإن لم يبدُ تفريع الأصول إلا عند رجال الشرع ، فلنعرض موجزين ما رجح منها عند جمهرة المصنفين ، توطئة لردها إلى عللها وأسبابها ، ثم نتتبعها إلى منابعها الأولى ، لنعرف الأصيل منها والدخيل فيها

صنوف الأحلام الباطلة

من الرؤى الصادق والباطل ، فالصادق من الله والباطل من الشيطان ـ فيما رأى أهل الحديث ـ وإن كان كل ما يرى فى المنام من صادق وباطل من خلق الله ، وإنما أضيف الباطل من الأحلام إلى الشيطان باعتباره الداعى اليها والموعز بها (١)

وقد اختلف المصنفون فى عديد الباطل منها . فقيل إن الأحلام الباطلة فى مختلف صورها تكون من الشيطان (٢) . ومثال هذا عند هؤلاء ، أن يقدم النبى فى حلم على فعل ما لا يليق بنبوته ، أو ينبت شجر فى السماء ، أو تطلع النجوم فى الأرض أو يتحول فيل إلى نملة . . ! (٣)

---

(١) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٢ـ٣ وإن كان قد عاد فى الصفحة التالية إلى أحلام الشيطان ففرعها إلى قسمين : تحذير الشيطان وتخويفه ، وإلى ما يريه الشيطان ولا يعتبر من الرؤيا ـ كأنما كان الصنف الاول معدودا من الرؤيا ، وهو يعتبره فى الصفحة السابقة باطلا

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص٩١ وابن غنام فى تعبير الرؤيا ص ٥ والمسعودى ج ٢ ص٨٦

(٣) ابن غنام : تعبير الرؤيا ص ٥ والنابلسى : تعطير الانام ج ١ ص ٣ - ٤

وميّز بعضهم بين ما يكون من وحي الشيطان، وما يكون من وسوسة النفس، وفيها يرى المرء نفسه مع من يهواه، أو يتمثل له ما كان يخيفه في يقظته أو ينام على جوع فيطعم في أحلامه، أو تسطع الشمس على جبينه وهو نائم، فيرى في منامه ناراً تشتعل في جسمه أو على كثب منه، أو يشعر بالألم يشيع في كيانه (١)

وميز الكثيرون بين هذين الضربين من الأحلام، وما كان منها من أثر الطبائع والأمزجة (٢)، فمن غلبت عليه السوداء، تراءت له المخاوف، ومن غلبت عليه الصفراء، رأى النار والدم والصواعق والحروب، ومن غلب عليه البلغم، تمثل له البياض والأنهار والأمواج، ومن غلب عليه الدم، رأى الشراب والرياحين والمزامير والملاهي ونحوها (٣)

وميز البعض بين هذه الضروب وما كان أضغاثاً من الأحلام (٤) واعتبر البعض الأضغاث وأحاديث النفس شيئا واحداً (٥). وبالغ البعض في التفريع حتى عدّد من الباطل ستة ضروب (٦)

وفي الحق إنها شيء واحد وإن كثرت تفاريعه، فمن الممكن أن نردّ الأحلام التي تكون صدى المزاج والطبع، إلى ما يكون أضغاثا ووسوسة نفس، وقد ورد هذا المعنى عند الكثيرين. فالغزالي يقول - نقلا عن الفلاسفة - إن الأضغاث هي المنامات التي لا أصل لها؛ ويريد أنها لا ترتد إلى أصل آلهي،

---

(١) النابلسي: ج ١ ص ٤ وابن غنام ص + ٥، ٥، ٠٠ الخ والزمخشري في الكشاف ج ١ ص ٦٦٠ يفرق بين ما يكون من حديث النفس وما يكون من الشيطان

(٢) ابن سيرين: منتخب الكلام ص ٢-٣، ٦، ٦، ١٩ وابو عثمان في البشارة + ١٧ وابن غنام ص + ٦، ٦ والنابلسي ج ١ ص ٣-٤ وإخوان الصفا ج ٤ ص ١٦١

(٣) الابشيهي ج ٢ ص ١٠٨

(٤) اخوان الصفا ج ٤ ص ١٦١

(٥) النابلسي: ج ١ ص ٣

(٦) المصدر السالف ص ٤

وليس يقصد إلى القول بأنها معلول بغير علة ، فأنه يعقب قائلا ، وسببها حركة القوة المتخيلة وشـدة اضطرابها ... بكون لمحاكاتها أيضا أسباب من أحوال البدن ومزاجه ، فأن غلب على مزاجه الصفراء حاكاها .... الخ، (١)

تعليل الأحلام الباطلة

ذهب الذين ردوها إلى الشيطان ، إلى القول بأن الجن موجودة لامحالة ، وإنكارها كفر وشرك، وهم أجسام رقاق صافية هوائية عنصرها النار .... (٢) والشيطان يقابل الملك الذى يفيض الخير ويفيد العلم ويكشف الحق (٣) كما سنعرف بعد قليل - ونفوس الأشرار فى الدنيا شيطانة بالقوة ، فأذا فارقت أجسادها كانت شيطانة بالفعل ، فتحنّ إلى بنات جنسها من النفوس المتجسدة الشريرة ، لأن بين الطائفتين أخـوة وصداقة ، فتتصل الأولى بالأخرى إبان النوم ، وتوسوس لها بكل شر ، وتكون إيحاءاتها على عكس ما يوحى به الألهام الملكى السالف الذكر (٤)

أما الذين قالوا بوسوسة النفس وما يدخل فى بابها ، فقد عللوا الأحلام الباطلة بأنها وإن كانت كالرؤيا الصادقة ، من حيث إنها تردّ إلى صور فى الخيال ، إلا أن صور الأحلام الباطلة ، تستمد مما تعيه الحافظة من صور أودعها فيها الخيال إبان اليقظة ، ولا تنزل الصور من الروح العقلى المدرك ، كما هو الحال فى الرؤيا الصادقة (٥) وهكذا تقع الأضغاث متى انطوت النفس على ذاتها ، وأعادت ما سبق لها إدراكه إبان اليقظة ، من آثار المحسوسات فى الحافظة ،

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠ - ٣١١

(٢) ابن حزم ج ٥ ص ١٢-١٣ أنكرها بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة - أنظر الرازى فى تفسيره ج ١ ص ٤٣٢

(٣) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ٢٣ وما بعدها

(٤) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٦٧ و ١٧٣ (٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٦

وأخذت تستعرضه وتتصفحه (١) ، شأنها فى ذلك شأن الملوك إذا خلوا إلى أنفسهم ، ومضوا إلى خزائنهم يتصفحون ما بها ، والمختزن فى الذاكرة مرهون بالجوارح والحواس ، فيتمشى فى زيادته ونقصه ، طردا مع وفرة الحواس وعكسا مع نقصها (٢) وربما ألفت بين العناصر المختزنة ، وكونت صوراً جديدة لا عهد لها بها من قبل ، فيرى المرء نفسه كأنه يحلق فى السماء ، أو يتراءى له ثور مركب على بدن إنسان . . . . (٣)

تعليل الفلاسفة للأحلام الباطلة

هذا هو تعليل الصوفية والفلاسفة الدينيين ، ولا يختلف عنه كثيرا تعليل الفلاسفة ، فهم يردون الأحلام الباطلة إلى الصور التى يأخذها الحس المشترك من الخيال ، كما ارتسم فيه من الخارج (٤) . ولهذا فأن من أطال التفكير فى شىء رآه فى منامه ، وقد تركب المخيلة صورة جديدة من الصور المتعددة المرتسمة فى الخيال من الأمور الخارجية ، وقد يردونها إلى مدركات تنشأ عن مرض ، كثورات خلط أو بخار ، فتحاكى المخيلة كلا بما يناسبه (٥) . ومصداق هذا ما نراه عند الفارابى فى الشرق ، وابن رشد فى الغرب ، إذ يقرر الأول أن المخيلة تجمع أثناء النوم آثار اليقظة ، أو تخلق من عناصرها صوراً جديدة على أشكال متباينة ، وذلك أن القوة المتخيلة تحفظ ما ارتسم فى النفس من المحسوسات ، بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها ، وهى تركب المحسوسات أو تفصل بعضها عن بعض ، ويتفق أن يكون بعض هذا موافقا للحس ، وبعضه مخالفا له (٦)

---

(١) ابن مسكويه : الفوز الاصغر ص ١١٠

(٢) ابن العربى : الفتوحات المكية ج ٢ ص ٤٩٨

(٣) ابن مسكويه : فى المصدر السالف .

(٤) جواهر الكلام للايجى (نشره الدكتور أبو العلا عفيفى) ص ١٧٣

(٥) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٦٠١

(٦) الفارابى : المدينة الفاضلة ص ٤٨ — ٤٩

كما يقرر تأثير الأحلام فى تشكلها بالأمزجة والأخلاط والرغبات ، والميول والأحساسات السابقة للحلم أو المصاحبة للنوم ، ويذهب إلى فعل القوة الخيالية عند النوم ، فى الآثار الباقية فى الحس المشترك ، من المحسوسات التى تكون من خارج ، وعن فعل هذه القوة فى المعانى المودعة فى الذاكرة والمفكرة من تلك الأمور المحسوسة ، لأن تصرف التخيل فى خزانة الفكر والذكر والحس المشترك دائم لا ينقطع ، وهذا بالإضافة إلى رغبات النفس البهيمية وميولها ، فأنها إذا اشتاقت إلى وجود شىء أو عدمه ، تحاكى لها المخيلة صورة ما تشتاق إليه ، وتحضره لها فى المنام ، فالعطشان يروى ظمأه ، والمحب يشبع فى المنام حبه ، ومن هذا الصنف من الأحلام ما يدل على غلبة الأخلاط والأمزجة على الأبدان (١)

وقد تأثر بالفلاسفة فى تعليلاتهم ، بعض المصنفين فى الأحلام من رجال الشرع (٢)

هذا هو موقف مفكرى الأسلام ـ رجال شرع وصوفية وأهل فلسفة ـ من تعليل الأحلام الكاذبة ، فلنعرض صنوف الرؤيا الصادقة ، لأنها تزيد موضوعنا هذا وضوحا :

صنوف الرؤيا الصادقة :

أدركها التفريع ، كما أدرك الأضغاث من قبل ، فميز البعض بين ما يكون من وحى الله ، وما يكون من إلهام الملائكة (٣) وقيل إن السافر المكشوف منها يكون من وحى الله ، والمرموز الذى يعوزه التعبير يكون من الملك (٤) أو

---

(١) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٩١

(٢) قارن الرؤيا المنامية للشيخ إبراهيم المعروف بقصاب باشى زاده ص ٦ و ٧

(٣) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٦١

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٩١

من الأرواح فيما يقول البعض (١) . وبالغ البعض فى التفريع حتى أوصلها إلى خمسة أضرب : ما كانت جزءاً من النبوة ، وما كشف عنه ملك الرؤيا « صديقون » ، وما كانت بشرى من الله ، والمرموزة ـ التى تكون من الأرواح ، وما يصح بالشاهد (٢)

وما قيل فى تفريع الأحلام الباطلة ، يمكن أن ينسحب على تفريع الرؤيا الصادقة ، فهى فى كل صورها من وحى الله ، وليس إلهام الملائكة بشىء مخالف لذلك ، فأن بعض المعتزلة يشرحون الرؤيا التى تكون من الله ، بقولهم « كنحو ما يحذر الله الأنسان فى منامه من الشر ويرغبه فى الخير » (٣) ولعل هذا يجمع بين الوحى الألهى والألهام الملكى ، وإن جازت تفرقه ابن خلدون بينهما بالصريح والمرموز وأما « صديقون » فلعله من مبتكرات النابلسى وابن غنام ومن إليهما . . !

أما عن تعليل الرؤيا الصادقة ، فسنرجئه إلى فصل مستقل فى الكتاب الثانى ، الذى وقفناه على : دراسة الرؤيا الصادقة وتعليلها عند مفكرى الأسلام

وقد أشرنا فى مستهل هذا الفصل ، إلى أن الطريف فى هذه الآراء ، أن تعقبها إلى منابعها الأولى ، يكشف لنا عن تفكير أصيل وتفكير دخيل ، عريق فى القدم طويل الأجل ، فلنحاول بيان هذا فى إيجاز :

موقف الأسلام

منابع التفكير الأسلامى فى هذا الصدد :

من شأن القرآن فى مختلف المسائل التى يعرض لها ، ألا يعنى بتفاصيلها

---

(١) النابلسى : تعطير الانام ج ١ ص ٤

(٢) النابلسى : ج ١ ص ٤ — ٥

(٣) الاشعرى : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ٤٣٣

وتفاريعها ، وقد كان طبيعيا ألا يعرض عند ذكر الرؤيا إلى بيان صنوفها ، فليس القرآن مصنفـا فى الأحلام ، وإن تضمن القرآن الأشارة إلى وحى الله والملائكة والشيطان معا ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى أنه قال :

الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطـان ، ورؤيا ما يحدّث المرء به نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام . ولكن الحديث يرد بصيغ أخرى تختلف بعض الاختلاف ، ولهذا أحاط الشك هذا الحديث، حتى قيل إنه من كلام ابن سيرين ، ولكن تقسيم الرؤيا إلى نوع من الله وآخر من الشيطان ، صحيح عن النبى ما فى ذلك شك ـ كما يقول أهل السنة (١) وسنعنى بتفنيد هـذا الرأى فى الكتاب الثانى .

فأما وحى الملائكة فقد ورد فى القرآن ٨ : ١٢ « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ... » وعلى هذا اعتمد القائلون بوحى الملائكة إبان النوم فيما يلوح .

وكذلك الحال فى وحى الشياطين ٦ : ١٢١ « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . . . . » ثم ٦ : ١١٢ « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ... » وعلى هذه الآية اعتمد إخوان الصفا فى تعليلهم لوحى الشياطين ، فى النوم واليقظة على السواء .

ولعل القرآن لم يتضمن إشارة صريحة ، إلى وحى الملائكة والشياطين إبان النوم ، مما جعل بعض المعتزلة فى تقسيمهم للرؤيا ، لا يشيرون إلى ملك ولا إلى شيطان ، وينكرون هذه الرؤيا الصادقة التى اعتبرها الغير وحيا إليها ـ كما سنعرف بعد .

---

(١) ابن تيمية : تفسير المعوذتين ص١٩٣ ـ ١٩٤

ويكاد ينعقد الأجماع على وجود رؤيا من الله ، ولا يعقل أن ينسحب هذا على كل حلم يقع لكل إنسان ، فالطبيعى أن ينتهى التفكير وحده ، إلى تفريع الأحلام ومحاولة ردها إلى علل ، فالدين على هذا كان أول سبب أدى الى تصنيف الأحلام ، أما تفريع الأصول وتعليلها عقليا ، فذلك ماينبغى أن نتتبعه إلى منابعه خارج الدين ، فالدين ليس من شأنه أن يعرض لتفسير الظواهر تفسيرا عقليا ، وإن جاز أن يشير إلى ذلك ، فلنحاول بيان هذا فى إيجاز ، لنعرف الأصيل والدخيل من هذه الأفكار :

مدى فضل اليونان على التفكير الأسلامى فى تصنيف الأحلام :

أثر أرطميدورس فى تصنيفاتهم

عرف اليونان الكثير مما سلف من هذه التصنيفات ، ومن المحقق أن المسلمين قد اتصلوا بأرطميدورس ونحوه ممن عنوا بالأحلام ، وشابهت آراؤهم آراء المسلمين ـ على نحو ما سنعرف بالتفصيل فى آخر فصول هذا الكتاب ـ ومع هذا فالراجح عندنا أن فضل هؤلاء على التفكير الأسلامى فى مجال التصنيف والتفريع ضئيل ، وإن بان أثره فى بعض المناحى ، لأن المسلمين لم يصلوا فى هذا الصدد ، إلى شأو يعز على أمثالهم ، أما تعليل الأحلام وتفسيرها عقليا فرجعه فيما يلوح ، إلى أرسطو على التخصيص .

ومن الممكن أن يردّ إلى التفكير الأسلامى البحت ، إرجاع الأحلام إلى مصدرين : الله والشيطان ، دون البحث فى صحة الحديث النبوى الذى ينسبون إليه هذا التقسيم ، ويمكن أن يقال مثل هذا فى رد الأحلام ، إلى وسوسة النفس أو غلبة الطبع أو نحوها . فقد اهتدت الشعوب إلى هذا وحدها ، ولم يكن المسلمون بأقل من هذه الشعوب ، فى مجال النظر العقلى ، فالأنجليز فى العصور الوسطى كانوا ينسبون الأحلام الباطلة إلى الشيطان ، والصادقة إلى الله (١)

1- S. Lincoln : The Dream in primitive Cultures. P. 8

وقد رأى القدماء منذ عشرات القرون ، تقسيم الأحلام إلى قسمين : أحدهما يكون من إملاء الحاضر أو وحى الماضى ، ومثل هذا لا يكشف غيبا . وثانيهما ما يمتد إلى مجاهل المستقبل المحجب ، ويشمل النبوءات التى يتلقاها المرء سافرة صريحة ، والتى تتبدى مقنعة فى رموز ، تتكشف معانيها بعد تأويلها ، والتى تكشف عن حدث مقبل . وقدعاشت هذه النظرية فيما يقول « حروب » O, Gruppe. قرونا طوالا (١)

وقد نص « أرطميدورس » على التفرقة بين الرؤيا الصادقة والأحلام الباطلة ، فاشتق كلمة « أونيروس » أى الرؤيا الصادقة من أصل يونانى ، بمعنى يقول ، ويقول الحق ، وبهذا فرق بينها وبين « أنيبون » التى تعبر فى اليونانية عن الحلم الذى لا يتحقق ، واهتم « أرطميدورس » بالرؤيا الصادقة حتى أشار فى مقدمته ، إلى أن إقناع منكريها بصدقها ، كان من العوامل التى حفزته إلى وضع كتابه ، وقد نقل الكتاب إلى العربية كما سنعرف بعد (٢)

فارجاع الأحلام إلى هذه المصادر ، (من وحى شيطان إلى وسوسة نفس إلى غلبة طبع أو وحى إله) ليس جديدا فى تاريخ التفكير فى الأحلام ، ومن الممكن أن يقال إن المسلمين قد اهتدوا إليه بتفكيرهم ، فى ضوء دينهم ومؤثرات بيئتهم - بأوسع معانيها - كما اهتدى إليه غيرهم من الشعوب القديمة .

على أن هذا لا ينفى تأثر المسلمين بغيرهم نفيا قاطعا ، فأن الشعوب فى اتصالها بغيرها ، تتأثر وتؤثر راضية أو كارهة ، وفى تصنيفات المسلمين وجوه تأثر ضئيل لا سبيل إلى إنكارها ، وحسبنا أن نشير إلى تصنيف السمنودى الذى ردّ فيه الأحلام إلى المحمود ظاهرا وباطنا ، والمذموم ظاهرا وباطنا ، والمحمود ظاهرا المذموم باطنا ، والمذموم ظاهرا المحمود باطنا ، فأن هذا صدى

1- S. Freud : Interpretation of Dreams, P. 2.

2- Artemidori Daldiani : Oneiro Critica.

فى نسخة لاتينية ويونانية طبعت عام ١٦٠٣ م

ماورد عند أرطميدورس فى الفصل السادس . بل إن بعض الأمثلة التى يذكرها السمنودى توضيحا لتقسيمه ، قد أوردها أرطميدورس للغرض نفسه ، كقوله إن المحمود ظاهرا وباطنا ، كالأحلام التى يحادث النائم فيها الآلهة فى حالة طيبة (١) ، فيغير السمنودى (الموحِّد) جمع الآلهة إلى مفرد ، كما يصبغ أمثلته بتقاليده ودينه وظروفه . بل إن بعض ما رأيناه عند المسلمين من تصنيفات أخرى ، لم نشر إليها لشمورنا بتفاهتها ، نجد له مثيلا فى « أرطميدورس » الذى يضع عدة فصول قصيرة — على نحو فصول المسلمين — عن تصنيف الأحلام إلى مرموزة أو سافرة ، وما اتفق مع العادات والتقاليد وما لم يتفق معها ، وما كان كثير التفاسيل قليل النتائج أو العكس . . . الخ . (٢)

وما نظن — رغم هذا التشابه — أن المسلمين كانوا يخسرون كثيرا — فى هذا الصدد ، لو أنهم لم يتصلوا بغير دينهم وتقاليدهم معا ، وإن كان من الضرورى أن نعترف بأنهم تأثروا فى تصنيفاتهم باليونان تأثرا ضئيلا .

منابع تفكيرهم فى الأحلام :

هذا فيما يتصل بالتصنيفات ، أما تعليل الأحلام الباطلة فمرد تفكيرهم فيه ، إلى أرسطو على التخصيص ، وإن وصلت إليهم تعليلات مشابهة ، عرفت عند الهيلينيين ومن إليهم من القدامى . وقد أشرنا فى فصل النوم ، إلى أن بحث أرسطو عن النوم والرؤيا ، قد انتقل إلى الشرق والغرب الأسلاميين ، عن طريق الكندى وابن رشد ، فإذا أضفنا إلى هذا ما نراه ، من تشابه دقيق بين تفكير المسلمين وتفكيره ، وجدنا ما يبرر القول بأنهم كانوا نقله لآرائه :

أثر أرسطو فى تعليل المسلمين للأحلام الباطلة :

اهتدى المسلمون مع سذاجة تفكيرهم فى هذا الموضوع ، إلى معرفة الأحلام

---

(١) فى الفصل السادس من Artemidori : Oneiro Critica.

(٢) فى الفصل الثانى والثالث والخامس

التى يقول عنها المحدثون من علماء النفس ، إنها تقع استجابة لمؤثرات حسية أو نفسية ـ كما سنعرف بعد قليل ، فما نراه شائعا مألوفا فى كتب الأحلام ، النص الصريح على أن الأحساس بالجوع ، يؤدى فى الحلم إلى الطعام ، والشعور بحرارة الشمس ، يفضى إلى الاحتلام بالنار . . . الخ وفطنوا إلى ظهور ما يشغل البال إبان اليقظة فى أحلام المساء ، ولم يفتهم أن يلاحظوا أثر الميول والرغبات والطبائع فى تكوين الأحلام وتلوينها ، واتفق المسلمون ـ رجال شرع وصوفية وفلاسفة ـ فى ملاحظة هذه المؤثرات التى تصاحب النوم أو تسبقه ، أو ترجع إلى رغبات النائم وطبيعته ، وإن اتفقوا جميعا بعد هذه الملاحظات القيمة الممتعة ، التى احتلت مكانها فى الدراسات السيكولوجية الحديثة ، على أن كافة هذه الأحلام ، عبث وهذر لا يقبل التأويل ..! وإنما وضع التأويل للرؤيا الصادقة التى تكون من وحى الله . وجميع ما اهتدوا إليه من هذه الملاحظات القيمة ، موجود عند أرسطو الذى أنكر الرؤيا الصادقة . . !

فأرسطو يقرر بأن الحركات المنبهة التى تقوم على الأحساسات — ما كان منها مستمداً من خارج الجسم أو من باطنه ـ تبدو فى اليقظة والمنام على السواء ، ولكن شواغل اليقظة تطغى عليها أثناء النهار ، فتُقصيها عن الوعى ، أو تبديها فى غموض ، شأنها فى ذلك شأن اللهب حين يتضاءل أمام لهب يكبره ، والألم أو السرور حين يذوب فى ألم أو سرور أشد عنفا فإذا زال عنا ، ما يجعلنا نحس بضآلتها ، بدت جلية واضحة (١) . وهكذا يرى الفلاسفة النظريون أن المرء لا يفطن فى يقظته ، إلى الحركات التى تحدث فى باطن الجسم ، فإذا نام بدت عنده ذا بال ، ومن هنا قيل إن الحلم يحوّل الأحساسات الخفيفة إلى إحساسات مكبرة . فالنائم الذى يسمع صلصلة خفيفة فى أذنيه ، يرى فى حلمه أن برقا أو رعداً مسه ، وإذا سار فى بلعومه قليل من البلغم ، ظنه فى الحلم شهدا

---

1) Aristotle : Somniis, III, 460 B, & 461 A.

يستمتع بحلاوته ، وإذا اتصلت بجزء من جسمه حرارة ما ، توهم فى حلمه أنه يقتحم النار ويصطلى بها ، فإذا استيقظ عرف هذه الأشياء على حقيقتها (١)

هذا فيما يتصل بالمؤثر الذى يقع على الحس إبان النوم ، أما ما يسبق النوم من مؤثرات ومنبهات ، فيقول فى أمرها ، إن الحواس تنقل إلينا آثار المحسوسات ، فتبق هذه الآثار وقت إحساسها ، بل تدوم حتى بعد زوال المحسوسات التى أدت إليها ، ويشهد بهذا أننا إذا انتقلنا من ضوء الشمس إلى الظلام ، لبث الضوء قائما فى عيوننا ، وإذا أطلنا النظر إلى لون ، وجاوزناه إلى شىء آخر ، بدا لنا باللون الذى كنا نحدق فيه ، وقد يصيبنا الصمم بعد سماع الأصوات العنيفة وتتعطل حاسة الشم بعد استنشاق الروائح القوية ، وهكذا دواليك (٢). ومن هذا تحتفظ المخيلة بآثار المحسوسات بعد زوالها ، وتقدمها عند الظروف المناسبة ، وهكذا يكون من الممكن أن تنشأ الأحلام من صور ذهنية لاحساسات سابقة ، تشكلها المخيلة بأشكال شتى .

وقد فطن أرسطو فوق هذا إلى أثر الميول والعواطف والأمزجة فى تشكيل الأحلام ، حتى يرى المحب ما يساير نزعات هواه ، ويرى الخائف مثيرات خوفه ، ويعمل على اتقائها ، وكثيرا ما يرى فى منامه أشياء كانت موضع تفكيره فى يقظته (٣) .

ومن هذا كله نلاحظ أن آراء أرسطو قد عاشت فى التفكير الاسلامى ، دون أن يطرأ عليها تغيير ما ..! وهكذاساير المسلمون أرسطو فى أفكاره ، حتى إذا وقف من الرؤيا الصادقة ، موقف المتردد فى التسليم بها ، وانتهى إلى

---

1) Aristotle : Divinatione par Somnun 463 A.

2) Aristotle : De Somniis II, 459 A & B.

(٣) أشار الدكتور مدكور فى العدد ١٧٦ من الرسالة الى بعض هذه النصوص فى النسخة الفرنسية لرسالة أرسطو ، ورجعنا نحن إلى النسخة الانجليزية ، فى طبعة اكسفورد التى يشرف عليها الاستاذ «روس» Ross

رفضها، انصرفوا عنه، وجنحوا إلى تأييدها، ورفعوها إلى مرتبة النبـــوة، وحقروا من شأن هذه الأحـلام السالفة على اختلاف أنماطها، وكان هـذا فارقا جوهريا سنعود إلى الحديث عنه فى الكتاب الثانى

كان أرسطو إذن مصدر المسلمين فى تعليلهم للأحلام، وربما وصلت إليهم آراء أخرى فى تفكيرهم مشابه منها، فالمعروف أن الهيلينيين قد فطنوا إلى أن الرؤيا تخضع ـ إلى حد ما ـ للتأثر بخواطر النفس وأوضاع الجسم، وأنهم استبعدوا عامل «ما فوق الطبيعة» عند ما اعتنقوا هذا الرأى، ومن أجل هذا أوجبوا فى نظريتهم، جعل الروح والجسم فى حالة، لا تفضى بصور الأحلام إلى الغموض أو الفساد والاضطراب (١) ولعل هذه الأفكار قد وصلت إلى المسلمين الذين اتصلوا فيما هو معروف بتراث الهيلينيين، وكان لها أثرها فى تعليل ما سموه بأضغاث الأحـلام.

ولـكن ما قيمة هذه الآراء، التى ذهب إليها مفكرو الأسلام فى تعليل الأحلام..؟ إن القرون التى فصلت بينهم وبين أرسطو، لا تحمل فى ركابها، أثراً لتقدم فى النظر العقلى فى تعليل الأحلام ـ فيما يلوح ـ فمن الخير أن نعرض ما يقابلها عند المحدثين من علماء النفس، لنتبين وجه الحق فيما بدا من جمود هذه القرون السوالف

منابع الأحلام فى علم النفس الحديث

انتهى المحدثون من علماء النفس، إلى أن الحلم يتمثل فى إحدى صورتين: إدراك خاطىء أو وهـم مجسم (٢). ومعنى هذا أن الأول يتضمن صوراً عقليـة أدت إليها مؤثرات موجودة بالفعل، ولـكن النائم قد أدركها على غير وجهها،

1) Bouché-Leclercq : Hist. de la Divination vol 1. p. 286.

(٢) الادراك الخاطىء: illusion يراد به عند علماء النفس إدراك على غير وجهه لوجود شىء موجود فعلا، أما الوهم المجسم Hallucination فهو إدراك شبح ليس له وجود بالفعل

لأسباب سنعرض لها بعدقليل ، وأما النوع الثانى فيشبه خواطر اليقظة ، من حيث إنه أفكار وصور تتداعى بعضها وراء بعض ، دون اتصال بمؤثر حسى إطلاقا. ! ولكل نوع أنصاره ومؤيدوه ، وإن جمع جمهرة المحدثين بين الاتجاهين ، وهكذا انتهى المحدثون إلى تقسيم الأحلام : إلى أحلام حسية Sensorial or Presentative Dreams تنشأ عن مؤثرات تقع على الحس الظاهر أو الباطن عند النائم أو إلى أحلام نفسية Representative or Psychic Dreams. تنبع من معان عقلية ، وتستمد وجودها من ذكريات ، تفيض مما اختزن فى اللاوعى من تجارب الماضى واختباراته ، فلنشرح هذين النبعين فى إيجاز :

الأحلام الحسية

كان البعض يقول : « من المعدة تنبع الأحلام » ، وانطوى هذا القول الشائع على نظرية تقرر بأن الأحلام ، مردها إلى اضطراب يقع أثناء النوم ، وبهذا يمتنع وقوع الأحلام ، متى امتنع وقوع هذا الاضطراب إبان النوم ، لأن الحلم رجع للاضطراب (١) وقد رد أكثر الأحلام إلى مؤثرات الحس « برجسون » فى محاضرة ألقاها فى دار المعهد السيكولوجى العام (٢).

وقد قرر فى هذه المحاضرة ، بأن الحواس لا تتعطل عن أداء وظيفتها أثناء النوم ، فالعين فيها إحساسات بصرية باطنية تبدو فيما يسمى « بالغبار المنير » أو « الطيف البصرى » أو نحوه ، ومع هذا إحساسات بصرية تصدر عن منبهات خارجية ، ويشهد بهذا قدرة العين على التمييز بين النور والظلام أثناء النوم ، ومن هذه الأحساسات كلها ينشأ الكثير من أحلامنا ، فإذا أضاءت أمام النائم شمعة فجأة ، تحوّل الضوء فى حلمه إلى حريق ، يتبعه صراخ وعويل ، يعقبه إقبال رجال المطافىء ، يليه مجىء رجال الأسعاف... إلى آخر ما تنتهى إليه

---

(١) قارن S. Freud, Interpretation of Dreams, p. 16, 184 ff.

(٢) نشرت المحاضرة فى كتاب برجسون . L'energie Spirituelle. ص ٩١ — ١١٦ وقد ألقاها فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠١

صور الحلم ، وإذا كان هذا شأن النور القوى المفاجىء ، فأن النور الضعيف الباهت ، كضوء القمر حين يسطع على جبين النائم ، يفضى إلى صورة فتاة صبوح..الخ

وما قيل فى العين ينسحب على الأذن ، لأن لها إحساساتها الباطنية التى يتعذر تميزها إبان اليقظة ، وتسمع الأذن الأصوات أثناء النوم ، وتصبح هذه الأصوات منبهات تثير الأحلام ، فأصوات المتشاجرين فى معركة ، تردنا فى الحلم إلى الثورة المصرية ، ومظاهرات الطلبة إبانها ، واصطدامهم برجال الشرطة ، واعتدائهم على محال الأجانب . . الخ ، ومثل هذه الأحلام لا تنشأ ـ فيما يرى «برجسون» بغير أصوات حقيقية ، تسمع أثناء النوم ، لأن الحلم لا يخلق من العدم شيئاً ، وهكذا يتحول الصوت ، إلى طلقات مدفع أو صفير قطار ، أو هدير أمواج تتحطم على صخرة شاهقة .

ومثل هذا يقال فى اللمس ، فالطيران فى الحلم مرده إلى عدم استقرار القدمين على نقطة ارتكاز . وللمس إحساسات باطنية ، يصرفنا عن الشعور بها ضجيج اليقظة ، ويقوى شعورنا بها الاستسلام للنوم ، فالأمراض التى تصيبنا فى الأحلام ، ونردها عند اليقظة إلى الأوهام ، ثم نفاجأ بتحقيقها بعد ، مرجعها إلى أننا كنا مصابين بها قبل وقوع الحلم ، ولكنها كانت ضعيفة غير مشعور بها أثناء اليقظة ، وهذه وجهة نظر فطن لها أرسطو قديما ـ كما عرفنا من قبل ـ وعاد إلى تأييدها الكثيرون من المحدثين

ومن هذا نرى أن حواسنا لا تتعطل عن أداء وظيفتها أثناء النوم ، بل إن مجال عملها ليزداد اتساعا ، وعندئذ تفقد الدقة التى كانت لها أثناء اليقظة ، والفارق الجوهرى بين الحلم واليقظة : أن قوى النفس تكون عند النوم فى حالة انطلاق يعوزه الحصر ، والتدقيق فيفتقد الحلم التدقيق والتأنى والضبط والرقابة والتعقل المنطقى والربط العلىّ ونحوه من خصائص اليقظة السليمة (١)

---

(١) قارن هذا بما ذكره «فرويد» من آراء العلماء فى خواص الحلم السيكولوجية ص ٣٩ - ٥٣

وبهذا نرى أن الأحلام تستمد وجودها من مؤثرات ومنبهات تقع على حس النائم ـ ما ظهر منه وما بطن ـ تلك وجهة نظر جدّ فى تأييدها «برجسون» وروج لها بعض العلماء من أمثال «مورى» M. Maury (١)

وقد كان «بنيامين رشارتسون» B. Richardson من أشياع هذا الرأى حتى طلب إلى مستمعيه فى سلسلة محاضرات له، أن يبعدوا عن أذهانهم القول بأن الأحلام لا تفسّر بأسباب طبيعية بحتة، ولا تردّ إلى اضطرابات تحصل بالمخ عن طريق الجهاز العصبى، وتعمل على نحو ما يعمل التلغراف اللاسلكى، فتنبىء المخ بوجود اضطراب محلى . أو ألم يثور فى جزء من الجسم . ومتى حدث هذا القلق فى المخ، فقد نشأت الأحلام . وأبى المحاضر أن يقبل غير السبب الجسمانى أصلا لنشأتها (٢)

وقد جمع «أرثر» كثيرا من أحلام هذا الصنف (٣) كما جمع «جسن» Jessen أحلاما تردّ إلى مؤثرات حسية طارئة . وسجل «مورى» كثيراً من المشاهدات الجديدة فى هذا الصدد حول نفسه، وإن كانت بعض تجاربه لم تؤدّ إلى وجود أحلام، كما أجرى «فيجانت» .Weygant و«هرفى دى سانت دينس» Hervey De St. Denis وغيرهما كثيراً من التجارب لينشئوا بها أحلاما، ولخص فرويد الكثير من هذه التجارب (٤)

وقد تكون الأحلام نتيجة لمثيرات بدنية عضوية فى الباطن، فالمعروف أن الأنسان لا يكاد يشعر بأعضاء جسمه الداخلية، متى كان سليما معافى،

---

1) M. Forster : Studies in Dreams p. 41-42.

2) Ibid. p. 34 — 35.

(٣) قارن Archer, On Dreams ch. 7 p. 54 ff.

4) Freud, Interpretation of Dreams p. 18 ff.

بينما يشعر بآلامها متى أصابها عطب ، ويقرر « شترومبل » أن العقل يكون فى حالة النوم ، أعمق وأسع وعياً باتصاله بالجسم ، مما يكون إبان اليقظة ، وأنه لا محالة يتلق ويتأثر بالأحساسات المنبهة ، التى تبدو فى مختلف أجزاء الجسم ، التى لا يكون على وعى بها فى اليقظة ، وهذا نفسه هو الذى حمل أرسطو على أن يشير قديماً ، إلى أن الحلم قد يُنذبه إلى وجود خلل فى الجسم ، غير مشعور به فى حال اليقظة . والملحوظ أن الأحلام المزعجة ، تكثر عند الأصابة بمرض القلب أو الرئتين . ويرى الكثيرون من أمثال « تيسيه » Tissié أن الأعضاء المريضة تطبع خواصها على مكنونات الحلم ، وأن مرضى القلب تقع لهم أحلام قصيرة مزعجه ، تنتهى بالذعر الذى تعقبه اليقظة ، وقد وضع بعض العلماء من أمثال « سيمون » M. Simon قواعد لشرح تأثير الأحساسات العضوية ، فى تحديد الحلم الناتج (١)

علاقة المؤثر الحسى بمكنونات الحلم :

لاحظ العلماء أن المؤثرات السالفة ، لا تظهر فى الحلم على حقيقتها ، وإنما تبتدى فى صورة شىء آخر ، تربطه بها صلة من نوع ما ، وهى لا تؤدى إلى شىء واحد ، وتمنع من ظهور غيره فى الحلم ، فقد يظهر المؤثر الوحد فى عدة أحلام ، فى صور مختلفة متباينة فيما يقول « مورى » (٢) ويؤكده « فرويد » - ويبدو المؤثر فى الحلم فى صورة إدراك خاطىء ، لعله أكبر خطأ من أكثر المدركات التى تقع لنا أثناء النهار كما يقول « ودويرث » .

أما لماذا يسىء النائم الحكم على المؤثر الحسى وطبيعته ، فالراجح أن علة هذا ، شبيهة بعلة أخطائنا فى اليقظة ، فنحن نحسن تأويل المؤثر متى كان على درجة من الشدة والوضوح والطول ، بحيث يتوافر لدينا من الوقت ما يكفى للتفكير فيه ،

---

(٢) قارن Freud, Interpretation of Dreams, p. 27 ff

(٢) قارن المصدر نفسه ص ٢١

وفهمه على وجه الصحيح ، وإلا تحوّل أمام العقل إلى إدراك خاطىء ، وكذلك الحال فى الأحلام (١)

وهكذا صوّر بعض المحدثين من علماء النفس ، أثر المؤثرات الحسية ـ الظاهرة والباطنة ـ التى تصاحب النوم ، فى تكوين الأحلام وتشكيلها ، فلنعرض رأيهم فى الأحلام التى تنشأ عن مصادر نفسية :

الأحلام النفسية :

اعترف جمهرة العلماء بالأحلام الحسية السالفة ، ولكن بعضهم قد تطرف وقال بوجود نوع من الأحلام ، لا يرجع إلى مؤثر حسى إطلاقا . . ! ولكن يردّ إلى مؤثر نفسى عقلى بحت . . ! فيكون إشباعا لرغبة « جنسية مكبوتة » لم تتحقق فى اليقظة ، كما تقول مدرسة فرويد فيما يظن البعض . . ! أو تكون إشباعا لغريزة السيطرة وتوكيد النفس Self - assertion أو صدى للميول الفطرية والانفعالات والنزعات من خوف وغضب واشمئزاز ، ونفور ومحافظة على الذات ، ومايصطبغ بهذه الحالات الوجدانية من أفكار ، فيما يقول « وليم براون » W. Brown فى نقده لما توهمه قصورا فى مذهب « فرويد » (٢) وإن كان هذا واتباعه يحاولون أن يفسروا الأحلام المخيفة المقلقة (الكابوس) بنظريتهم فى استيفاء الرغبات Wish - fulfilment ، ويرون الخوف غشاء يخفى وراءه رغبة موجبة ، فالجندى الذى قضى فى الحلم نحبه بالقنابل ، ينطوى على رغبة خفية فى الموت ، للتخلص من آلام الحرب (٣) . ! هذا تطاول فى المنطق : فيما يقول البعض ، فأن الطفل الذى يخاف الأفاعى ، كثيرا مايراها فى أحلامه ، ومن يخشى العاقبة السيئة ، تتمثل له محققة فى منامه ، وإن جاز مع هذا أن تكون الأحلام المخيفة ، جوابا لمؤثر حسى ، كسوء الهضم أو الانحطاط العصبى

---

1) Freud, p. 22-3.

2) W. Brown, Psychology & Psycho-therapy p. 44.

(٣) قد يفسر هذا بغريزة الموت ، التى تشبث بها « فرويد » أواخر حياته العلمية

أونحوه فيما يقول « ودويرث » ، ويذهب البعض إلى أن تسعة أعشار الأحلام ، لا ترجع إلى مؤثرات حسية إطلاقا . . ! ولكن الكثيرين يتفاوتون فى تصور أثر هذه المؤثرات (١)

مناقشة الاتجاهين السالفين :

يرفض جمهرة المحدثين من علماء النفس ، الأذعان لمثل هذا التطرف ، فهم لا يقبلون القول بوجود أحلام حسية محضة ، لا تتشكل بالرغبات والأهواء ونحوها ، من وجوه الحالة النفسية عند النائم . ولا يميلون إلى التسليم بوجود أحلام ، تنشأ عن مؤثرات نفسية بحتة ، لا دخل للمنبهات الحسية فى نشأتها ، ومن التجنى أن يذكر « فرويد » ومدرسته ، فى باب التدليل على صحة الاتجاه الثانى ، والقول برد الأحلام إلى الغريزة الجنسية المكبوتة ، والأصح أن يقال إنه كان يرد الأحلام إلى منبهات حسيه خارجية وإحساسات باطنية داخلية ، ومصادر نفسية ، هى التى أولاها جل اهتمامه ، وقصد بها الرغبات المكبوتة أو المضغوطة (٢) وهذه نقطة سنعرض لشرحها ، عند الحديث على مذهب فرويد فى الرموز وتعبيرها .

والرأى عند جمهرة المحدثين من علماء النفس ، ينعقد عند الجمع بين الاتجاه الحسى والنفسى معا ، لم يسعهم إنكار أثر المؤثرات الحسية فى « نشأة » الأحلام بعد التجارب التى أجراها العلماء لتأييد ذلك ، ولكنهم أكدوا العامل النفسى ، وقالوا إن الأدنى إلى الصواب أن يقال ، إن أحلامنا « تنشأ عن مؤثرات حسية ، ولكنها تحاك من مكنونات النفس ، فأن المؤثر الحسى لا يشرح حقيقة الحلم ، ومن الحق ما يقوله « هافلوك إليس » Havelock Ellis - ويتفق معه فى ذلك

---

3) W. Archer, On Dreams, p. 61 & 54.

(٢) أنظر ما قيل فى شرح هذه المؤثرات التى تثير الاحلام فى كتابه السالف « تأويل الاحلام » ص ١٧ - ٣٥ وغيرها ، وسنشرح الفرق بين اللفظين بعد .

فرويد . . ا ـ من أن المؤثرات الداخلية والخارجية ، التى تعمل فى وعى النائم ، ليست جزءاً من هذا الوعى بحال ، ولا تعتبر بأى معنى من معانيها مصدر وجوده ، وهى لا تنبىء عن مكنونات الحلم ، بأكثر مما ينبىء قرع ساعى البريد ، عن فحوى الخطاب الذى يحمله إلى صاحبه ، ومهما كانت المؤثرات ، فأنها مستقلة عن وعى النائم ، ولا يمكن أن تصل إليه ، إلا بعد أن تتحول من حال إلى حال ، فتخلع عنها الصفات التى تلازم الظواهر فى عالم اليقظة ، وأن تستعيض عنها بصفات عالم آخر هو عالم الأحلام

وإذن فالخواطر التى تشغل الوعى قبيل النوم ، هى التى تتحكم فى الحلم وتسيّر مجراه ، حقيقةً إن المؤثر الحسى يمهد لبداية الحلم ، ولكن صوره ومناظره لا لا تلبث حتى تتحول وتنساق فى تيار الحالة النفسية ، وتخضع لمؤثراتها (١) . وحتى إذا وقع المؤثر الحسى فى منتصف الحلم ، كان تفسيره ملائماً لجريان الخواطر كذلك ، فقد أجريت تجربة على صحفية ، كانت تحلم بأنها تتبادل الحديث مع صديقات لها ، فيما تفعله أثناء عطلتها ، فألقى المجرب السيكولوجى على مسمعها قصيدة وهى تحلم ، فأدخلت هذا المؤثر الجديد فى تيار خواطرها ، وظنت المجرب رسولا ، أوفده صاحب الجريدة التى تعمل بها . يعيد عليها مواد التعاقد بينها وبينه ، فأقلقها ذلك قليلا ، ولكنها تمنت فى حلمها ألا يتعارض ذلك مع عطلتها (٢)

بل إن المؤثر الحسى الذى سلمنا بأنه يمهد لنشأة الأحلام ، ولا يسيطر على أحداثها ، كثيرا ما يفشل حتى فى تمهيد الطريق لنشأة حلم ، وكم من التجارب أجرى على غير جدوى (٣)

---

1) M. Forster, Studies in Dreams, p. 137-139

(٢) الفصل المشار إليه قبلا فى كتاب «ودويرث»

(٣) قارن .Maury, A., Le Sommeil et les rêves فى فشل بعض تجاربه فى ذلك و«فورستر» Forster فى المصدر السالف من ١٤١-١٤٢

إن معين الحديث عن موقف العلماء، من منابع الأحلام وسبل تأييدها لا ينضب (١)، وقد صادفت الأحلام من الدراسات السيكولوجية فى القرن الحاضر، أوفر حظ ممكن، فحسبنا ما أسلفناه فى هذا الصدد، ولنحاول أن نربط حلقات التفكير القديم والوسيط والحديث، ببيان مكان المسلمين من هذا التراث كله:

تقدير مكانة المسلمين من التراث العقلى فى تعليل الأحلام:

رأينا فيما أسلفنا، أن المحدثين من علماء النفس، قد ردوا الأحلام إلى ما يسبق النوم أو يصاحبه، من مؤثرات تقع على الحس الظاهر أو الباطن، وإلى رغبات وغرائز وميول فطرية ونزعات عاطفية، تنشىء الأحلام وتشكلها، وهذا بيّن الشبه بما قاله أرسطو منذ ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان، فإذا لاحظنا هذه النتيجة، كان حكمنا على التفكير الأسلامى، الذى اقتصر على ترداد هذه الأصول، ليناسمحاً.

ولكن من العدالة أن نلاحظ المنهج الذى سلكه المحدثون، فى علاج هذه الأصول، والميادين التى طرقوها لتأييدها، فإذا لاحظنا هذا كله، عرفنا أن هذه الأصول، قد وردت ملاحظات موجزة فى تراث أرسطو، الذى اهتدى إليها بعبقريته الجبارة، ولكنها تحولت عند المحدثين إلى مذاهب تؤيدها مئات التجارب، ويبين عنها عديد المؤلفات..! ومن التجنى أن تراعى الأصول وحدها، ثم يقال بعد هذا إن المحدثين لم يضيفوا إليها شيئا، وهذا ربما جعل حكمنا على التفكير الأسلامى عنيفا صارما.

ولكن من الأنصاف أن نقرر بأن مردّ قصورهم فى هذا الصدد، إلى أمرين أولهما: احتقار كل ما عدا الرؤيا الصادقة من ضروب الأحلام، فأنهم قد

---

(١) أنظر فى علاقة الاحلام بحالة اليقظة كتاب «فرويد» فى «تأويل الاحلام» ص ٤-٧ حيث يعرض ما قيل فى هذه العلاقة تأييدا وإنكارا

انساقوا إلى هذه النظرة ، مدفوعين بشعور دينى - وما نظن الدين مسئولا عن ذلك، وسنبين عن هذا بعد - فانتهى بهم هذا إلى إهمال هذه الأحلام التى اعتبروها أضغاثا باطلة . . ! والضن عليها بالتفكير العقلى ، ولولا هذا لأصابت ما أصابته الرؤيا الصادقة من وجوه النظر العقلى ، ولكان من المحتمل ، بل من الراجح أن يضيفوا إلى تراث أرسطو شيئاً جديدا - كما كان حالهم مع الرؤيا الصادقة. وثانى أسباب القصور فى التفكير الأسلامى فى تعليل الأحلام ، مردّه إلى الزمان الذى عاشوا فيه ، والظروف العقلية التى أحاطته بالمحدثون قد بحثوا الأحلام بعد أن نضجت الدراسات الفسيولوجية والبيولوجية والعقلية - بوجه عام - نضجا ملحوظا، فاستعانوا بهذا كله على إنشاء هذا التراث ، ولم يتهيأ للمسلمين من هذا شىء كثير ، فالمقارنة مع تخطى الزمان وظروفه ، تعتبر تجنيا سافرا

ولكن هذا كله لا يفضى بنا إلى إعفائهم من «كل» ملامة ، فقد كانوا مجرد أبواق ، تردد آراء أرسطو فى هذا الصدد من غير زيادة ، ولم نلحظ بينهم ما لحظناه عند المحدثين من تخير لاتجاه بعينه ، والاهتمام بتأييده مع العناية بدحض ما يضاده ، فأن الاختلاف فى وجهات النظر ، من مظاهر النضج العقلى فى تاريخ التفكير ، أما الأجماع على الرأى ، وترداده من غير مناقشة ، فأنه لا يكون إلا فى عقيدة دينية أو نظرية علمية مقررة ، لا مجال فيها لرأى شخصى (١)، وما نظن تعليل الأحلام كان فى عهدهم واحداً من هذين

على أن من الأنصاف لهم - ولأرسطو من قبل - أن نقول إن من الخطأ أن يقال إن البحث فى العلل المثيرة للأحلام ، لم يظهر إلا بعد أن أصبح الحلم موضوعا للبحث البيولوجى ، بحجة أن القدماء قد فهموا الحلم باعتباره وحيا من الله ، وأن هذا قد أفضى بهم إلى عدم الشعور بالحاجة إلى البحث عن مؤثر يؤدى إلى وقوعه ، لأن الحلم كان عندهم نتيجة لإرادة إلهية أو قوى خفية ، وليست مكنوناته إلا نتاجا لها ، ولكن العلم قد حوّل التيار وسرعان ما تشعبت

---

(١) بل حتى هذا قد يخضع للبحث عند أهل النظر العقلى

وجهات النظر بين العلماء فى بحث هذه المؤثرات... إلى آخر ما يقال (١) فأن هذا صحيح بوجه عام ، ولكن فيه إهمالا لأرسطو الذى اهتدى إلى كافة أصول البحث السيكولوجى فى منابع الأحلام ، وخطأ أصحاب هذه الملاحظة، يبدو سافراً إذا سحبناه على المسلمين ، فأنهم كانوا يؤمنون بالرؤيا التى تكون بوحى من الله ، ومع ذلك حاولوا تعليلها بالنظر العقلى المحض - كما سنعرف فى الباب الثانى - وتقديسهم لها لم يمنعهم من محاولة تعليل الباطل من الأحلام، وإن مروا بهذا سراعا عجلين .

وإذا جاز أن يقال بعد هذا كله ، إن أرسطو هو رب التفكير الصحيح فى تعليل الأحلام ، فهل لا يكون لمفكرى الإسلام الذين سلموا بآرائه وروجوا لها ، نصيب من هذا الفخار ..؟ ويضاف إلى هذا موقفهم من تصنيف الأحلام وتفريعها إلى أنماط ، فقد رددنا إليهم فضله - وإن لم يكن عظيما ، ولا خلوا من تأثر « بأرطميدورس » ومن إليه

ولكن إذا كان مفكروا الأسلام يحتقرون كل ما عدا الرؤيا الصادقة من ضروب الأحلام ، ويعتبرونه هذيانا وتضليلا لا يقبل تأويلا ، فمن الخير أن نكتفى بما سلف فى الحديث عنه ، بل إنا لنعمد إلى هذا مضطرين ، لأنهم لم يتركوا لنا أبحاثا مستقلة فى موضوعه ، حتى يمكنونا من دراستها . فلنمض ، إذن إلى الرؤيا الصادقة عند مفكرى الإسلام : رجال شرع وصوفية وفلاسفة ، لنرى الأصيل منها والدخيل فيها معا :

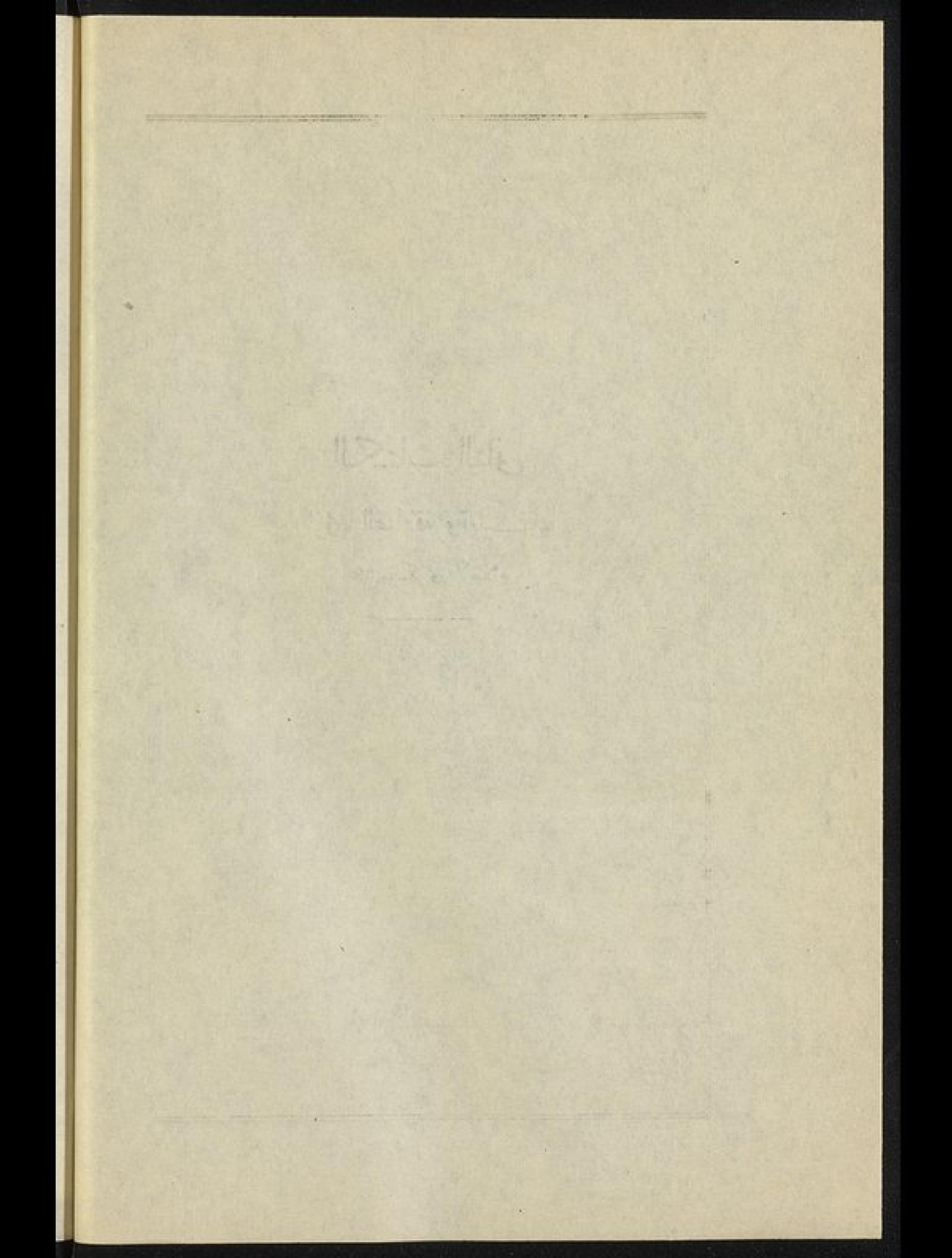
---

(١) انظر ما جاء فى كتاب «فرويد» السالف الذكر ص ١٦-١٧ بهذا الصدد ، «فرويد» نفسه لم يغفل قط عن حقيقة مذهب «أرسطو» وقد ذكره بين مصادر كتابه التى بلغت مائة وثمانية عشر مصدرا ، وإن كان «فرويد» لم يشر اليه فى خلال مؤلفه الذى استغرق نصف ألف من الصفحات ، الا فى إشارتين موجزتين

الكتاب الثانى

الرؤيا الصادقة وتعليـــلها

عند مفكرى الأسلام



الكتاب الثانى

الرؤيا الصادقة وتعليلها عند مفكرى الأسلام

علاقة موضوع الكتاب الثانى بما قبله وما بعده :

عرضنا فى الكتاب الأول موقف مفكرى الاسلام من ظاهرة النوم ، الذى يربط بين الرؤيا الصادقة والأحلام الباطلة ، وكشفنا عن تعليلهم لصنوف هذه الأحلام التى لا تقبل تعبيرا ، وتتبعنا آراءهم إلى منابعها الأولى ، فعرفنا العناصر اليونانية والشرقية القديمة ، التى تسرى فى وجوه النظر العقلى فيها ، والروح الاسلامى الذى يتحكم فى توجيهها ، ثم عرضنا ما يقابل هذه الآراء عند المحدثين من علماء وظائف الأعضاء وعلماء النفس معا ، واستبان لنا مكان المسلمين فى مجال التفكير فى النوم ، وما يقع فيه من باطل الأحلام .

وبقى علينا أن نعرض للرؤيا الصادقة التى أحاطوها بهالة من التقديس ، واعتبروها شاهدا على وجود النفس ، وطريقا إلى كشف الغيب ، ونموذجا للنبوة ونمطا للولاية ، ودليلا على قيامهما معا ، فنعرض اتجاهاتهم الدينية والصوفية والفلسفية ، فى فهمها وتعليلها معا ، ونتتبع هذه الاتجاهات إلى منابعها فى التراث الأسلامى ، واليونانى والرومانى والشرق القديم على السواء . ثم نحدد مكان النظر الأسلامى فى مجال التفكير فى هذا الموضوع ، ببيان الموقف الذى وقفه منه المحدثون من علماء النفس .

فأذا فرغنا من هذا كله ، عقبنا فى الكتاب الثالث بالحديث عن « علم التعبير » الذى قصروه على هذه الرؤيا الصادقة .

فلنشرع فى ارتياد هذه الميادين :

تمهيد :

فنون الغيب

عند مفكرى الأسلام

عرف العالم الأسلامى، فنونا من التنبؤ الطبيعى والتكهن الصنعى معا، ولكن جمهرة مفكرى الأسلام، لم يذعنوا للتسليم بغير الصنف الأول علما بالغيب لأن الغيب عندهم، هو الأمر الخفى الذى لايدركه الحس، ولا تقتضيه بداهة العقل، ويقع العلم به، دون مقدمات أوأسباب تفضى إليه، ومن غير استدلال منطق ينتهى إلى معرفته، ودون أن يثبت عنه خبر صادق، ومن ثمّ فهو لا يجىء بالتوسل بصناعة أو نحوها مما تستند إليه أساليب التكهن الصنعى

والعلم بالغيب - على هذا النحو الطبيعى، المعتمد عند جمهرة المفكرين - هبة لمن شاء أن يجتبيه الله من عباده، أو فطرة يؤتيها صفوة المؤمنين أوخاصة البشر، ممن فطروا على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح، ومن ثم فالعلم بالغيب يكون لأصحاب الوحى من الرسل والأنبياء، وأهل الإلهام من أصحاب الكشف الصوفى، وغير هؤلاء من المرضى والمجانين والقتلى والمعتوهين من مريدى الصوفية، ممن يتهيأ لهم انصراف المزاج عن موارد الحس، وتجرد النفس عن علائق البدن، وانشغالها عن التفكير العقلى. ومن هنا كان العلم بالغيب يقع لبعض الناس نياما، لأن الصفات السالفة تتوافر فى حال النوم، وعندئذ يكون العلم بالغيب فى صورة رؤيا صادقة، - صريحة كانت أو مقنعة

يعوزها التعبير - وهى تجيء عن وحى إلهى لاصناعة ولا اكتسابا - وهذا ما سنفصل الحديث عنه بعد حين

وهذه الفنون من التنبؤ الطبيعى Natural Divination فى اليقظة والمنام تقابلها فنون من التكهن الصنعى Artficial Divination - وتكون فى العادة إبان اليقظة ، وقد شاعت فى العالم الإسلامى شيوعا واسع المدى ، ولكن جمهرة مفكرى الإسلام ، قد رفضوا - على ما أشرنا - اعتبارها أداة لإدراك غيب محجب ، لأنها لا تجيء عن وحى أو إلهام إلهى ، ولا تصدر عن طبيعة أهلها ، بقدر ما تجيء صناعة واكتسابا ، استناداً إلى الخبرة الموفورة والمهارة الملحوظة ، والحذق البين والذكاء الوقاد ، والحدس الصادق والمران الطويل ونحوه ، وأشهر هذه الفنون الصنعية : الكهانة والعرافة والعيافة ، والفراسة والتنجيم والفأل والطيرة ونحوها (١)

---

(١) فصلنا الحديث فى هذه الاساليب كلها — طبيعة كانت أو صنعية — فى كتابنا المشار اليه من قبل « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام »

الفصل الأول

الرؤيا الصادقة ومكانها فى مجال الأدراك الغيبى

اتجاهات المفكرين فى تصورها . الاتجاه الدينى . الاتجاه الصوفى . الاتجـاه الفلسفى . علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية . علاقة الرؤيا بالنبوة . موقف الفلاسفة من هذه العلاقة . صلة الرؤيا بالولاية . مدى تقدير الرؤيا عند رجال الشرع . آداب النوم . آداب قص الرؤيا . إنكار الرؤيا الصادقة عند الملاحدة وبعض المؤمنين . إنكار الرؤيا الصادقة عند جمهرة المتكلمين . إنكار الرؤيا عند عامة الناس . منابع التفكير الاسلامى فى الرؤيا . موقف القرآن وخلوه من نص يؤيد الوحى فى الرؤيا . منابع آداب قص الرؤيا . الرؤيا الصادقة فى التراث اليونانى والشرق القديم . مكانة الرؤيا عندقدماء اليونان والشرقيين . انكار الرؤيا فى التراث اليونانى . نظرة المسلمين للرؤيا ؟ مناقشة الادعاء الدينى بأنها وحى من الله . خسارة المسلمين من جراء نظرتهم للرؤيا .

اتجاهات المفكرين فى تصورها :

لايستقيم الأسلام بغير الوحى الألهى ، والأيمان بالوحى يؤدى إلى الأعتقاد بأمكان الاطلاع على عالم الغيب ، وقد اتفق جمهرة المفكرين على أن هذا ميسور إبان النوم ، كما هو ممكن أثناء اليقظة ، باتفاق فى الطبيعة والغاية ، وإن اختلفت الدرجة والوسيلة ـ كما سنعرف بعد ـ وقد انعقد على هذا رأى سواد المفكرين ، واتفقت وجهات نظرهم فى تصوره ، وإن اختلفت وجوه النظر العقلى عندهم قوة وضعفا ، فلنعرض هذه الاتجاهات موجزين :

الاتجاه الشرعى فى تصورها :

من رجال الشرع من اختصر الطريق فى شرحها ، فعزى صدقها إلى الله

القادر على كل شيء ، فهو يخلق فى قلب النائم أو فى حواسه الأشياء ، كما يخلقها فى اليقظان ، وهو سبحانه يفعل ما يشاء ، فلا يمنعه من ذلك نوم ولا غيره ، وربما يقع ذلك فى اليقظة كما يتراءى فى المنام (١) .

ومنهم من ذهب إلى أن الأنسان الحساس هو غير هذا الجسم ، وأنه يخرج عن البدن فى حالة النوم ، فيشاهد العالم ويرى الملكوت على حسب صفاته ، واستند هؤلاء وغيرهم ممن ذهب إلى نحو هذا المعنى بقوله تعالى : «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها . .» الآية (٢)

ومنهم ـ رجال الشرع ـ من حاول تفسير صدقها عقليا ، فقال إنها تقع للمرء وهو نائم ذاهل العقل والحس معا ، إلا أن النائم وإن ذهب عقله الذى به يتعقل ويفهم ، وحسه الذى به يدرك صور المحسوسات ، فأن نفسه تكون يقظة منتبهة ، تقوى على التعقل والتفهم ، وتقوم مقام الحواس من سمع وبصر ولمس ونحوه ، فى نقل آثار الجزئيات ، ذلك أن روح النائم تسرح فى الدنيا ، وتمتد منبسطة خارج الجسد ، وإن لبث جزء منها على اتصال به ، فتدرك فى النوم مكنونات الغيب المحجب (٣) . وقيل إنها ترحل عن الجسد إلى عوالم الغيب ، فأن تيقظ النائم فجأة ، قبل أن تعود من رحلتها ، أدركه الجنون . . ! وقيل بل تصعد الأرواح إلى السماء السابعة ـ فيما يقول دانيال عليه السلام ـ حتى تقف بين يدى الله ، ويأذن لها فى السجود ، فأذا سجدت بُشر الطاهر منها بالغيب ، فيراه النائم بروحه ويتفهمه بقلبه . . ! (٤) .

---

(١) قارن التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٦٠٠

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٧

(٣) ابن سيرين : الاشارات ص ١ و ٢

(٤) ابن غنام : تعبير الرؤيا ص ٤ و ٤

الاتجاه الصوفى فى تصورها:

إلى هذا ذهب رجال الشرع فى تصورهم للرؤيا الصادقة ، فأما الصوفية فيرى الأشراقيون منهم، أن النفس من عالم المجردات والمعقولات ، فهى تستطيع أن تدرك المدركات المجردة التى تكون من جنسها ، إذا لم يشغلها شاغل من علائق البدن ، فأذا قويت بالفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية ، اتصلت النفس بأبيها المقدس وبالنفوس الفلكية ، وتلقت عنها المغيبات فى نومها - كما يقع لها هذا فى يقظتها (١) - كما سنعرف بعد .

وذهب القائلون بوحدة الوجود من الصوفية ، إلى أن وصول العبد إلى خالقه ، غير ممكن مع وجود الاثنينية ، فلا بد من إفنائها أولا ، عندئذ لا يهبط الوحى من كائن أعلى مستقل عن الأنسان ، وإنما ينبع من نفسه ، فالوجود حقيقة واحدة ، وماتراه من تعدد وكثرة ، مرجعه إلى آثار الحواس ، والعقل الذى يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء ، وقد ظهر الوجود الحق فى صورة الكبش فى منام إبراهيم الخليل ، كما ظهر فى صورة إسحاق ، « وماناب إلا عن نفسه ، وما فدى منها إلا بنفسه الظاهرة فى الصورة الكبشية » . وعلى هذا فوحى الرؤيا لا يهبط من خارج ، وإنما يصدر بهـذا المعنى - من باطن النفس (٢) .

والمعانى العقلية التى تحملها الرؤيا ، لاتجىء عن طريق الحس ، لأنها طرف أعلى وألطف ، والحس طرف أدنى ، والخيال قائم بينهما ، فلكى تنزل هذه المعانى إلى الحس ، لا بد لها من أن تمر بحضرة الخيال أولا ، ومن طبيعة هذا الخيال أن يصور كل ما يقع له فى صور محسوسة (٣)

---

(١) السهروردى : هياكل النور ص ٤٣ — ٤٤

(٢) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٣٦ — ١٣٧ ، وقارن كتاب الدكتور أبو العلا عفيفى The Mystical Philosophy of Ibnul'Arabi ص ١٣١ — ١٣٢ وتعليقه على مقال ابن عربى فى دائرة المعارف الاسلامية (فى النسخة العربية)

(٣) ابن عربى : الفتوحات المكية ج ٢ ص ٤٩٤

الاتجاه الفلسفى فى تصورها :

يقولون إن الحواس تنقل للنفس صور المحسوسات ، فتنشغل النفس بالتفكير فيها إبان اليقظة ، فإذا وقع النوم ، تعطلت الحواس عن أداء وظيفتها، فتفرغ النفس من هذا التفكر ، وتنصرف إلى ما وراء الحس من جواهر روحانية شريفة عقلية - هى اللوح المحفوظ عند رجال الشرع - وفيها تنتقش صور الموجودات كلها ، فإذا اتصلت النفس انطبعت فيها بما تحمل هذه الجواهر من مكنونات الغيب ، ولا سيما ما كان يعنى النفس منها ، وقد تصدق الصورة الجزئية التى تقع للنفس ، من غير حاجة إلى تعبير ، وربما بدلت المخيلة بها مثلا يعوزه التعبير ، ليتكشف عن حقيقة معناه (١) ويقولون إن الحس المشترك قد يأخذ المدرك فى النوم من صور فى العقل الفعال ، وقد يلبسه صوراً تحتاج إلى التعبير ، أو يبديه سافراً فيقع كما ظهر (٢) ، بل إن الحس المشترك لا يتلقاه فى عرفهم عن العقل الفعال رأساً ، بل يأخذه عن النفس الناطقة - العقل المستفاد - التى تأخذه بدورها عن العقل الفعال ، آخر العقول المفارقة ، وفيه ترتسم صور الكائنات جميعها (٣) ، فهو فى هذا يشبه الجواهر الروحانية الشريفة عند الغزالى ، واللوح المحفوظ عند أهل الشرع ، والروح المقدسة عند السهروردى ، أما طريق الاتصال بالعقل الفعال ، فيكون بالتأمل العقلى أو بالمخيلة القوية - وسنوضح هذا بعد .

ومن عناية الله بالإنسان أن يقع الإنذار فى الرؤيا ، إذ المقصود به أن يستعد المرء لملاقاة المستقبل ، ويتهيأ لدفع شره ، هكذا أشار يوسف على الملك

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٩ - ٣١٠

(٢) الايجى : جواهر الكلام ص ١٧٣

(٣) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٦٠١

بأن يستعد للسنين السبع المجـدبة (١) على أنه لا يبعد أن يقع الإنذار عن الماضى والحاضر متى كان مجهولا لنا ، وهو أكثر مايكون فى الأمور المستقبلة التى يختص إدراكها بالقوى الفكرية الجزئية ، التى تفيد فى معرفة الضار والنافع من مقبل الأمور ، ومن الممكن أن تشمل الرؤيا الصنائع ـ الصناعات ـ العملية ، وكم من أنباء كان العلم بها فى الطب عن نذر منامية ..! أما العلوم النظرية فيبعد إدراكها عن طريق الرؤيا ، لأن المرء يدركها بما فطر عليه من إدراك المقدمات الأولى ، ولو أدركها بغير مقدمات لكانت عبثا ، كما أن الإنسان إذا تمكن من السعى بغير قدمين ، كانت القدمان عبثاً باطلا ، والطبيعة تأبى ذلك ، فالإنسان مفطور على إدراك العلوم النظرية من مقدماتها ، إلا إذا قيل بوجود صنف من الناس ، يدرك هذه العلوم بغير تعلم ، هؤلاء إن وجدوا كانوا ناسا باشتراك الاسم ، بل هم إلى الملائكة أدنى وأقرب (٢) .

حسبنا هذا عن اتجاهات مفكرى الإسلام فى تصور الرؤيا الصادقة . ولنحدد بالدقة مكانها فى مجال الإدراك الغيبى ، ومثل هذا التحديد ، يتطلب عرض العلاقات التى تربطها بالنبوة والولاية معاً ، كما تصورها مفكرو الإسلام ، فلنحاول عرضها موجزين :

علاقة الرؤيا بالنبوة والولاية :

ذهب جمهرة المفكرين ، إلى أن الرؤيا تنبع من نفس المعين الذى تستقى منه النبوة والولاية ، وإن كان حظها منه أقل كما وكيفا ، وقد اختلفت وجهات نظرهم فى تفاصيل هذه الفكرة ، وإن التقت آخر الأمر عند تأييدها ، فإذا تخطينا النظر فى هذه التفاصيل ، أمكننا أن نعرض رأى ابن خلدون فى هذا الصدد ، باعتباره نموذجا لتفكيرهم :

---

(١) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٨٨

(٢) ابن رشد : المصدر نفسه ص ٨٩ — ٩٠

للعقل نطاق يحسن التفكير فى مجاله ، إنه يدرك العلم الذى يستند إلى المشاهدة ، ويعتمد على التفكير النظرى ، هذه هى مدارك العلماء ، فأن تجاوز العقل هذا النطاق إلى ما وراءه ، ضل سبيلا ، ووراء العقل نطاق يرتاد المرء مجاهله ، بنوع من الإدراك فوق مدارك البشر ، وهو يتوافر فى الأنبياء ويتهيأ للأولياء ، ومع الناس نموذج منه ، يتبدى فيما يقع لهم من صادق الأحلام وهم نيام . واهتداء النفوس إلى هذا العالم العلوى غير عسير ، لأن فى النفس البشرية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، لتصير ملكا بالفعل فى لمحة من اللمحات ، وعندئذ تتجه إلى الملأ الأعلى وتتصل به فطرة لا اكتساباً ، وبهذا تتجاوز مثل هذه النفوس مرتبة العلماء ، الذين يعجزون بطبعهم عن بلوغ الإدراك الروحانى ، لاتصالهم بالمدارك الحسية الخيالية ، التى تؤدى إلى اكتساب العلوم التصورية والتصديقية ، مما ينتهى بالأوليات ولا يتجاوز نطاقها ، فإذا ترقت النفس تجاوزت هذا المجال ، واتجهت بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى ، والإدراك الذى لا يفتقر إلى إدراك الحس ، فيتسع نطاق إدراكها بالفطرة ، حتى تتجاوز الأوليات ، التى يقف عندها الإدراك البشرى الأول ، إلى فضاء المشاهدات الباطنية ، وتلك هى مدارك الأولياء ، أصحاب العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، ويظفر بها أهل السعادة فى البرزخ بعد مماتهم ، وقد تترقى النفس — المفطورة على الانسلاخ من البشرية جسمانيتها وروحانيتها — إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، لتصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ، فتشهد أهل الملأ الأعلى فى أفقهم ، وتستمتع إلى الكلام النفسى والخطاب الألهى فى تلك اللمحة ، وتلك هى نفوس الأنبياء فى حال الوحى التى فطروا عليها ، ولم يظفروا بها صناعه واكتساباً (١)

فالنفس ذات روحانية مدركة ، من غير آلات بدنية وأدوات حسية ،

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٣ — ٨٥

وتكون عندئذ أقل فى الدرجة من نفوس الملائكة أهل الأفق العالى ، الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن أو غيره ، وهذا الاستعداد السالف يقوم فى النفس ما دامت فى البدن ، وهو على صنفين : صنف خاص يتهيأ للأولياء ، وآخر عام فى البشر جميعا ـ وهو الرؤيا الصادقة . أما الاستعداد الذى يتهيأ للأنبياء ، فأنه يكون بانسلاخ النفس من البشرية إلى الملكية المحضة ، وهى أعلى الروحانيات (١).

فالرؤيا على هذا طور ضعيف من أطوار النبوة (٢) ، وبينها وبين النبوة مرتبة واضحة المعالم ، يقوم فيها إلهام الأولياء ، الذى يعتبر ضعيفا بالأضافة إلى الوحى النبوى ، قويا بالقياس إلى وحى الرؤيا (٣) .

وهكذا تنتظم الثلاثة فى سمط واحد ، فلنتحدث عن صلة الرؤيا بكل منهما على حدة ، فأن مثل هـذا الحديث ، يزيد العلاقة وضوحا ، ويكشف لنا عن مكان الرؤيا فى مجال الأدراك الغيبى :

صلة الرؤيا بالنبوة :

ذهب البعض إلى أن رؤيا الأنبياء وحى (٤) ، أما نزول الوحى على لسان الملك إبان اليقظة ، فيكون للرسل ـ فيما يقول البعض (٥) ـ وبها يمكن ادعاء النبوة . على ألا يكون المدعى مكثرا فى أحلامه ، ولا كاذبا فى أحاديثه ، فأن قلت رؤاه وكان صدوقا ، وجب أن يتريث حتى تتكرر الرؤيا فيقطع بصحتها ، على ألا ينسخ بها بعد ذلك شرعا ، ولا يستأنف عبادة بطلت (٦) . أليست الرؤيا وحى الله إبان النوم (٧) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩ (٢) الغزالى : الاحياء ج ٤ ص ٤٢٨
(٣) الغزالى : الرسالة اللدنية ص ٤٣ (٤) الزمخشرى فى الكشاف ج ١ ص ١٢١٢ والفخر الرازى ج ٧ ص ١٤٩ وابن تيمية : الوصية الكبرى ص ٢٨١
(٥) الماوردى : أعلام النبوة ص ٢٥ والتهانوى فى كشاف الاصطلاحات ج ١ ص ٦٨٤ وابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٤ (٦) الماوردى : أعلام النبوة ص ٢١ ، ٢٣
(٧) السالمى فى الاشارة ص ٤ وأبو عثمان فى البشارة والنذارة ص ٢

وذهب البعض إلى اعتبار الرؤيا بدء الوحي عند الرسل ، فقد تدرجت أحوال النبي حتى علم أنه نبي مبعوث ومرسول مبلغ ، وكانت الرؤيا أولى مراتب هذا التدرج ، قالت عائشة : أول ما بدىء به الرسول من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وحببت اليه الرؤيا (بعد ذلك) الخلوة في غار حراء ، ولبث على هذا حتى فاجأه الوحي الألهي (١) وقيل إن الوحي قد نزل به وهو نائم في الغار ، إذ جاءه الملك وفي يده صحيفة وقال له : اقرأ ، فأجاب مأخوذا : ما أقرأ . . ؟ إلى آخر ما ترويه كتب السيرة (٢) .

وهكذا ينزل وحي الأنبياء في المنام أول الأمر ، فاذا هدأت قلوبهم هبط عليهم إبان اليقظة (٣) وإن ذهب البعض إلى أن الوحي قد نزل بالرسول في يقظته لا في منامه ، على أن الرأي الراجح عند المسلمين ، أن الرؤيا كانت إيذانا بدعوة الأسلام ، وإرهاصا برسالته .

كانت الرؤيا بدء الوحي ، وأضحت اليوم بعد انقطاعه المظهر الباقي للنبوة ، والتراث الذي خلفته لنا ، فأن الرسالة قد انقطعت بعد الرسول ، « لا رسول بعدي ولا نبي » . ، فلما شق هذا على الناس : قال وبقيت بعدي المبشرات ، قالوا وما هن يا رسول الله . . ؟ قال هي الرؤيا الصادقة ، يراها الرجل الصالح أو ترى له (٤) .

---

(١) البخاري في أوله في الحديث الثالث ، الماوردي في أعلام النبوة ص ١٥٢ ، ابن عربي في الفتوحات المكية ص ٤٩٤)

(٢) هيكل : حياة محمد ص ١٣٠ - ١٣١ (عن ابن هشام وابن اسحاق وغيرهما)

(٣) ابن كثير في تاريخه عن الحافظ ابي نعيم الاصبهاني في كتابه : « دلائل النبوة » (وقد أيد ما يقوله الاصبهاني) .

(٤) الغزالي في الاحياء ج ٤ ص ٤٢٩ — ٤٣٠ وابن عربي في الفتوحات ٤٣٤ و ٤٩٤ـ ٤٩٥ ، ٥٠٠ والشعراني في اليواقيت والجواهر ج ٢ ص ٦٤ والمنبر في تحفة السالكين ص ١٠٩ وأبو عثمان في البشارة ص ٢ . . . الخ

وقيل إنها جزء من النبوة ، ففي الحديث أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً (١) وقد ذهب البعض إلى أن المراد هو الجزء من نبوة الرسول عليه السلام ، لا من مطلق النبوة التي تشمل سائر الأنبياء ، وذلك أن الوحي قد نزل بالرسول ستة شهور ، وكانت مدة الرسالة ثلاثة وعشرين عاما ، ولو امتدت ثلاثين عاما لكانت الرؤيا في الحديث جزءا من ستين لا من ستة وأربعين (٢) . وذهب غير هؤلاء في تأويل الحديث ، إلى أن المراد بالعدد ليس الكثرة في تفاوت المراتب ، فأن هذا إن جاز في نبوة رسول الأسلام ، فقد لا يجوز في غيرها ، وإنما قصد نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ، إلى الاستعداد الخاص بصنف الأنبياء الفطرى في نفوسهم (٣) . ومن أجل هذا قيل إن الرؤيا قد تكون جزءا من ستة وعشرين أو ستة وأربعين أو سبعين جزءا من أجزاء النبوة وخصائصها ، وبهذا تختلف باختلاف الأنبياء (٤) .

ولا ينسحب هذا الحكم على كل رؤيا صادقة ، فأنها قد تقع للكافر والفاسق من المؤمنين ، كما أن رؤيا الجنب والسكير والغافل قد تصدق أحيانا (٥) ، فلا تكون جزءا من النبوة (٦) .

والرؤيا بعد هذا شاهد ينهض على قيام النبوة ، لأن الوحي الذي يهبط على الأنبياء في يقظتهم ، شبيه شبها ملحوظا بوحي النيام في الرؤيا ، وإن تفاوتا في

---

(١) ابن عربي في الفتوحات ص ٧٦ والشعراني في الجواهر والدرر ص ١٦٩ - ١٧٠ وابن شاهين في الاشارات ص ٣ وابن سيرين في منتخب الكلام ص ٢ والسالمي في الاشارة ص ٣ والتهانوي في المقدمة ص ٤٤ والفداوسي في تحفة الناظر ص ٢ . . . وكثير غيرها من مصادر

(٢) الشعراني في الجواهر والدرر ص ١٦٩ - ١٧٠ واليواقيت ج ٢ ص ٢٢

(٣) ابن خلدون في المقدمة ص ٨٩

(٤) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ج ٥ ص ٢٠ وانظر المسعودي ج ٢ ص ٨٧

(٥) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٤

(٦) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ج ٥ ص ٢٠

الرتبة والدرجة (١) . ولولم يألف الناس هذه الرؤيا ، وادعى مدع القدرة على العلم بالغيب عند ركود حواسه ، لأنكره أهل العقل ، كما ينكر المرء أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة ، إذا وضع في بلد أكله حتى أتى عليه ، ثم أكل نفسه حتى لا يبقى شيئا ، فإن قيل له إنه النار التي تعرفها ، سلم وآمن (٢) . وهكذا يؤدي وقوع الرؤيا لعامة الناس وخاصتهم ، إلى تسليم أهل العقل بالنبوة ، التي لا تتوافر إلا لقلائل من صفوة المؤمنين ، فهي نموذج للنبوة ، ومع المرء علوم من جنسها كالطب والنجوم (٣) .

وإذا جاز أن يوحى للإنسان في حال نومه ، فلماذا لا يجوز له ذلك إبان يقظته ، مع أن النفس قد تكون أكمل في اليقظة منها في المنام (٤) ، ولا يغير من هذا رأي الصوفية في اعتبار النوم المعهود ، يقظة النفس الصحيحة ، وتهيؤها للمعرفة الحقة (٥) ، فأن النبي يكشف الغيب في يقظته ومنامه على السواء ، ويقع هذا دواما من غير انقطاع ، أما غيره من الناس فيعرض لهم ذلك أحيانا ، وفي حال النوم وحدها (٦) .

موقف الفلاسفة من هذه العلاقة

وهذه النتيجة التي انتهى اليها مفكرو الإسلام ، قد فلسفها فلاسفته ، حين اندفعوا وراء الفارابي ، يقررون قدرة النيام على الاتصال بالعقل الفعال ، متى قويت المخيلة عندهم ، فأن أفرطت المخيلة في قوتها ، تيسر لهم هذا الاتصال إبان اليقظة ، وكان التنبؤ ، ويقع هذا للأنبياء والواصلين من الأولياء (٧) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩ (٢) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ١٥٧

(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ١٣٩ — ١٤

(٤) ابن تيمية : تفسير المعوذتين ص ٢٠٢ (٥) انظر الفصل التالي في هذا الكتاب

(٦) ابن مسكويه : الفوز الأصغر ص ١١١

(٧) الفارابي : المدينة الفاضلة ص ٥٢ وابن سينا في الاشارات ص ٢٠٩ — ٢١١

وإذا صح ما روته كتب الأحاديث، من اعتبار الرؤيا وحيا للأنبياء، أو بدءاً لوحى الرسل، أو جزءاً من النبوة، وإذا صدق إرجاع التفكير فى هذا إلى عصر الرسول — كما جاء فى حديث عائشة عن بدء الوحى — كان من الحق ألا نسلم للدكتور مدكور برأيه الذى يقول فيه: إن فى اعتبار الغزالى للرؤيا نموذجا للنبوة «آثارا فارابية واضحة»(١) لأن الجزء الفارابى الخالص فى موضوع الرؤيا الصادقة، إنما هو اتصال المخيلة القوية بالعقل الفعال إبان النوم، أما ما سوى هذا الجزء، فقد عرفه المسلمون قبل الفارابى بزمان طويل، وليس من الحق كذلك ما يقوله الدكتور، من أن الغزالى لم يعترض على النظرية فى «التهافت» بقوة، وأنه اعتنقها فى «المنقذ» بعد ذلك، فان تعبيره عن رفضها إن كان لينا فى التهافت، ففى رفضه لها فى «روضة الطالبين» ما قد يزيل هذا الشك، إذ يقول: «فليس معنى الوصال اتصال الذات بالذات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا(٢). ولعل الأرجح أن يقال إن الفارابى نفسه — والفلاسفة من ورائه — هم الذين تأثروا فى اعتبار الرؤيا نموذجا للنبوة، بما قيل فى هذا الصدد، من أحاديث ترجع إلى عهد الرسول..! وإن كان من المسلم به بعد هذا، أن منهج الفلاسفة — على عكس منهج المتكلمين — يقضى بأن يسبق البرهان الرأى الذى يعتنقونه، فالمتكلم محام يعتقد صحة قضيته، ويتولى الدفاع عنها بالمنطق، والفيلسوف قاض لا يكوّن فى القضية رأيا حتى يعرف حقيقتها (٣).

حسبنا هذا فى بيان العلاقة بين الرؤيا والنبوة، ولنتحدث عن اتصالها بالولاية.

صلة الرؤيا بالولاية:

المعروف أن الولاية تتوسط النبوة والرؤيا، فى طور القلب وراء العقل —

---

(١) الدكتور إبراهيم مدكور: العدد ١٨٣ من الرسالة.
(٢) الغزالى: روضة الطالبين ص ١٤٩
(٣) أحمد بك أمين: ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٨

فيما يرى المعتدلون من أمثال الغزالى وابن خلدون ، وأنها ترتفع إلى مرتبة النبوه ، بل تعتبر أعلى من النبوة كيا وأسمى جوهراً ، عند المتطرفين من أمثال ابن عربى والشعرانى (١) — فيما يقول خصومها —

أما الرؤيا فأن أهل التصوف يتفاوتون فى تقديرها ، حتى يضعوها دون الولاية حينا ، وفى مرتبتها أحيانا ، فهى عند بعضهم نوع من الكرامات التى تقع للأولياء (٢) والنفس التى تقوى على إدراكها ، متى عظمت وترقت فى مجال الروحانيات ، أضحى صاحبها وليا ، وهكذا يدرك فى اليقظة — متى قوى الأمر عنده — مايدركه النائم فى نومه ، ولئن كان هذا نادرا ، إلا أنه يقع لأهل الطريق (٣) ، ولا يشمل الناس جميعا ، فأنهم يعجزون عن احتمال ملك الألهام ، الذى يهبط على الأولياء أيقاظا ، فيهبط على سائر البشر نياما (٤) ، وإن جرت العادة — فيما يرى البعض — أن يسمى وحى الألهام رؤيا إن وقع أثناء النوم ، وتخيلا إن جاء إبان اليقظة (٥) .

بل لقد ارتفعت إلى مرتبة الولاية ، وبهذا تصبح وحيا لهم كما كانت وحيا للأنبياء (٦) ، وهى كالولاية نبوة من غير تشريع ، وكما أن وحى النبوة يحمله جبريل ، ووحى الولاية يحمله ملك الألهام ، فأن لله ملكا موكلا بالرؤيا هو « صديقون » ، الذى يكشف لكل شىء مثلا معلوما ، بحسب ما علمه الله من

---

(١) عالجنا هذا بالتفصيل فى فصل « إدراك الغيب عند أهل الكشف » فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام » .

(٢) القشيرى فى رسالته ص ١٧٥

(٣) ابن عربى فى الفتوحات المكية صفحة ٤٩٣

(٤) الشعرانى فى الطائف والمنن ج ١ صفحة ٢٢٦

(٥) ابن عربى فى الفتوحات المكية ج ٢ صفحة ٤٩٤ وانظر فى غموض معنى الخيال عند ابن عربى : كتاب الدكتور أبى العلا عفيفى عن فلسفة ابن عربى الصوفية صفحة ١٢٩ وما بعدها (بالانجليزية) .

(٦) الشعرانى فى اليواقيت والجواهر ج ٢ صفحة ٧٤

نسخة أم الكتاب ، وألهمه من ضرب أمثال الحكمة (١) ، أو هو « الروح » وهو دون السماء الدنيا ، وبيده صور الأجسام ومايقع من الأكوان ، فأن كان المرء صاحب غيبة أو فناء أو قوة إدراك ، بحيث لاتحجبه المحسوسات في يقظته عن إدراك ما بيد هذا الملك من الصور ، أدرك بقوته في يقظته ، ما يدركه النائم في نومه (٢) .

وقد اتخذت الرؤيا دليلا ينهض على قيام الولاية ، كما كانت حجة تقطع بصحة النبوة ، فهي الدليل البيّن على إمكان اكتساب العلم ، من غير طرقه المألوفة من معلم أو كتاب أو تجربة ، وما جاز في النوم وجب التسليم بجوازه في اليقظة ، فليس النوم إلا حالة تركد فيها الحواس ، وتتعطل عن أداء وظيفتها ، وكم من مستيقظ لا يسمع ولا يبصر من فرط اشتغاله بنفسه (٣) ، فينتهي إلى رتبة لا يمنعه فيها اشتغال الحواس بالدنيا ، عن إدراك المكاشفة التي تقع إبان النوم (٤) .

حسبنا هذا عن علاقة الرؤيا بالولاية ، ولعل ما أسلفناه في هذا الفصل كله ، قد أبان عن مكان الرؤيا في مجال الإدراك الغيبي ، ومنه نعرف مكانها في نفوس المسلمين ، فلنوضح هذا عند رجال الشرع :

مدى تقدير الرؤيا عند رجال الشرع :

كان طبيعيا بعد الذي أسلفناه عن الرؤيا ، أن يحيطها بعض رجال الشرع بهالة من القداسة ، فمن آمن بها فقد آمن بالله واليوم الآخر ، ومن كفر بها

---

(١) النابلسي في تعطير الأنام ج ١ صفحة ٤ — ٥ وابن غنام في تعبير الرؤيا ص ٤ وفيها وصفه الساذج .

(٢) ابن عربي : الفتوحات ج ٢ ص ٤٩٦

(٣) الغزالي : الأحياء ج ٣ ص ٢٢

(٤) المصدر السالف ص ٣٥

فقد حقت عليه اللعنة وكان من الخاسرين (١) . وعلها يفضل غيره لأنه ينفع في الدنيا والآخرة معا(٢) ، والأول يؤيده أن جالينوس وهو الطبيب النطاسى البارع ، قد مرض وعجز بطبه عن علاج نفسه، ولكن الرؤيا تكفلت بأرشاده إلى طريقة العلاج ، وأما نفعه فى الآخرة فيشهد به زجر النائم عما يفسد دينه، وإسداء النصح له بما يهذب عقيدته(٣) ، وإنها لتحول الأمى الجاهل الطائش، إلى عالم متزن يعظ ويبشر ويفسر (٤) .

وحى الرؤيا ومناقشة المسائل العلمية :

وإنها لتصحح أخطاءنا فى شتى نواحى المعرفة البشرية ـ حتى العلوم النظرية التى أبى الفلاسفة ـ على ما عرفنا ـ التسليم بتعلمها فى الرؤيا ـ وإن المعرفة التى تجىء عن طريقها ، لترتفع عن كل شك وجدل ، حتى لتتلاشى أمامها أدلة العلم وشواهد التاريخ ، وما أروع القصة التى يرويها رحالة أجنبى ، سمعها عن الشيخ المهدى ـ مفتى عصره ـ وخلاصتها أن الشيخ الأمير الكبير ، قد أنكر فى أحد دروسه القول الشائع ، عن وجود رأس الحسين بمشهده بالقاهرة ، فلما سمع هذا القول الشيخ « البهى » ـ وهو أحد كبار الأولياء عند العامة ـ ضاق به وغضب له ، ولكنه كظم غيظه ، مخافة أن يغضب هذا العالم الكبير ، فلما نام استجاب الله لطلبه ، وأراه الرسول الذى كشف عن خطأ الشيخ ، وأعلن بأنه مغفور له فى خطأه لأنه ناقل ، وسرعان ما يذهب الشيخ الكبير مع الولىّ العظيم فى الصباح الباكر إلى المشهد ، ليستغفر الشيخ معلنا إيمانه بوجود الرأس فى المشهد ، واعتقاده ببطلان ما زعم المؤرخون (٥) . . ! ومن الطريف حقا

---

(١) ابن سيرين فى منتخب الكلام ص ٢ — ٣ وقارن الـــداوسى فى تحفة الناظر ص + ١٢ و ١٢

(٢) أبو عثمان فى البشارة ص + ٦ وابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٨

(٣) الـداوسى : تحفة الناظر ص + ١١

(٤) إخوان الصفا : ج ٤ ص ١٤٩ وما بعدها .

5) E. W. Lane, The Manners &Customs of the Modern Egyptians P. 219-221. وعلى القصة فى الأصل مسحة دينية رائعة محاها تلخيصنا فليرجع إليها من شاء

أن الشعرانى قد روى عن صديق له ـ قبل ذلك بعدة قرون ـ أنه رأى ما يمكن اعتباره خلاصة لهذه الرؤيا فى منام له . . ! (١) . ومثل هذا يقال فى الفصل فى مشكلة خلق القرآن أو غيرها من مشاكل العلم (٢) .

وهكذا يتلاشى العلم وينكمش التاريخ ـ أمام الرؤيا الصادقة ـ عند كبار العلماء والأولياء من أئمة الدين ـ أليست الوقائع التى تتراءى فى النوم ، جنوداً لله يرسلها للمؤمنين من عبـــاده وحياً لهم . . ! (٣) ، فوق أنها نموذج للنبوة والولاية . ! إن الصحابة والتابعين قد التزموا العمل بما رأوه فى منامهم من شتى الاعتبارات ، كما هو مشهور فى كتب الأحاديث (٤) . وقد اتخذها أهل الطريق أداة لتوكيد تعاليمهم ، بما يبديه إليهم أطياف الموتى خـــلالها ، وفى القشيرى والغزالى والشعرانى ومن إليهم فيض من الشواهد (٥) ، وإذا قيل إن هذا لا يقع إلا لكمل الأولياء (٦) ، وأن إبليس قد يظهر فى الأحلام فى صورة واحد من الصحابة أو الأئمة (٧) ، وجب أن نذكر ـ بصدد رؤيا المشهد الحسينى ـ أن رؤيا الرسول حق ، كما ورد فى الحديث النبوى ، على أن البعض وإن سلموا بصحة هــذا الحديث ، فأنهم يقولون إن الحديث المسموع عنه فى المنام ، ليس حجة يستدل بها ، إذ يشترط فى الاستدلال به ، أن يكون الراوى ضابطا لنفسه عند السماع ، وليس النوم بحـال ضبط (٨) ، ومن الواضح أن هذا أقرب إلى العقل من الرأى الذى أسلفناه .

---

(١) الشعرانى : الطائف والمنن ج ١ صفحة ٢٢٧ (وقد مات عام ١٥٦٥ م)

(٢) ابن شاهين : الاشارات صفحة ٣٦٣ (٣) الشعرانى فى المصدر السالف صفحة ٢٢٦

(٤) المصدر السالف صفحة ٢٢٧

(٥) القشيرى فى رسالته صفحة ١٧٧ وما بعدها والغزالى فى الاحياء ج ٤ صفحة ٤٣٠ — ٤٣٤ والشعرانى فى الطائف ج ١ صفحة ٩٨ — ٩٩ ، ٢٢٥ — ٢٢٦ وغيرها

(٦) الشعرانى فى المصدر السالف صفحة ٩٨ ، ١٠٠

(٧) ابن تيمية : الفرقان صفحة ٧٠ وما بعدها

(٨) التهانوى فى كشاف الاصطلاحات ج ١ صفحة ٥٩٩

ومن مظاهر التقدير الملحوظ فى موقف رجال الشرع من الرؤيا ، تلك الآداب التى وضعوها لا لتزامها عند النوم ، وعند قص الرؤيا وعند الشروع فى تأويلها ، ولنعرض الآن نماذج من الصنفين الأولين ، اللذين يؤدى التزامهما فيما يزعم أصحابهما ، إلى التمهيد لوقوع الرؤيا الصادقة ، واتقاء صاحبها شر نقمتها ، وتمكينه من الانتفاع بنعمتها ، وهى آداب تكشف عن تفكير واضعيها ، وعقلية الذين كتبت لهم وشاعت بينهم ، وسذاجتها لا تمنعنا من تسجيلها ، تاريخا لها ، وانتفاعا بدلالتها .

آداب النوم عند رجال الشرع :

ينبغى أن ينام المرء على طهارة (١) ، ويستحب الوضوء معها . ذلك أن النوم على حدث يمنع النفس من الطواف حول العرش (٢) ، ويعوق اتصالها بالحضرة الألهيـة ، لأن الروح تفارق الجسم إبان النوم ، ولا يؤذن لها فى السجود بين يدى الله وهى على حدث ، وبذلك تفوتها العبادة الروحية المجردة عن الجسد (٣) ، وقد قال دانيال إن الأرواح يعرج بها إلى السماء السابعة ، حتى تقف بين يدى الله ، ثم يؤذن لها فى السجود ، فيسجد الطاهر تحت العرش ويبشر فى منامه ، ويسجد غير الطاهر بعيدا (٤) ، وإن كانت الرؤيا الصادقة قد تقع مع هـذا للكافرين والفساق من المؤمنين ، كما تصدق رؤيا الجنب والسكير والغافل أحيانا (٥) ، ولكن من حسن الآداب أن يحسن المرء استقبال الوحى والإلهام ، فلا ينام إلا على نقاء قلب وصفاء سريرة ، بحيث

---

(١) ابن غنام فى تعبير الرؤيا صفحة + ٤ وعلى البيومى فى خواص الفاتحة صفحة ١٥ وابن سيرين فى الاشارات صفحة ٦ والقشيرى والسهروردى فى عوارف المعارف صفحة ٢٥٤ و ٢٥٥ وفى غير هذه من مصادر

(٢) القشيرى فى رسالته صفحة ١٧٦

(٣) الشعرانى فى العهود المحمدية صفحة ١١٤ ومابعدها

(٤) ابن غنام فى تعبير الرؤيا صفحة + ٣و٤

(٥) ابن سيرين فى منتخب الكلام صفحة ٢ — ٣

لا تساوره الوساوس ولا تشغله الأفكار ، ولا تقلقه الهموم ، ولا يكظ بطنه ويملأ شعابها ، ولا ينام على جوع أو ظمأ ، أو على طعام خبيث من بصل أو نحود ، وإلا وقعت له أضغاث أحلام (١) . وعليه أن يحتفظ بنظافته وتقليم أظافره ونحو ذلك ، وإلا امتنع وقوع الرؤيا الصادقه (٢) .

وقد كان الأنبياء يتخيرون النوم على ظهورهم دون جنوبهم(٣) ، وقد أيد هذا أبو ذرو ، وإن كان من الممكن أن ينام المرء على جنبه الأيمن (٤) ، فأن النبي كان يحب التيامن فى كل شيء (٥) ، وعن ابن سيرين أن من نام على جنبه الأيمن كانت رؤياه من الله ، فان نام على بطنه كانت أضغاث أحلام(٦) ، وقد كانت السيدة عائشة إذا أوت إلى مضجعها قالت : « اللهم إنى أسألك رؤيا صالحة صادقة غير كاذبة ، نافعة غير ضارة ، حافظة غير منسية » وفى بعض الأخبار أن من سنة المقبل على النوم أن يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الاحتلام وسوء الأحلام ، وأن يتلاعب بى الشيطان فى اليقظه والمنام (٧) » ، وأن يستقبل القبلة ويقرأ « والشمس وضحاها » ثم « والتين والزيتون » فأنه لا يرى إلا مايحب(٨) . وقيل إن قراءة سورة الكهف تخفف النوم . . ! (٩)

---

(١) ابن سيرين فى الاشارات ص ٦ — وبنص هذا فى السالمى فى الاشارة ص ٤

(٢) ابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٨ وأبو عثمان فى البشارة ص = ٦ ، وابن غنام ص = ٤

(٣) الشعرانى فى اليواقيت والجواهر ج ٢ ص ٢٧

(٤) أبو عثمان فى البشارة ص + ٦ ، ٧ وابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٨

(٥) أبو عثمان فى البشارة ص + ٦ ، ٦

(٦) السالمى فى الاشارة ص ٣

(٧) ابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٨ وأبو عثمان فى البشارة ص ١٦ (ينقل الثانى عن الاول ، وص ١٤ فى هذا تقابل فى المصدر الثانى ص ٢ على التوالى) .

(٨) ابن غنام فى تعبير الرؤيا ص + ٤

(٩) الشعرانى فى العهود المحمدية ص ١١٨ — ١١٩

حسبنا هذا من آداب النوم عند رجال الشرع ، فانهما كلها تجرى على هذا النسق ، ولنعرض نماذج من آداب قاص الرؤيا ، لأنها تدل بدورها على مكانة الرؤيا عند المسلمين .

آداب قص الرؤيا عندهم :

ينبغي أن يتخير صاحب الرؤيا المعبر الذى يكل إليه تعبير رؤياه ، فلا يقص رؤيا ه إلا على عالم أو ناصح له (١) ، بحيث لا يكون صبيا ولا أمرأة ، ولا حاسدا ولا جاهلا (٢) ، وأن يتحرى الصدق فى روايتها ، فلا يدخل فيها ما ليس منها فيفسدها ، ويغش نفسه ويضحى عند الله من الآثمين ، وفى الحديث أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، وقد نهى الله عن الكذب فيها ، لأنها من وحى الله . ولهذا كان حساب الكاذب فى روايتها فى جهنم عسيرا ، وفى الأحاديث النبويه ما يشهد بذلك (٣) وذلك فوق أن من اعتاد الكذب فى يقظته ، لزمه الكذب فى منامه (٤) . وإن قيل مع ضرورة تحرى الصدق واتقاء الكذب والنميمة والغيبة ، أن صاحب الرؤيا إن كان كذابا ولكنه يبغض الكذب من غيره ، صدقت رؤياه ... ! (٥) . وهكذا تصدق الرؤيا متى كان صاحبها صدوقا أو كذوبا ولكنه يحب الصدق ويكره الكذب من غيره .. فأن كان كذوبا محبا للكذب من غيره بطلت رؤياه (٦) . والحلم إنما يقع على ما عبر

---

(١) ابن غنام فى تعبير الرؤيا ص +٨

(٢) ابن سيرين فى منتخب الكلام ص ٢١٩ ، النابلسى ج ٢ ص ٣٥٢ وابن غنام ص + ٨

(٣) السالمى فى الاشارة ص + ٤٤ وابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١١ وورد الحديث فى التهانوى ص ٦٠٠ وفى غير هذا من مصادر .

(٤) ابن سيرين فى منتخب الكلام ص ٣

(٥) النابلسى فى تعطير الانام ج ١ ص ٦

(٦) النابلسى فى تعطير الانام ج ٢ ص ٣٥٢

إن كذب صاحبه فى روايته تحققت رؤياه كما يعبرها له المعبر ، إذ أن المعبر يصور رواية صاحبها فى ذاته ، فتتحول بهذا من حديث نفس أو وحى شيطان أو افتراء ، إلى حقيقة فى ذاته ، فاذا أصدر حكما ، أصدره على صورة مرسومة فى ذاته ، وبذلك تصدق الرؤيا وتتحقق على ما عبرت ، ويؤيد هذا ما وقع فى قصة يوسف مع الرجلين الذين كذبا ، وافتريا حلما لم يقع لهما ، فان يوسف قد صور حديثهما فى نفسه ، فأضحى حقيقة ، ووقع الحلم كما عبر بحذافيره . ! (١)

وإذا رأى المرء فى منامه ما يضره ، وجب أن يقول : « أستغفر الله من شر رؤياى هذه ، أن تضرنى فى دنياى وآخرتى » ، ثم يتفل عن يساره ثلاث مرات (٢) . وقيل إن السنة تقضى فى هذه الحال ، بأن يتحول النائم إلى جنبه الآخر ، ويتفل عن يساره ثلاثا ، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويقوم فيصلى ولا يحدث أحداً برؤياه ، وعن النبى أن النائم يقول فى مثل هذه الحال ، اللهم إنى أسألك خير هذه الرؤيا ، وأعوذ بك من شرها (٣). ولا يقصها على أحد ، لأن فى الحديث أن الرؤيا على رجل طائر ما لم يحدث بها ، فأذا حدث بها وقعت (٤) ، وقيل إنها لاتقع إلا متى كان المعبر ممتازاً ، وإلا لكانت رؤيا عزيز مصر باطلة ، لأن المعبرين قبل يوسف قالوا إنها أضغاث أحلام (٥) .

على أن هذه الموجة من التقدير ، وإن شملت رجال الشرع والصوفية والفلاسفة ، مع تفاوت فى القوة والضعف ، فأنها لم تمنع من وجود منكرين للرؤيا ووحيها . أما السذاجة التى أسلفنا تسجيل نماذج منها ، فنعرض لها بعد حين .

---

(١) ابن عربى فى الفتوحات المكية ج ٢ ص ٤٩٦

(٢) ابن غنام فى تعبير الرؤيا ص ١٠٨ وابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٩

(٣) ابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٩ أبو عثمان فى البشارة ص ١٠٧

(٤) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٩ وابن عربى فى الفتوحات ص ٤٩٧

(٥) ابن شاهين : الاشارات ص ٥

إنكار الرؤيا الصادقة (عند الملاحدة وبعض المؤمنين) :

إن قيام الاعتقاد فى الرؤيا الصادقة ، رهن بالاعتقاد فى صدق الوحى والنبوة وما إليها بسبيل ، فإن كانت موضع إنكار عند إنسان ، كان من المؤكد أن يشمل الإنكار الرؤيا ووحيها ، وإن كان هذا الاعتقاد لا يساير اعتبار الرؤيا شاهداً على وجود النبوة والولاية ، فقد تزول هذه ويبقى الشاهد قائما ، إلا أننا نربط إنكار الرؤيا بإنكار النبوة ، مستندين إلى أنهما يصدران ـ فى رأيهم ـ عن وحى إلهى واحد.

والمعروف أن المسلمين لم يترددوا فى التسليم بالوحى والإلهام إبان الصدر الأول من الإسلام ، ولكن اختلاطهم بالعناصر الأجنبية قد أثار الشك فى نفوسهم ، ومكّن أعداءهم من الطعن فى دينهم ، والتأثير فى عقائد بعضهم ، وكان من أثر هذا ظهور حملة على الإسلام شملت النبوة والوحى ، وتجلت هذه الحملة فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد عند الراوندى وزكريا الرازى . والمعقول أن يؤدى إنكار الوحى الذى يهبط على الأنبياء والرسل أيقاظا ، إلى إنكاره عند النيام ، لأننا عرفنا أنه وإن اختلفت فى الحالين درجته ، فهو واحد من حيث طبيعته .

إنكار الرؤيا عند جمهور المتكلمين :

بل من مفكرى الإسلام من أنكر الرؤيا الصادقة ، مع تسليمه بالنبوة والوحى ، فجمهور المتكلمين ـ وهم أصحاب نزعة عقلية ملحوظة ، قد أبلوا فى الدفاع عن الدين بالمنطق بلاء حسنا ـ قد اعتبروا الرؤيا خيالا باطلا ، وعلل بعض « المعتزلة » هذا الرأى بفقد شرط الإدراك ، وقيل لأن عادة الله تعالى لم تجر بخلق الإدراك فى النائم (١) ، إذ النوم ضد الإدراك ، والضدان لا يجتمعان!

(١) الأيجى : جواهر الكلام ص ١٧٣ فى طبعة الدكتور عتيق .

وإن ذهب بعض المعتزلة الآخرين إلى أن الرؤيا إما أن تكون من الله ، أو من الإنسان ، أو من أحاديث النفس (١) ، وذهب الزمخشرى (وهو معتزلى) إلى القول بأن الرؤيا : إما حديث نفس أو ملك أو شيطان(٢) ، إلا أن هذا لاينفى أن نقرر بأن بعضهم قد اعتبرها خيالا باطلا ، على نحو ما أشرنا الآن . ولعل هذا الموقف من مظاهر حرية التفكير عند المعتزلة (٣) فان رأيهم — فيما يذهب سواد المفكرين — يخالف المذهب الذى يوافق القرآن والحديث فيما تصور الناس — وقد قيل إن حكم المتكلمين ينصب على أكثر الأحلام ، فان أغلبها أضغاث ، أو يتناول رؤيا من لايعتاد الصدق ، فأن فى الحديث: أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا (٤). وهذا تفسير لانجد أمامنا دليلا يشهد بصحته ، ولعله مجرد تخمين ، أدى إليه النزوع العام نحو التسليم بوحى الرؤيا الصادقة ، فإن كلام هؤلاء المنكرين صريح لالبس فيه أبدا ، فالنظام ومن رأى رأيه ، كانوا يقولون فيما يحكى عنه زرقان ، إن الرؤيا خواطر ، وتتمثل ببال النائم كالمرئيات عند اليقظان ، وكان «معمر» يقصرها على فعل الطبائع ، ويصرح بأنها لاتكون من قبل الله ، ويردد البعض رأى السوفسطائية ، فى أن سبيل ما يراه النائم فى نومه . كسبيل مايراه اليقظان فى يقظته ، وكل ذلك على الخيلولة والحسبان (٥) .

إنكار الرؤيا عند عامة الناس :

بل يلوح لنا أن إنكار الرؤيا الصادقة ، وعدم الاعتقاد فى اتصالها بالوحى

---

(١) الاشعرى : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ٤٣٣

(٢) الزمخشرى : الكشاف ج ١ ص ٦٤١

(٣) المعروف أن المعتزلة أحرار فكر ودعاة أخذ بالمنطق كما يصورهم الاستاذ أحمد بك أمين فى ضحى الاسلام ، ولكن «ماكس مايرهوف» يقول انهم لم يستخدموا المنطق إلا للدفاع عن الدين ، وأن أساتذة المنطق الحقيقيين كانوا يستخفون بهم ، وقد كان «جولد-تسيهر» يرى أنهم ليسوا جديرين بلقب أحرار الفكر .

(٤) التهانوى : كشاف الاصطلاحات ج ١ ص ٦٠٠

(٥) الاشعرى فى المصدر السابق .

الألهى ، لم يقتصر على نفر من أهل الفكر ، وإنما كان شائعا بين الناس ، بمقدار شيوع الاعتقاد فى صدق الرؤيا ، فأنا نلاحظ فى مصنفات بعض رجال الشرع عنها ، لجاجة فى تقديرها ، وإلحاحا فى ربطها بالدين وتكفير منكريها ، والأسراف فى إسداء النصح للقراء بالأيمان بها . وهذا نفسه ربما دل على وجود موجة من الشك ، فى أمر الرؤيا الصادقة بين الناس ، ولو شاع الأيمان بها ، واطمأن الناس إلى ما يعزوه إليها دعاتها ، مامست الحاجه إلى هذه اللجاجة ، وإن كان فى الأمكان أن يقال إن لجاجه المصنفين فى تقديرها ، ليست إلا دعاية لمصنفاتهم ، وترويجا لها بين القراء ، فأننا لا نذكر أنا عثرنا على مناقشة جادة لآراء منكريها ، وما نظن أن أشياعها قد أحرقوا ما كتب فى إنكارها ، إذ لو صح هذا لبقيت لنا منه آثار ، أو وصلت إلينا عنه أخبار ، كما هو الحال فى منكرى النبوة ونحوها ، وإن كان القارىء لا يعدم فى مؤلفات أهلها ، إشارات مقتضبة إلى آراء منكريها ، ومحاولة دحضها ، كالذى أسلفناه فى إنكارها ، أو قول بعضهم . إذا رأى الأنسان فى منامه كأن رأسه مباين لبدنه ، أفترى بأى عين يبصر رأسه . . ؟ ، فيقول معتنقوها إن النفس جوهر لا ينالها الحديد . لو قطع الجسم إربا إربا ، ومثل هذه الرؤيا شاهد على وجود النفس وشرف جوهرها ، متى رأت النفس الجسم مشوه الأعضاء ناقص البنية معوج الصورة وهى سليمة لم يمسسها السوء (١) ـ على أن هذه وأمثالها إشارات مقتضبة لا تغنى ولا تجدى فتيلا .

ومن هذا نرى أن إحاطة الرؤيا بقداسة دينية ، واعتبارها نموذجا للنبوة والولاية ، لم يمنع عنها طعن الطاعنين من الملاحدة والمؤمنين ، ومن العامة والعقليين : Rationalists على السواء .

---

(١) إخوان الصفاء : ٤ ص ١٥٩

حسبنا الآن هذا فى بيان مكانها فى مجال الأدراك الغيبى ، ومنزلتها من نفوس الناس ، ولنحاول أن نتتبع الآراء التى أسلفناها إلى منابعها التى صدرت عنها :

منابع التفكير الأسلامى فى الرؤيا :

يعنينا مما أسلفناه ، تصور الرؤيا فى مختلف اتجاهاته ، واتفاقها مع النبوة والولاية فى النوع ، وإن اختلفت فى الدرجة ، وصدورها عن الله جميعا ، وقيام الأنكار عليها رغم شيوع الأيمان بها . ولنجر على طريقتنا ، فى محاولة الكشف عن منابعها فى القرآن والحديث أولا ، ثم فى تراث اليونان والشرق القديم مما اتصلت بالمسلمين ثقافاته .

موقف الدين الأسلامى من الرؤيا الصادقة

خلو القرآن من نص يؤيد الوحى فى الرؤيا :

فى التفكير السالف مسحة دينية إسلامية لا تخفى ، ولكن مثل هذه المسحة ، قد تعلو الرأى الدخيل أحيانا ، ولكنا نلحظ فى الآراء السالفة ، عناصر لا يمكن ردها لغير الأسلام فيما يلوح ، فلنحاول تحديد هذا على قدر الاستطاعة :

إن معرفة منبع تصورهم للرؤيا فى مختلف صوره ، يقتضى البحث فى موقف القرآن منها ، وقد قال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بأذنه مايشاء . . »(١) ، فجمعت هذه الآية أصناف الوحى الألهى الثلاثة ، وأريد بالوحى فيها إلقاء المعنى فى القلب ، وليس فيها مايشير إلى أن هذا الألقاء أو النفث فى الروع يكون فى يقظة أو فى منام ، ولكن بعضهم قد فسر الوحى بالرؤيا ، وشبهه بما وقع لأبراهيم عليه السلام ، فى ذبح ولده فى المنام ، ولم يقصروا وقوع هذا الوحى على الأنبياء وحدهم ، مستندين

---

(١) سورة الشورى : آية ٥١

فى هذا إلى قوله تعالى : الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . . . ، إذ فسر الفخر الرازى البشرى بأنها الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم أوترى له ، وهذا الاتجاه فى تفسير الآيتين ، قد سرى كالبرق بين المسلمين حتى استقر فى أذهانهم ، أن القرآن يعتبر الرؤيا وحيا من الله ، وأنه يقع للأنبياء ومن إليهم من صفوة المؤمنين . وتضمنت الأحاديث الكثير مما يؤيد هذا الاتجاه ، فلم يكن لمسلم بعد هذا أن يستخف بها ، ولكن اختلاطها بالنبوة ، قد أدى بأهلها إلى سلب التشريع عنها ، ووضعها بعد الولاية التى تكون لصفوة من تقع لهم هذه الرؤيا ، وأما تفكير الطاعنين فيها ، فأسراف لا مبرر له ، فأن (المسلم لا يكفر إلا إن أنكر شيئا متواترا ، كالقرآن ونحوه ، مما علم من الدين بالضرورة) (١) .

وهكذا يبدو الاتساق فى منطق المفكرين بصدد الرؤيا ، وربطها بالنبوة والولاية ، وتكفى الأصول كما وردت فى تفسير القرآن ، فى تسلسل التفكير على النحو الذى عرضناه ، أما إنكارها فقد صدر عن مؤمنين لا يسلمون بالتفسير السالف ، أوملاحدة ينكرون الوحى بحذافيره ، أو صدر عمن ضاقوا بادعاء الحظوة بالوحى الألهى .

ولكن أكبر الظن أن القرآن لو خلا مما يحتمل أن يشير إلى إقرار الرؤيا باعتبارها وحيا إلهيا ، لانتهى المسلمون إلى ذلك بوحى من طبيعتهم ، لأن أضافة الصفة الألهية للرؤيا ، يساير فطرة البشر ، ولا يعوق التسليم بها إلا الجدل العقلى الذى لا يتمشى فى كثير من الحالات مع الطبيعة فى كل أهوائها ، وقد عرفت هذه الصفة شعوب لا تدين بالأسلام ولا بغيره من الديانات المنزلة

---

(١) هذا تعليق لفضيلة الاستاذ محمد شاكر القاضى بالمحاكم الشرعية

بل اهتدت إليها قبل أن تعرف هذه الديانات ، حتى قال المؤرخون : إن الكشف الألهى فى الأحلام، عقيدة كل شعب بل كل فرد فى الماضى السحيق، وإن من العبث أن تتساءل من أين وصل الاعتقاد فى الأحلام إلى اليونان - مثلا ، فالأحلام قديمة قدم العالم ، وليس لها بداية يمكن للتاريخ أن يسجلها (١) وسنعرض بعد قليل بعض ما وجد من هذا فى تراث اليونان والشرقيين على السواء .

منابع آداب قص الرؤيا :

ويلوح لنا أن آداب قص الرؤيا ، مرد أكثرها إلى الدين وتقاليده ، فتحذير صاحب الرؤيا من قصها على حاسد مثلا ، مرده إلى ما ورد فى القرآن ، من أن يعقوب قال ليوسف (آية ٥) «لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا» وتحريم قصها على المرأة والجاهل والغافل والصبي ، يبرره استخفاف المسلمين بهؤلاء جميعا ، وعدم الوثوق فيهم والاطمئنان إلى آرائهم ، أما تحريم الكذب وتهديد صاحبه بنار جهنم ، فمرجعه إلى الدين لا محالة ، ولا سيما وأن الكاذب فى الرؤيا كاذب على الله ، أليست الرؤيا من وحى الله . ؟ وما دامت الأعمال بالنيات فيما يقول الحديث ، فمن الممكن أن يكون قاص الرؤيا كاذبا ، ولكن رؤياه تصدق متى كان يبغض الكذب من غيره . !! أما عن التخلص من الرؤيا التى تنذر بالشر ، فمرجعه إلى التقاليد فيما يلوح ، وفيها من السذاجة ما لا يجوز إلا على ضعاف العقول ، وإذا كان الله ملجأنا وملاذنا ، فأن الأدنى إلى الصواب أن يقال إن الشر قد قضى به قدر شاءه الله ، وإذا لم يقع شيء إلا متى كان على اتفاق مع القدر ، فليس من الممكن أن تخف وطأة هذا الشر بالطقوس الدينية ، فيما يقول شيشرون فى رده على الرواقيين الذين كانوا

---

1) Bouché-Leclercq, L' Hist. de la Divination vol 1, P. 277-278

يعتقدون - كما اعتقد بعض المسلمين بعد - أن كل شر لا مناص من وقوعه، تخففه وطأته الطقوس الدينية (١). وإذا كان بعض المسلمين قد رأى بأن الرؤيا المحزنة، تنبيء عن شر مقبل، فأن هذا يشهد بجهلهم بتفسير الرموز، وحقيقة الأحوال النفسية فيما يرى المحدثون من علماء النفس، بل إن من هؤلاء العلماء من يقول بأن مثل هذه الرؤيا، تعبير ملتو عن رغبة تحن النفس إلى تحقيقها - فيما يقول «فرويد» ومدرسته - وليس يعنينا صدق نظريتهم أو بطلانها، بقدر ما يعنينا تقرير سذاجة المسلمين فى موقفهم من هذه الرؤيا، والمحدثون يهتمون فعلا باختيار المعبر، الذى يحسن فهم الرؤيا ويجيد تعبيرها فى ضوء القواعد السيكولوجية، ولا يتخذ الاشتغال بالتعبير وسيلة ارتزاق، ثم يحتمون على صاحب الرؤيا أن يكون دقيقا فى روايتها، فلا يضيف إليها ولا يحذف منها شيئا، وسنشرح هذا بعد.

الرؤيا الصادقة فى التراث اليونانى والشرق القديم:

كان الاعتقاد فى الصفة الألهية التى تضاف للرؤيا، عاما شائعا فى المصادر اليونانية، فيما لاحظ مؤرخو الأحلام (٢)، فمرسل الأحلام فى هومير هو «زيوس» Zeus فمن ذلك أنه أرسل حلم «أجا ممنون» (٣)، وكرر هومير القول بأن الحلم من وحى هذا الأله (٤)، وقد انتشر هذا الاعتقاد البدائى فى كل بلاد الأغريق، حتى نراه فى «هزيود» وغيره من القدماء. على أن آخر نظرية مهذبة للأحلام، هى التى تعتبر الرؤيا من وحى الله دون وسيط. وقد شاعت النظرية حتى كان الأله، كثيرا ما يظهر فى أحلام المرضى

---

1) Cicero : Divination ii ch. 10

2) Taylor, Hastings Encyclopeadia of Religion & Ethics, vol v. p. 30

3) Homer : Ibid 11 & Bouché Leclercq vol. 1. p. 281-283.

4) Ibid. 1 p. 63.

ليرشدهم إلى العلاج (١) . وكان القدماء الذين سبقوا أرسطو ، لا يسلمون بأن الحلم ينبت فى عقل الحالم ، ويعتبرونه وحيا إلهيا .

وكان لقدماء المصريين إله للأحلام هو « بس » Bess وقد نقشت صورته على كثير من الوسائد التى يضع المصريون عليها رءوسهم (٢) ـ وكان للبابليين مثل هذا الأله ، هو ـ أو هى ـ الألهة « ماكر » .Makhir ـ (٣) وكذلك يقال فى سائر الشعوب القديمة . فالأدنى إلى الصواب بعد هذا ، أن يقال إن اعتبار الرؤيا وحيا إلهيا ، لا يرجع إلى الأسلام ، ولا إلى اتصال أهله بغيرهم من الشعوب ، وإنما مرجعه إلى ميل فطرى فى الأنسان إلى اكتشاف المجهول ، فأن عجز عن هذا لجأ إلى قوة عليا تكبره قدرة ونفوذا ، وآمن بقدرتها على ذلك ، ومنحها هذه الهبة لبعض الناس ، وفى روح الدين الأسلامى ما يساير هذه الطبيعة .

أما عن التوحيد بين وحى النبوة والرؤيا فى الطبيعة ، فأن له نظيراً عند الرواقية ، وأرطميدورس وغيرهم من القدماء ، فالرواقية لم يفرقوا فى تفسيرهم العقلى للتنبؤ الطبيعى ، بين وقوعه إبان اليقظة وحدوثه أثناء النوم ، وقالوا « إن الوحى الذى يقع للرائين أيقاظا ، يقع لنا نياما » (٤) فلم يفرقوا بين النبوة والرؤيا ، لا فى النوع ولا فى الدرجة ، ويبرر اختلافهم مع المسلمين فى التوحيد بينهما فى الدرجة ، أنهم ليسوا أهل كتاب مقدس ، يفرق بين الأنبياء والأولياء ونحوهم ، فكان الكهان والعرافون والزاجرون والعيافون عندهم سواء ، ليس منهم من امتاز برسالة أو نحوها ـ وينبغى أن نفهم الوحى عندهم ، فى حدود اعتقادهم بوحدة الوجود ، التى كانوا يقررونها فى تعاليمهم .

---

(١) لعل مرد هذا إلى أن المريض عاجز ، يلوذ بطبعه إلى قوة عليا يلتمس الشفاء فى ظلها ، فاذا تحققت رغبته فى منام ، نفذ تعاليمه بنفس ملؤها الايمان ، فيشفى من مرضه

2) George Foucart, Hastings' Encyclopedia of Religion & Ethics vol. V.

3) A. H. Sayce, op. cit. vol. V. P. 33

4) Cicero, Divination 1. 50.

وكذلك فعل « أرطميدورس » الذى نقل المسلمون كتابه إلى العربية ، فلم يفرق بين وحى الرؤيا ، والوحى الذى يهبط على يقظان ، ويحرك لسانه بالكلام Oracle. (١) ، والله عنده كما هو عند الرواقية ، مصدر هذا الوحى ، والآلهة هى التى تهبه لبعض الناس ، وبذلك كان لا يجىء صناعة ولا اكتسابا ، وإن وجب أن يتهيأ لاستقباله النائم - فيما قرر الفيثاغوريون وأفلاطون وغيرهم ، على نحو ما سنعرف فى الفصل التالى .

وأما تصورهم للرؤيا فى مختلف اتجاهاته ، فتسوده مسحة غلبت على غير المسلمين من قبل ، فتصور بعض رجال الشرع لمفارقة النفس للجسم أثناء النوم ، وصعودها إلى الأرواح فوق السماء ، يشبه ما عرف فى هذا الصدد عند بعض الهمج (٢) والهندوس (٣) ، أما التصور الصوفى الفلسفى ، فسنعرف الدخيل فى عناصره ، عند الحديث عن تعليل الرؤيا ومنابعه فى التراث القديم .

فوجوه التشابه وحدها ، مع التسليم باتصال الثقافات ، لا يكفى فى القول بتأثر اللاحق بالسابق ، وفى آراء المسلمين فى هذا الفصل ، جانب مرده إلى الطبيعة البشرية وفطرتها ، وجانب مرجعه إلى الدين الأسلامى - مع ملاحظة أن الثانى لا يتنافى مع الأول - فمن أمثال الضرب الأول ، اعتبار الرؤيا وحيا إلهيا - وإن لوّن الأسلام هذا الاعتقاد بالتوحيد - والربط بين النبوة والرؤيا ، ومن أمثال الضرب الثانى تصنيف النبوة والولاية والرؤيا فى مراتب تنازلية . فإذا كان المسلمون بعد هذين النبعين الأصليين ، قد وجدوا فيما انتقل إليهم فى تراث يونانى أو شرقى قديم ، ما يساير روح دينهم ، ويتمشى مع طبيعتم ، فاستعاروه وأضافوه إلى تراثهم ، فأن الفضل الأول فى هذا ، مرجعه

---

1) Artemidori, op. cit. ch. 2.

2) A, Lang. Hastings' op. cit.

3) G. B. Bolling, ibid. P. 38.

إلى الطبيعة والدين أولا . وهذه نتيجة مساغة فى عرف المنطق فيما يلوح ، لأن هذا الفصل دينى فى أصله وجوهره ، وإن لم يمنع هذا كله ، من دخول عناصر غنوصية وأفلاطونية محدثة وفيثاغورية ورواقية ، فى تصور مفكرى الأسلام للرؤيا الصادقة ، كما سنعرف فى الفصل التالى عند الكلام على منابع التفكير الأسلامى .

وما قيل فى منابع التفكير فى الوحى والنبوة ونحوها ، ورده إلى الطبيعة والدين ، قد ينسحب على حظ الرؤيا من تقدير المفكرين . فالراجح أن تكون الأحلام قد أثارت حيرة الناس ودهشتهم منذ الماضى السحيق ، والطبيعى أن تنتهى هذه الحيرة إلى احترام باعثها ، وما نظن المسلمين كانوا بحاجه إلى الاتصال بغيرهم لكى يعرفوا للرؤيا هذه المكانة ، ولو أنهم لم يعتنقوا الأسلام دينا ، لكان الراجح - إن لم يكن من المحقق - أن يحملوا الرؤيا هذا التقدير كله ، وإن كان من المؤكد أن تقديرهم كان يصطبغ بلون يخالف اللون الأسلامى ، الذى رأيناه فى تقديرهم لها ، فأن شعوب الأرض قد أولتها هـذا التقدير منذ الماضى السحيق ، ولم يكن من بينها من يدين بالأسلام ، الذى لم يكن قد نزل بعد .

ولا بأس من أن نعرض للتدليل على هذا ، بعض نماذج من تقدير قدماء اليونان والشرقيين :

مكان الرؤيا عند قدماء اليونان والشرقيين :

كان حكام اسبرطة ينامون فى معبد أقيم فى حقل ، لتتراءى لهم الأحلام وهم نيام ، اعتقاداً منهم بأن الوحى يصدق متى تلقوه وهم نيام مستريحون ، وكان لما ينذر أو يبشر به هذا الوحى ، أثره فى توجيه الحكم فى البلد وتسيير دفته (١) ، وقد تهيأ للرؤيا مثل هذه المكانة عند غير هؤلاء ، حتى بلغ من

1) Cjcero, op. cit. 1, ch. 42

اعتقاد الأثينيين فى صدقها ، أن كانت محكمتهم العليا تأخذ بما تقرر الرؤيا من إدانة المتهمين أو تبرئتهم ، وفى رؤيا سوفوكليز التى عرف فيها سارق الطبق الذهبى ، وفى أمر القضاة بإلقاء القبض على المتهم ، ما يشهد بما نقول (١) ، وكذلك الحال مع أهل روما ، حتى كان مجلس أعيانها يستجيب لما تشير به رؤيا أحد العامة (٢) ، وآمن بها كبار الفلاسفة من أمثال سقراط وأفلاطون والرواقية ، وتغنى بها شعراء اليونان والرومان ، واعتنقها الكثير من مفكريهم ومؤرخيهم ، وسلم بها قدماء الشرقيين من الفرس والمصريين ومن إليهم ، واعتنقها البرابرة والبدائيون كما أيدها المدنيون (٣) ، وكل هذا قبل أن ينزل الاسلام - وصادفت مثل هذا التقدير فى الديانات المنزلة من توراة وأناجيل ، وهكذا كانت الأحلام عريقة فى القدم عند مختلف الشعوب والملل - فيما اتفق جمهرة مؤرخيها ، وكان التسليم بالرؤيا الصادقة منذ قرون ، جزءاً من عقيدة يؤمن بها أكثر المتعلمين والجهلة على السواء ، ولبث الأمر على هذا حتى ظهرت الدراسات العلميه ، وشاعت روح النقد ، فكثر منكروها وتحول الاهتمام بها إلى كاف بدراسة الأحلام فى اتصالها بالنفس البشرية ، وقيام الاعتقاد فيها طوال هذه القرون ، واستمراره إلى أيامنا الحاضرة ، يشهد بمسايرتها للطبيعة الانسانية - ولو كره منطق العقل . . وهكذا يكون الأدنى إلى الصواب أن يقال إن الرؤيا قد وقعت للمسلمين كما وقعت لغيرهم منذ فجر التاريخ ، فأثارت اهتمامهم ، وأدى عجزهم عن تفسيرها ، إلى الاسراف فى تقديرها ، ولكن الدين قد عزز هذا التقدير وأيده ، بما رواه عن بعض الأنبياء فى هذا الصدد .

وإذا كان الانكار قد صاحب موجة التقدير عند المسلمين ، فأن هذا ملحوظ بوضوح فى التراث اليونانى بوجه خاص ،

---

1) Ibid, 1, ch. 25 2) Ibid, 1. 26

3) Ibid, 1. ch. 20-28

إنكار الرؤيا فى التراث اليونانى :

أكبر المنكرين خطراً هم : أرسطو وأتباع سقراط - مع استثناء أفلاطون - وأتباع الأكاديمية الجديدة والأبيقوريون ، ولكنا لن نتتبع آراءهم فى وجوه إنكارها (١) ، لأننا لا نجد فى التراث الأسلامى مايقابلها ؛ ذلك لأن هؤلاء لم يكونوا أصحاب دين منزل ؛ فبلغوا فى حرية التدليل على إنكارها ، ما لم يكن فى وسع المسلمين بلوغه ؛ ولكن الطريف أن طوائف المنكرين فى الأسلام ؛ تقابل أندادها عند اليونان على وجه التحقيق ، فمن منكرى هؤلاء ملاحدة يستخفون بالدين - بل بالآلهة ووجودهم - كالأبيقوريين ، وصغار السقراطيين من القورينائيين والكلبيين والميغاريين الذين أنشأوا مدارس لا دينية ، وأبوا التسليم بالعقائد الشعبية ، ومنها التنبؤ عن طريق الوحى فى مختلف صوره (٢) وقد يقابل هؤلاء فى الأسلام أمثال الراوندى وزكريا الرازى ممن استخفوا بالنبوة والوحى . وكان بين اليونان من يؤمن بالآلهة ، ويحترم الدين والتقاليد ولكنه لا يبالى مع هذا بأنكار الرؤيا . ومن هؤلاء أكسانوفان وأتباع الأكاديمية الجديدة من أمثال شيشرون ، ويقابلهم عند المسلمين بعض المتكلمين والمعتزلة منهم بوجه خاص ، والنظام ومعمر ومن إليهما .

وإنه لمن المؤسف حقا أن تقتصر المقارنة بين المسلمين واليونان فى هذا الصدد ، على ذكر طوائف المنكرين ، لأننا لا نجد فى التراث العقلى الأسلامى شبيها لما نجده من وجوه النظر والتفكير فى تراث اليونان الخصيب ولا بد

---

(١) ذكرت بالتفصيل فى كتاب العلم بالغيب Divination لواضعه شيشرون ؛ وهذا هو الذى ألحقنا ترجمته مع تعليقاته عليها بكتابنا هذا رسالة للدكتوراه . وسيطبع قريبا .

(٢) انظر شارل أبون Charles Appuhn فى تعليقاته على الفقرة الثانية من الكتاب الاول من كتاب العلم بالغيب السالف الذكر (فى طبعة جارنييه الفرنسية)

آ لنا من أن ننص على ذلك ، فأن التسليم بشىء - حتى مع تأييده بالمنطق - لا يبلغ فى مراتب النظر العقلى إنكاره وتفنيده .

داب النوم فى التراث القديم :

ولآداب النوم ما يقابلها فى تراث اليونان كذلك ، وسنعرف عند الحديث عن منابع التفكير الأسلامى فى تعليل الرؤيا ، موقف الفيثاغوريين وأفلاطون فى هذا الصدد ، وقولهم بصفاء النفس بتجنيبها القلق والهموم وما أشبه ذلك ، ونقاء الجسم بتجنيبه الأسراف فى الطعام أو الشراب أو نحوه ، وقد كان الفيثاغوريون يعلقون أهمية كبيرة على هيئة الجسم وأوضاعه عند النوم ، وقد حرموا النوم على الظهر أو على الجانب الأيمن ، لأن الأعضاء التى تنطوى على تجاويف - ولا سيما الكبد - هى عندهم مرآة الصور التى تجىء عن طريق الوحى ، وهى تكون فى الوصفين السالفين فى حالة ضغط . . . (١) ، والتماس الرؤيا الصادقة بالدعاء لله ونحو ذلك عادة مصرية قديمة فيما يشير بوشيه لوكايرك (٢) . أما المحدثون من علماء النفس ، فأنهم لم يهملوا الاهتمام بما سبق النوم أو يصحبه ، من مؤثرات حسية أو نفسية ، وقد أبنا عن هذا فى تعليل الأحلام الباطلة .

نظرة المسلمين للرؤيا

مناقشة الادعاء الدينى بأنها وحى من الله :

والآن نتساءل : على أى أساس أقام المسلمون نظرتهم للرؤيا باعتبارها وحيا إلهيا ، وماذا جنوا من وراء ذلك . . ؟ أما القرآن فما نظنه تضمن نصا صريحا ، فى هذا الصدد ، فأن الآية التى تضمنت صنوف الوحى ، لم تشر

---

1) Bouché - Leclercq : Histoire de la Divination 1, P. 289
2) Ibid, 1. P. 289

صراحة إلى إمكان وقوعه إبان النوم ، ولعل الذين فسروا الوحي فيها بالرؤيا ، قد حملوا لفظه فوق ما يطيق من معنى ، وكذلك يقال فيمن فسروا البشرى بالرؤيا ، فعمموا بذلك وقوع الوحي لغير الأنبياء والرسل ، ولا شك أن هذا الاتجاه في تفسير الآيتين ، قد صادف هوى من نفوس الكثيرين ، فوضعوا فيضا من الأحاديث النبوية المنحولة ، أملا في تمكين الرؤيا وتأييدها وحيا من الله . . . وإذا كانت الرؤيا بدء الوحي في رسالة النبي ، كما ورد في حديث عائشة في باب « كيف كان بدء الوحي » في صحيح البخاري ، فأن ذلك لا يستلزم أن تكون رؤيا غير الرسول وحيـــا من الله ، فليس كل ما جاز له ، وجب جوازه لغيره ، وإلا كان الناس كلهم رسلا . . ! ! ، وإذا كان القرآن قد تضمن رؤى ، وقعت لبعض الأنبياء وحيا إلهيا ، فأن هذا لا يقتضي وقوع مثلها لغير الأنبياء ، فمن الجائز أن يخصهم الله بغير ما يخص به سائر الناس . وقد فسر كبار المفسرين قوله تعالى في سورة يوسف : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث . . » فقالوا إن الاجتباء هو الاصطفاء ، والمعنى أن الله كما اصطفاك لمثل هـذه الرؤيا العظيمة ، الدالة على شرف وعز وكبر شأن ، فأنه يصطفيك لأمور عظام (١) . وقالوا إن إبراهيم قد تروى وتردد في ذبح ابنه ، فلو كانت رؤياه وحيا صريحا ما تردد في تنفيذها (٢) . فأذا قيل إن في سورة يوسف ثلاثة أحلام وقعت لملك مصر « الريان ابن الوليد » (٣) وصاحب طعامه وصاحب شرابه ، وقد تحققت كلها كما عبرت ، وليس هؤلاء برسل ولا أنبياء ، قلنا ما قاله من قبل كبار المفسرين ، وهو أن الله قد أعجز المعبرين الذين حضروا عنـد الملك ، عن تعبير الرؤيا حتى يعبرها يوسف ، فيتمكن بذلك

---

(١) الزمخشري : الكشاف ج ١ ص ٦٤١ والفخر الرازي في مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٥٧

(٢) الفخر الرازي : ج ٥ ص ١٤٩

(٣) الزمخشري : ج ١ ص ٦٥٩

من الخلاص من محنته (١) . هذا محتمل ، فوق أننا لا ننكر إمكان تحقق بعض الأحلام ، على سبيل المصادفة ، أو استجابة إلى إيحاء أو استهواء ذاتى، مرده إلى خاطر أدى إلى وقوع الحلم وتحققه فى اليقظة معا ، أو إلى غيرهذا من أسباب سنعرض لها بعد ، ولكنها على كل حال لا تكون وحيا من الله . وإن كان من الحق مع هذا كله ، أن نقول إن نزوع المفكرين إلى ربط الرؤيا بالدين ، شىء طبيعى وقع لغير المسلمين من شعوب ، حتى قبل نزول الأديان المقدسة ، وأى شىء فى تاريخ الدنيا اتصل بالمجهول ، ولم يرتبط فى أذهان الناس بالمعتقدات الدينية . . ؟

ومثل هذا يقال فى سيل الأحلام التى تضمنتها المصادر الأسلامية باعتبارها من وحى الله ، فمن ذلك أن السيدة عائشة قد رأت فى منامها أقمارا ثلاثة فى حجرتها ، فعبرها أبوها بموته وموت الرسول والفاروق ودفنهم فى حجرتها جميعا ، وقد كان الأمر كما قال ـ فيما تروى هذه المصادر (٢) . ولكن من الميسور تأويل حلمها سيكولوجيا ، إذ من المحتمل أن تكون الوساوس قد ساورتها أثناء يقظتها فى موت هؤلاء الأساطين الثلاثة يوما ما ، وراعها مصير العالم الأسلامى بعدهم ، هذا التوقع لمماتهم ، كفيل بأنشاء حلم يتمثل فيه ما كانت تخشاه . أما تحقق دفنهم فى حجرتها بعد ذلك ، فالمعروف تاريخيا أن المسلمين قد اختلفوا بعد ممات الرسول على مكان دفنه ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، ثم كاد يستقر رأيهم على دفنه فى المسجد حيث كان يخطب ويعظ ويصلى بالناس ، ولكن عائشة نفسها ـ وهى صاحبة الحلم ـ هى التى حالت دون ذلك ، إذ قالت إن النبى كان يقول (قبيل وفاته) حين اشتد به وجعه ، قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . . (٣)

---

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ج ٥ ص ١٣٨
(٢) الأبشيهى ج ٢ ص ١٠٨
(٣) هيكل : حياة محمد ص ٤٩٣ — ٤

أما دفن أبي بكر مع الرسول ، فرجعه إلى أنه هو الذى أوصى بذلك قبيل وفاته . . ! (١) وأما الفارق فأنه أرسل ـ وهو يحتضر ـ يستأذن السيدة عائشة فى أن تسمح بدفنه فى حجرتها إلى جوارهما . . ! (١) فلعل تحقق الحلم كان مرجعه إلى استجابة هؤلاء لما ظنوه وحيا من الله ، لا ينبغى العمل بعكس ما جاء به ، ومثل هذا يقال فى الكثير من أمثال هذه الرؤيا (٢) .

ولكن وقوع هذا منذ الماضى السحيق شىء ، ومنطق التفكير العقلى فيه شىء آخر .

خسارة المسلمين من جراء نظرتهم للرؤيا :

والآن ، ماذا جنى المسلمون من وراء هذه النظرة . . ؟ لقد أشرنا عند الحديث عن تعليلهم للأضغاث ، إلى أنهم عرفوا الكثير من الأصول التى قام عليها البحث السيكولوجى فى الأحلام ، وفطنوا إلى علاقات الحلم بنفسية صاحبه ، وسنعرف فى الكتاب الثالث أنهم لم يجهلوا صلة الحلم بشخصية صاحبه ، بأوسع ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، فتمشوا بهذا مع أحدث وجهات النظر السيكولوجية ، وأوجبوا على المعبر من جراء هذا ، أن يكون عند التعبير على اتصال بصاحب الحلم ، ليستعين به على فهم حقيقة الرموز ، وقد أدى مثل هذا الموقف عند جمهرة المحدثين من علماء النفس ، إلى اتخاذ الحلم أداة للكشف عن طبيعة النفس البشرية ، وما تخفى فى ثناياها من عقد نفسية ، ومضوا بالاستقصاء العقلى Mental Exploration. أو بالتحليل النفسى Psycho-analysis : إلى اكتشاف هذه العقد ، لعلاج النفوس من أمراضها النفسية ، التى حار طب

---

(١) هيكل : أبو بكر الصديق ص ٣٥٤

(٢) مع ملاحظة أن المصادر الاسلامية حافلة بالرؤى المختلقة التى قصد أصحابها بالاختلاق — أو المبالغة — إلى تأييد الرؤيا الصادقة .

الأجسام فى علاجها ، وقد كان لهذه الطريقة ضجيج عند العلماء منذ سنوات ، ولا تزال موضع تقدير رغم كل ما قيل فى نقدها (١)

أما المسلمون الذين عرفوا أسس هذا التفكير السيكولوجى ، على نحو ما أشرنا الآن ، فأنهم قد انتهوا من ربط الأحلام بطبيعة النفس البشرية ، إلى القول بأنها أضغاث أحلام لا تقبل تأويلا .. لأن الحلم الجدير بالتقدير والتعبير ، إنما هو الرؤيا التى يوحى بها الله .. !! . أما غيرها مما يكون وسوسة نفس أو صدى طبع وغلبة مزاج أو نحو هذا ، فأضغاث أحلام لا تستحق غير الأهمال .. ! ونظرتهم فى هذا متماسكة ، إذا اعتبرنا سياق التفكير عندهم ، مهلهلة إذا راعينا الأساس الباطل الذى أقيمت عليه نظريتهم .

ولم تقتصر خسارتهم على هذا الجانب السلبى فيما ربحه الغربيون ، وإنما انتهت نظرتهم إلى غفلة الكثير من شئون حياتهم ، فأذا اعتزم امرؤ الشروع فى أمر يتصل بمعاشه ، ووقع له فى الحلم ، ما يحتمل أن يكون صدى أكلة ثقيلة أو ضيق نفس ، أو جوابا لمؤثر حسى أو نفسى مّا ، اعتبره فى اليقظة نذيرا بسوء المصير ، وعدل عن مشروعه . ! بل لبث طيف الحلم فى خاطره ، عاملا من عوامل الإيحاء السيء ، الذى يؤذى ولا يفيد .

على أن رد الرؤيا إلى وحى الله ، وتعبيرها عن مستقبل مغيب عنا ، يخرجها عن أن تكون موضوعا لدراسة علمية ، لأن العلم يبحث فى العلل القريبة ويترك البحث فى العلل البعيدة إلى الفلسفة وأهلها ، والعلم يعترف بنوع من التنبؤ لا

---

(١) من أروع دلالات نقدها ، قول « إرنست جونس » E. Jones رئيس الجمعية الدولية للتحليل النفسى International Psycho-Analytical Association إن الحالة الواحدة تتكشف بعد التحليل النفسى عن نتائج ، تختلف باختلاف المحللين ولو كانوا ممتازين .. !

تدخل الرؤيا فى نطاقه ، ذلك هو التنبؤ الذى تسبقه مقدمات تبرر معرفته ، أليس العلماء على اتفاق فى أن العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً . ؟ ولكن هذا النوع من التنبؤ ، الذى يسلم به العلم ، قد رفض مفكرو الإسلام الاعتراف باعتباره غيبا ، لأن الغيب عندهم لا يجيء صناعة ولا اكتسابا ، ومردّه إلى وحى الله فى المنام واليقظة على السواء ، وهكذا لا ينسحب تنبؤ العلم على الرؤيا ، فوق أن مقاييسه فى البحث لا تشمل موضوعها .

الفصل الثاني

تعليل الرؤيا عند مفكرى الإسلام

اتجاهات المفكرين فى تعليلها : الاتجاه الدينى الصوفى — الاتجاه الفلسفى — موقف الكندى من تعليلها — موقف الفارابى وابن سينا — موقف ابن رشد — منابع أفكارهم فى تعليل الرؤيا الصادقة — موقف القرآن من تعليل الرؤيا — منابع التفكير الصوفى فى تراث اليونان وقدماء الشرقيين : موقف الرواقية من تعليلها — موقف أفلاطون والفيثاغورية من تعليلها — موقف أتباع الغنوصية والأفلاطونية الجديدة — منابع هذه الأفكار اليونانية فى التراث الشرقى : أصولها فى الديانة الأورفية — تعليل فلاسفة الاسلام فى تراث أرسطو — مدى تأثر الكندى بأرسطو فى تعليلها — مدى تأثر الفارابى وابن سينا بأرسطو — موقف علم النفس الحديث من تعليل الرؤيا : علاقة الحالم بالفنان — تفسير الجديد فى الحلم — المصادفة والاعداد العقلى والعاطفى السابق .

اتجاهات المفكرين فى تعليلها :

يغلب الروح الدينى اتجاهات مفكرى الإسلام ، فى تعليل الرؤيا الصادقة، والعناصر الدخيلة التى استعانوا بها فى تعليلهم لها ، مسايرة لهذا الروح ، أو غير منافية له على أقل تقدير ، ونستطيع أن نجمع أهم ما قيل فى تعليلها فى اتجاهين ، قد يتفقان فى بعض العناصر ، وقد يتشعب كل منهما إلى فروع ، ولكنهما فى الجملة اتجاهان على كل حال : أولهما اتجاه دينى صوفى معا، والثانى فلسفى ميتافيزيقى :

الاتجاه الديني الصوفي:

أقام أصحاب هذا الاتجاه تعليلهم للرؤيا ، فى ضوء فهمهم للنفس والنوم معا، أليست تعرض الرؤيا للنفس إبان النوم . . ؟ وهم يرون أن اليقظة التى تتوافر لنا بالحس ، هى النوم ، وأن الحلم الذى يتهيأ لنا بالفعل ، هو اليقظة لامحالة ، ولغلبة الحس علينا ظننا الأمر على خلاف وجهه الصحيح ، فإن غلبنا العقل على الحس ، ظهر وجه الحق فى ذلك (١) ، فأن المرء إذا ارتقى فى حال المعرفة عرف أنه نائم فى حال اليقظة المعهودة ،وأن الأمر الذى هو فيه ، إنما هو رؤيا إيمانا وكشفاً ، وقد ذكر أن أموراً واقعة فى ظاهر الحس وقال فاعتبروا ، وقال إن فى ذلك لعبرة — أى جوزوا أو أعبروا مما ظهر لكم من ذلك ، إلى علم ما بطن فيه ، وفى الحديث النبوى : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، ولكن لا يشعرون ، وهذا شاهد عدل على أن يقظة الوجود نوم (٢) ، ولكن الناس يحسبون وهماً ، أن المعرفة تقع إبان اليقظة ، مع أن المرء لا يعرف خلالها شيئاً من علم الغيب ، وما يبصره بين النوم واليقظة ، أولى بالمعرفة مما يدرك عن طريق الحواس (٣) . واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى ، لانكشفت فيها صور الأولى ، إلا إذا قام بينهما حجاب ، وليست المرآة الثانية إلا القلب ، والحجاب هو الشهوات والحواس ، ويتجلى هذا فى اليقظة ، أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول ، وبذلك تظهر فى مرآة القلب صور اللوح المحفوظ ، وتنكشف للنفس آفاق العالم المجهول (٤) ، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم فى أعظم حالاتها ،

---

(١) أبو حيان التوحيدى : المقابسات ص ١٧٩ — ١٨٠

(٢) ابن عربى : الفتوحات ج ٢ ص ٤٩٩ ، والتهانوى فى كشاف الاصطلاحات ج ١ ص ٤٥١

(٣) الغزالى : كيمياء السعادة ص ١٤

(٤) الغزالى : الاحياء ج ٤ ص ٤٣٩ وكيمياء السعادة ص ١٥

زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه ، ولكن الرؤيا لا تقع لكل نائم ، ولا تجيء فى كل نوم ، إنما تعرض للمؤمنين عن طريق الملائكة ، فأما المؤمنون فأن نفوسهم قد صفت ، وتحررت من ضغط الأفكار الفاسدة ، وصدق الرؤيا يكون بمقدار ما يكون هذا الصفاء (١) . . . وليس يتحقق إلا بتجرد النفس من شهوات الجسم ، التى تكوّن على عين القلب غشاوة تمنعها من الإبصار ، وهذه الشغاوة منقشعة عن عيون الأنبياء ، ولكن الجلاء البصرى الذى تهيأ لهم ، لامطمع فيه لإنسان ، وللبصر نوع من المشاهدة الضعيفة يتوافر أثناء النوم ، لأن النوم يمنع الحواس عن العمل (٢) . ومتى تجردت النفس عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، أضحت روحانية ، وارتفع حجاب الحس ، ويقع بسبب النوم أحياناً ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلة ، وتعود بها إلى مداركها (٣) . وإذا كان النوم أخا الموت ، زال العجب من انكشاف الحجاب إبانه ، ذلك أن الموت يحول صاحبه من عالم الملك والشهادة ، إلى عالم الغيب والملكوت ، وبهذا يرى بالعين التى خلقها الله فى كل قلب ، ولا يعوقها عن النظر إلا غشاء الشهوات (٤) . ومن أجل هذا حاول بعض الناس أن يموتوا موتا صناعيا ، بقتل جميع القوى البدنية ، وتغذيتها بالذكر والجوع ونحوه (٥) وفى النوم يذهب الحس ويزول حجابه ، على نحو أضعف مما يكون فى الموت ، ولهذا تقع الرؤيا الصادقة إبانه ، ويكون الكشف فيها أقل فى العادة منه عند الموت ، وهكذا تتمكن النفس من الاتصال بالجواهر الروحانية

---

(١) ابن حزم : ج ٥ ص ١٩

(٢) الغزالى : الاحياء ج ٤ ص ٤٢٩ ، ج ٢ ص ١٦ وكيمياء السعادة ص ١٥

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٩ — ٩٠

(٤) الغزالى : الاحياء ج ٤ ص ٤٢٨

(٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٥

الشريفة فى حال النوم ، الذى تنصرف فيه النفس عن شغل الحواس (١)

وأما الملائكة التى تتلقى عنها نفوس المؤمنين هـذا العلم أثناء النوم ، فهى نفوس الموتى من أهل التقوى ، فأن هؤلاء إذا التزموا الخلق القويم ، وتفقهوا فى الدين حتى يخرجوا من ظلمات الجهالة ، والتزموا كرم الأخلاق منذ صباهم ، وفكروا فى الدنيا وأحوالها حتى انتبهوا من نوم الغفلة والجهالة ، كانت نفوسهم ملائكة بالقوة ، متى فارقتهم أضحت ملائكة بالفعل ، واستقلت بذاتها واستغنت عن التعلق بالأجسام ، ونجت من بحر الهيولى ، وخرجت من عالم الكون والفساد ، وارتقت إلى عالم الأفلاك ، وعندئذ تأبى الاتصال بغير بنات جنسها من نفوس المؤمنين — الملائكة بالقوة — وربما نزلت الملائكة إلى نفوس المؤمنين فى منامها ، ووعظتها وذكرتها بالمعاد ، أو وصفت لها ما صارت إليه وبشرتها فاستبشرت (٢) . . . وليس من الممكن أن تكون النفوس ملائكة ، بالقوة ، مهيأة لقبول الوحى والإلهام ، مستعده للارتفاع إلى رتبة الملائكة ، والتخلص من عالم الكون والفساد ، والاتصال بعالم البقاء والدوام ، إلا بصفاء الجوهر وحميد الأخلاق ونحو ذلك (٣)

وهكذا يكون مرد العلم فى الرؤيا إلى الملائكة ، التى تمد به نفوس المؤمنين أثناء النوم ، وهذا التعليل الذى يساير اعتبارها جزءا من النبوة ، يتهيأ لأهل الإيمان وصفوة المؤمنين .

ويتمشى مع هذا التعليل اتجاه آخر ، يتمثل فى السهروردى زعيم مدرسة الأشراقيين ، الذى قرر إمكان اتصال أرواحنا فى النوم بالنفوس السماوية ،

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٨ — ٣٠٩

(٢) اخوان الصفا : ج ٤ ص ١٦٤ — ١٦٥ وقد ذكروا من آيات القرآن ما يؤيد ما يقولون

(٣) المصدر نفسه : ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٤ وغيرها

وتلقّ العلم بالغيب عنها ، والأصل فى ذلك أن « النفوس الناطقة جوهر الملكوت فى عالم المجردات والمعقولات — وإنما يشغلها عن عالمها هذا ، القوى البدنية ومشاغلها ، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى البدنية ، بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحياناً إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها المقدس وتتلق منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها . وتتلق منه المغيبات فى نومها — ويقظتها — كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نفس (١) . وهكذا إذا تطهرنا من شواغل البدن ، وتأملنا كبرياء الحق والنور الفائض من لدنه ، وجدنا فى أنفسنا بروقا ذات بريق ، وشروقا ذات تشريق ، وشاهدنا أنوارا وقضينا أوطارا (٢) ، وهكذا يتمكن الإنسان من الاتحاد بروح القدس المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال ، وهو أبونا ورب طلسم نوعنا ، ومفيض نفوسنا ومكملها بالكمالات العلمية (٣) .

وقد رفض الغزالى هذا الاتحاد الصوفى ، كما رفض نظرية الاتصال عند الفلاسفة — وستعرض لها بعد حين — وقرر بأن الإلهام الذى يفيض عنه العلم اللدنى ، يصدر عن الله دون وسيط ، ومرده إلى فطرة النفس ، وتهيئها له من غير معلم ، وذلك بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه ولهمه على الله ، مع الجوع والسهر ونحوه ، حتى يرتفع حجاب الحس المرسل بين القلب واللوح ، وتطالع النفس — فى يقظتها ومنامها — جواهر الملكوت ، وتكتشف مكنونات الغيب المحجب (٤)

وقد أشرنا إلى موقف ابن عربى فى تعليل الرؤيا الصادقة ، وعرفنا رأيه فى

---

(١) السهروردى . هياكل النور ص ٤٤

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨

(٤) أنظر تفصيل هذا الرأى فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » وفى كتابنا « الشعرانى » إمام التصوف فى عصره — عند الكلام على تأثره بالغزالى

صدور وحيها من باطن ، لا هبوطه من الخارج ، على اعتبار أن الوجود كله حقيقة واحدة ، وأن التعدد الظاهر فيه مرده إلى الحواس ، والعقل الذى يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية العينية للخالق والمخلوق ، وإن كان يقر الخالق مع هذا فيقول فى الجزء الثانى من فتوحاته : سبحان من خلق الأشياء وهو عينها .

الاتجاه الفلسفى فى تعليل الرؤيا :

اتفق الفلاسفة مع رجال الشرع والتصوف ، فى إقامة الرؤيا على أساس من وجود النفس ، وقدرتها على كشف الغيب إبان النوم ـ كما هو حالها أثناء اليقظـــة .

موقف الكندى من تعليلها :

فأما الكندى فقد قرر بأن الرؤيا تعرض للنفس ، وفى النفس قوتان كبريان ، هما الحساسة والناطقة . وتقوم بينهما قوة أخرى هى المخيـلة ، وهى الأداة التى بها تحصل صور المرئيات من غير مادة ـ أى مع غيبة موضوعاتها عن حواسنا ، وأما الحس فهو الأداة التى بها ندرك صور المحسوسات فى مادتها ، والمخيلة على عكس الحس ، تقوى على تركيب الصور ، فتصور رجلا يطير ، فيتخيله الإنسان ولا يراه ، والمخيلة وإن كانت تؤدى وظيفتها إبان اليقظة والنوم على السواء ، إلا أنها أنشط وأقوى فى اليقظة منها فى النوم ؛ والدليل على صدق هذا ، أن الإنسان كلما استوعبه التفكير فى موضوع ، وصرفه عن استخدام حواسه ، قويت مخيلته ونشطت فى أداء عملها ، والنفس طابع الصور التى تنشئها المخيلة ، ومحل معانى الأشياء ، محسوسة أو معقولة ، وعلى هذا فأن الرؤيا تقع للمرء متى أغفلت استعمال الحواس ، ومتى كانت النفس نقية متجردة عما يفسد قواها ، تستطيع أن تبين عن الأشياء قبل وقوعها ، وبهذا يفسر الكندى أربعة أمور :

(١) السر فى وجود أشياء قبل أن توجد (٢) وأشياء يدل تأويلها على أشياء لم توجد . (٣) وأشياء نرى أضدادها . (٤) وأشيـــاء لا نراها ولا نرى تأويلها ولا أضدادها (١) .

ولكن الكندى لم يؤثر فيمن أعقبوه كثيرا ، ولم ينشىء مدرسة تروج لتعاليمه ، رغم تأثر الغرب الأوربى بفلسفته بعد نقلها إلى اللاتينية ، إلا أن الجزء الأول فى تعليله للرؤيا ـ وهو ما خص النفس والمخيلة ـ شائع عند مفكرى الأسلام ، وإن اختلفت صوره عندهم ، وقد عرفنا الكثير منه فى تعليلهم للأحلام الباطلة ، وأما الجزء الباقى من تعليله ـ وهو ما فسر فيه الرؤيا الصادقة بصفاء النفس ، وبُعدها عن الأغراض التى تفسد قبول قواها ـ فأنه شائع عند الصوفية ورجال الشرع بصفة خاصة .

موقف الفارابى وابن سينا من تعليلها :

وأما التعليل الذى شاع فى الفلسفة الأسلامية ، فاول مرده إلى الفارابى أكبر فلاسفة الإسلام بعد ابن سينا ، وقد أثر فى الأجيال التى أعقبته تأثيرا واسع المدى ، حتى كان بعض الفلاسفة يقتبسون منه حينا ، وينقلون عنه أحيانا . وإذا جاز أن يقال إن الكندى أول من وضع الأسس فى تعليل الأحلام الباطلة فى فلسفة الأسلام ، كان من الحق أن يقال إن الفارابى هو أول من وضع نظرية الأحلام الفلسفية فى الأسلام ، فقد عرض لتعليل الرؤيا الصادقة ، ليثبت النبوة عن طريقها ، وينتهى إلى أن النبى والحكيم صالحان لرياسة المدينة الفاضلة .

وتعليل الفارابى للرؤيا ، تسلم إليه نظريته فى الاتصال بالعقل الفعال ،

---

(١) ملخص من رسالة الكندى اللاتينية كما ترجمها الاستاذ محمد متولى بأشراف ومساعدة الاستاذ يوسف كرم مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول (لم تطبع بعد)

وحسبنا أن نعرف الآن (١) من هذه النظرية، أن فى كل سماء من سماوات العالم العلوى عقلا مفارقا، يشرف على نظامها ويدبر حركتها، وهذه العقول المفارقة تترتب فى تدرج آخره العقل العاشر أو العقل الفعال (٢)، وهو الذى يشرف على السماء الدنيا والعالم الأرضى معا، ويكون صلة بين العالم العلوى والعالم السفلى، وفاصلا روحيا بين العالم الألهى والأنسانى، وهو مصدر الشرائع ومبعث الألهامات الألهية، وإن كان مرد الألهام إلى الله، ولكن العقل العاشر وساطة بين الله والأنسان، فهو يشبه الملك الموكل عند رجال الدين، ومن الممكن للأنسان أن يتصل بهذا العقل ويأخذ عنه علم ما لم يعلم، بالتأمل العقلى الذى يرقى بعقله إلى درجة العقل المستفاد، وقد يظفر بهذا صاحب المخيلة القوية (٣) ومثل هذا الاتصال يقع فى النوم فيكون رؤيا صادقة، أو فى اليقظة فيكون نبوة (٤)، وإن كان الأنبياء أقوى مخيلة من النيام، ومن أجل هذا استطاعوا الاتصال بالعقل أثناء اليقظة (٥).

هذا هو مذهب الفارابى، وإن كان من الخير أن نقول مع الأستاذ كارا دى فو (فى دائرة المعارف) أن من المناسب التحفظ، بل الشك فى تفسير ما يتعلق بتفصيل مذهبه، لأننا لا نعرف عن آثاره إلا قليلا، وذلك بالإضافة إلى أن أسلوبه لا يخلو من غموض، وفيما عرفنا من رسائله ما هو مصوغ فى صورة حكم فى نهاية الأيجاز . . . الخ (٦)، ولعل هذا هو الذى حمل بعض مؤرخى الفلسفة، على أن يذهبوا إلى القول بارتياب الفارابى فى اتصال العقل الإنسانى

---

(١) قارن كتاب الدكتور ابراهيم بيومى مدكور عن الفارابى (بالفرنسية) وبحثه فى الرسالة (العددين ١٥٧ و ١٧٧).

(٢) قارن الفارابى فى مقالته فى معانى العقل (نشر الاب بويج)

(٣) الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٤٧

(٤) المصدر نفسه: ص ٤٧ - ٥٢ (٥) المصدر نفسه: ص ٥٠ - ٥٢

(٦) مصطفى باشا عبد الرازق فى مقالة له بمجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، فى الجزء السابع من المجلد الثانى عشر، وقد نشرته الجمعية الفلسفية المصرية فى كتاب «فيلسوف العرب والمعلم الثانى ص ٦٨ - ٦٩ طبعة عام ١٩٤٥

بعقل الفلك (١) . ولعل الأصح ما رويناه من قبل ، فأن ابن طفيل يقول فى رسالة حى بن يقظان : ثم وصف الفارابى + ٩٧١هـ – فى شرح كتاب الأخلاق ، شيئا من أمر السعادة الأنسانية ، وأنها إنما تكون فى هذه الحياة وفى هذه الدار ، ثم قال يعقب على هذا كلاما هذا معناه : وكل ما يذكر غير هذا فهو هذيان وخرافات عجائز ، فهـــذا قد أيأس الناس جميعا من رحمة الله .... الخ (٢) ، والذى يعنينا من هذا النص ، أنه قرر بأن الفارابى يرى بأن السعادة يمكن أن تكون فى الحياة الدنيا ، وسعادة العقل إنما تكون فى الاتصال بالعقل الفعال فيمايقرر «دى بوير» نفسه. ويقول الفارابى فى رسالة العقل، إن العقل المستفاد إذا حصل ، صار عند الله جوهر الأنسان أو مايتجوهر به ، أقرب إلى العقل الفعال، وهذه هى السعادة القصوى والحياة الأخرى (٣)

وقد تردد صدى هـذا الرأى عند ابن سينـا (٤) ، أشهر فلاسفة الأسـلام إطلاقا ، إذ اتخذ الأحلام أداة لأثبات النبوة كذلك ، وذهب إلى القول بأن الأحداث ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، منقوشة فى لوح محفوظ فى العالم العلوى ، وفى وسع بعض الناس الاتصال بهـــذا العالم عن طريق مخيلتهم القوية ، فيقع لهم هذا أثناء نومهم ، فأن أفرطت مخيلتهم فى قوتها ، ظفروا بالاتصال أيقاظا ، وأولئك هم الأنبياء (٥) ، وذلك لأن المخيلة مصدر الصور الباطنية ، ولكن شواغل حسية أو باطنية تصرفها عن أداء وظيفتها (٦) وهذه تقل عند النوم وتنقطع فى حال النبوة ، وهكذا سار ابن سينا فى نفس الاتجاه الذى رسمه أستاذه من قبل .

---

(١) كالاستاذ دى بوير فى كتابه تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٤٨ من ترجمة صديقنا الاستاذ «محمد عبد الهادى أبو ريده» ، وإن ترجم الاتصال بالاتحاد مع أن الفرق بين مدلولى الاصطلاحين (الفلسفى والصوفى) معروف

(٢) ابن الطفيل : رسالة حى بن يقظان ص ١١ من طبعة ليون جوتيه .

(٣) الفارابى : مقالة فى معانى العقل (نشر الاب بويج)

(٤) قارن ابن سينا فى النجاة وكذلك فى «رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها» ص ١٥–١٧

(٥) ابن سينا : إثبات النبوات (الرسالة السادسة فى رسائل الحكمة وهى ص ٨٢ وفى الاشارات ص ٢٠٩ و ٢١٢

(٦) المصدر نفسه : ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤

موقف ابن رشد من تعليلها :

أما ابن رشد فأنه يقرر بأن الرؤيا لا تعرض لقوة الحس ، أو النطق أو الذكر أو غيرها من قوى النفس ، ولكنها ترجع إلى المخيلة (١) ، كالأحلام الباطلة أحيانا - وهى تتصل بالعقل الفعال البرىء - عن المادة - ، وحسبنا من حديثه قوله : إن الرؤيا تدل على معرفة وجود شىء ، مجهول الوجود عندنا قبل هذه المعرفة لا محالة ، وهو فى الأكثر معدوم أثناء المعرفة . وهذا التصديق الحاصل بعد الجهل ، ليس يحصل عن معرفة متقدمة عندنا فاعلة له ، ولا بعد فكر وروية ، وإلا كان شأنه شأن المعرفة التصديقية التى تحصل لنا عن مقدمات ، والمعروف أن المعرفة التصديقية والتصورية يتقدمها بالطبع صنفان من المعرفة ، صنف فاعل وصنف مُعط لها ، ومن البين أن المعرفة التى تقع لنا أثناء النوم ، لا يتقدمها الصنف الفاعل ، وإذا كانت هذه المعرفة قد حصلت لنا بعد الجهل ، فوجدت بالفعل بعد أن كانت موجودة بالقوه ، كان موجدها عقلا بالفعل ، وهو بعينه يعطى المبادىء الكلية فى الأمور النظرية ، والإعطاءان من جنس واحد ، وإنما الفرق بينهما أن المعرفة النظرية تعطى المبادىء الكلية الفاعلة للمعرفة المجهولة ، أما فى حالة النوم فتعطى المعرفة المجهولة بلا وساطة ، وهذا النوع من الأعطاء شريف جداً ، يقع عن أمر إلهى وعناية تامة بالإنسان ، الذى يحصل له هذا النوع من المعرفة فى كثير من الأشياء - ولما كانت ماهية النبوة داخلة فى هذا النوع من الإعطاء ، نسب هذا إلى إله ، وإذن فمعطى هذه المعرفة عقل برىء عن المادة ، والمعروف فى العلوم الألهية أن هذه العقول المفارقة ، إنما تعطى شبيه ما فى جوهرها (٢)

أما لماذا اختص هذا الإدراك الشريف بالنوم ، فالعلة فى ذلك أن النفس

---

(١) ابن رشد : المقالة الثانية من الحاس والمحسوس ص ٨٢ - ٨٣

(٢) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٨٣ - ٨٤

واحدة بالموضوع كثيرة بالقوى ، ولهذا فأنها حين تستعمل بعض قواها الباطنة ، يضعف بعضها الآخر ، فقوة الخيال تضعف عند إعمال قوة الفكر ، وتقوى عند ما تضعف قوة الفكر ، وإذا عطلت النفس جنسا من هذه القوى أو نوعا منها ، قوى النوع الباقى ، وربما لم يقتصر فى هذا الفعل على تعطيل بعض القوى ، بل تعطل مع ذلك الآلة التى كانت تفعل فيها تلك القوة المعطلة، وتصرفها إلى القوه التى تقوم على استعمالها ، وإذن ففعل القوة الخيالية يكون فى حال النوم أكثر روحانية وأكمل فى بابه لا محالة ، لأن النفس أثناءه تعطل الحواس الظاهرة وآلاتها ، وتميل بذلك نحو الحس الباطن ، والدليل على أن القوى الباطنة أتم فعلا عند سكون القوى الخارجة ، أن الذين يكثرون من استعمال الفكر ، تميل قواهم الحسية إلى باطن البدن ، حتى يغشاهم النوم ، ولهذا كان الوحى يأتى فى حال شبيهة بالإغماء (١)

وعلى هذا الذى أسلفناه ، استقرت الفلسفة الأسلامية فى تعليل الرؤيا الصادقة ، ومنه نرى اتفاق الفلاسفة — مع استثناء الكندى — فى اتجاه التفكير وعناصره ، وإن اختلف اللون والتعبير وتصنيف العناصر

وقد تأثر بالفلاسفه فى تعليلهم للرؤيا بعض رجال الشرع ممن صنفوا فى الرؤيا (٢)

بين مذهب الفلاسفة ومذهب الصوفية فى تصوير الوحى :

ونلاحظ من عرض الاتجاهين السالفين ، أن وجهات النظر الصوفية والفلسفية فى تصوير الوحى وتعليله ، تختلف فى تفاصيلها ، وتتفق فى أصولها ،

---

(١) ابن رشد : المصدر السالف ص ٨٧ - ٨٨

(٢) قارن الشيخ ابراهيم المعروف بقصاب باشى زاده فى رسالته المنامية ص ٧ (مخطوط بدار الكتب الملكية)

فالوحى عند فلاسفة الإسلام ، اتصال النفوس الناطقة بعقول الأفلاك ونفوسها اتصالا معنويا ، يمكنها من الاطلاع – فى يقظة أو منام – على ما يتضمنه من صور الحوادث التى ترتسم فى النفس البشرية ، كما يحدث إذا حاذت مرآة مرآة أخرى ، فيها نقوش تنعكس إلى الأولى – كما يقول ابن سينا فى إشاراته .
واتجاهات الصوفية فى تصوير الوحى وإن اختلفت باختلاف مذاهبهم فى الاتحاد أو الإلهام أو وحدة الوجود ، فإنها على اتفاق مع مذهب الفلاسفة فى اعتبار الوحى إشراقا من النفس الإنسانية على حقائق الكون المثبتة فى عالم فوق عالمنا ، وإن اختلف مذهب الصوفية ومذهب الفلاسفة ، فى أن العالم العلوى عند الفلاسفة ، عقول مجردة ونفوس هى عقول الأفلاك ونفوسها ، وصور الأشياء منقوشة فيها بحكم أنها مصادر لها وأسباب لوجودها ، وبحكم أنها مجردة بطبعها ودراكة ، أما العالم العالى عند الصوفية ، ومنه يفيض الوحى والإلهام ، فهو لوح محفوظ كتب الله فيه الوجه الذى أراده ، ما كان وما يكون ، وملائكته أجسام من نور ذوو نفوس كريمة . . . الخ

ومرد الخلاف أن الفلاسفة قد فسروا النصوص الدينية بما يوافق ما استقر عندهم من نظام الكون وترتيب العوالم سفليها وعلويها ، فهم يجعلون الملائكة التى وردت فى لسان الشرع ، عبارة عن العقول المجردة والنفوس الفلكية التى أثبتتها فلسفتهم ، ويؤولون النصوص تأويلا يتفق مع أغراضهم ، أما الصوفية فإنهم يعتمدون على هذه النصوص أولا ، ثم يحاولون جهدهم أن يشرحوا مهمتها ويوفقوا بين مظاهر التضارب بينها ، مضطرين إلى الركون إلى منازع الفلسفة وإلى ما يسمونه ذوقا تقصر عنه العبارة ويدركه العارفون » (١)

---

(١) معالى أستاذنا مصطفى باشا عبد الرازق فى بحث له عن الوحى – لم ينشر بعد –
وانظر فصل اتجاهات المفكرين فى تفسير الوحى فى كتابنا : التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام

فلنحاول الآن أن نرد عناصر التفكير فى تعليل الرؤيا عند طوائف مفكرى الأسلام ، إلى أصولها التى صدرت عنها ، لنعرف الأصيل منها والدخيل فيها ، فلنتتبعها فى الدين الإسلامى والتراث الغربى والشرقى القديم :

منابع أفكارهم فى تعليل الرؤيا الصادقة :

وحسبنا من أفكارهم اعتبار النوم يقظة للنفس ، التى تستطيع إذا صفت وتجردت عن علائق الحس ، أن تتصل بالعالم العلوى ـ أو تتحد بنور الأنوار كما يقول البعض ـ وتتلق العلم بالغيب عن الملائكة ، وأن هذا الاتصال ممكن عند الفلاسفة عن طريق المخيلة ، التى تقوى فى النوم حتى تتمكن عند البعض من الاتصال بالعقل الفعال أحيانا ، فيفيض عليها هذا الغيبَ المحجب

موقف القرآن من تعليل الرؤيا :

قرر القرآن وجود النفس ، واستقلالها عن البدن ، وهيمنتها على الجسم ، إذ بغير هذا لا تستقيم أموره من بعث وحساب ونحوه ، ودعا الأسلام إلى التزام الأخلاق الجيدة ، والبعد عن الشهوات ونحوها ، وإن لم يغفل مطالب الجسم والدنيـا معا ، فتفسير الرؤيا على النحو الذى أسلفناه ، قد يتمشى مع روحه ، ولكن القرآن لم يفسر الرؤيا تفسيرا عقليا ، فردّ هذا إلى التفكير والنظر العقلى عند المسلمين ، أو اقتباسهم عن الأغيـار من المفكرين ، مع اتساق ماينتهى إليه التفكير أو يصل إليه النقل مع روح الأسلام ، الذى كانوا على اتفاق فى احترامه ، وقد ورد فى القرآن الكريم سبع رؤى ، فى يوسف أربع منها ، والخامسة وقعت لأبراهيم الخليل ، وثنتان للرسول ، وليس فى إحداها ما يمكن الباحث من تعليل الرؤيا عقليا ، فلنتتبع تفكير المسلمين فى التراث القديم ، عسى أن نجد له أصلا :

منابع التفكير الصوفى فى تراث اليونان وقدماء الشرقيين :

فى هذه الدراسة المقارنة وجه طرافة ، مردّه إلى التشابه الدقيق فى كثير

من الحالات ، بين آراء المسلمين - رجال شرع وصوفية - والتفكير الرواقى والفيثاغورى والأفلاطونى فى تعليل الرؤيا ، ثم بين آراء فلاسفة الأسلام وأرسطو بوجه خاص .

ا - موقف الرواقية من تعليلها :

فقد عرف الرواقية وغيرهم من القدماء ، اعتبار النوم يقظة للنفس ، فقالوا إن النفس أثناء النوم تكون فى أعظم حالاتها ، ففى استنام الجسم كأنه جثة فارقتها الحياة ، استيقظت النفس وقويت على ما تعجز عنه عند يقظته ، حين تكون فريسة لشهواته ، فتدب فيها الحياة والقوة عند نومه ، وبذلك تقوى على التنبؤ ، وتكون أوفر حياة وأعظم قوة ، كلما دنت من الموت ، إذ أنها تتجرد فيه كل التجرد من علائق الحس ، ومدارك البدن وشهواته ، وما النوم إلا دُنواً من هذا الموت ، يخلص النفس من الشئون الدنيوية التى تثقل كاهلها ، ويجردها من آثار الحواس البدنية ، وبذلك تدرك الغيب المحجب (١) وهذا نفسه هو رأى المسلمين فى يقظة النفس أثناء النوم الذى اعتبروه أخا للموت (٢) فالموت إذا نزل بالبدن ، ذهب الحس وزال حجابه ، واطلعت النفس على ذاتها ومعالمها ، ومن أجل هذا حاول الصوفية أن يميتوا أنفسهم موتا صناعيا (٣) ، إذ بالموت يكون تمام انكشاف الحجاب (٤) .

ومضى الرواقية فقالوا إن النفس تستطيع إبان النوم ، أن تدرك الغيب عن طريق النفوس الألهية - وهى تشبه الملائكة عند إخوان الصفاء ، والعقل الفعال عند الفلاسفة ، ونور الأنوار عند الأشراقيين من الصوفية ، والملك

---

1) Cicero : Divination 1. 29, 50.

(٢) الغزالى : الاحياء ج ٤ ص ٤٢٩ ، ٤٢٨

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٥

(٤) الغزالى : الاحياء ج ٣ ص ١٦ وكيمياء السعادة ص ١٥

الموكل عند رجال الدين — وتتلق النفس العلم بالغيب عن هذه النفوس الألهية، ولكنها لا تستطيع هذا أثناء اليقظة، لأنها تكون فريسة لمطالب البدن وأهوائه (١)، ولكن المرء إذا نام، وكان قد التزم الاعتدال وضبط النفس، وكبح الشهوات فى المأكل والمشرب، عرض لها الحديث مع هذه النفوس (٢) وبذلك تدرك الغيب دون الاستعانة بالحواس من عين أو أذن أو نحوها من أدوات المعرفة الحسية (٣). ومن أجل هذا وجب التهيؤ للنـــوم، أملا فى الرؤيا الصالحة

موقف أفلاطون والفيثاغوريين من تعليلها :

وقد كان أفلاطون على حق حين حذر على لسان سقراط، من الأسراف فى التهام الطعام والشراب، أو الأمعان فى حرمان الجسم منهما، لأن القوة الناطقة فى النفس البشرية، لا تقوى على ضبط القوتين اللاناطقتين (الشهوية والغضبية) متى أدرك الطبيعة الإنسانية إفراط أو أصابها تفريط، فأن الأفراط فى التهام الطعام والشراب يفسد الأحلام، حتى ليرى المفرط فى منامه أنه يزنى بأمه، أو يفسق فى رجل أو يسفك دما فى غير استحياء (٤)، ويلاحظ الأستاذ «تايلور» Taylor (٥) أن هذا الرأى لسقراط، أما رأى أفلاطون فتوضحه محاورة «طيماوس» التى تحط من شأن الأحلام، وتعزو الوحى فيها

---

1) Cicero, ibid. I, 48.

2) ibid, 1, 50. 3) ibid. I, 57.

4) Plato, De Rep. IX, p. 571

ويستشهد كونتوس الرواق بها فى كتاب شيشرون السالف الذكر فى الفقرة ٢٩ من الكتاب الاول ولكن (أبون) فى تعليقاته فى طبعة «جارنييه» الفرنسية يقول إن الاستشهاد ناقص وغير دقيق، ولكن «تايلور» Taylor فى مقاله بدائرة معارف الدين والاخلاق يكرر الاستشهاد باعتباره صحيحا

5) Taylor, Hastings' Encyclopedia of Religion & Ethics,

إلى الطبيعة المنحطة الناطقة (١) . ويرى « تايلور » أن من المحتمل أن ترد النظرية إلى الفيثاغورية ، وقد حرم هؤلاء على أنفسهم الأفراط فى أكل البقول، لأن هذا يولد فى المعدة الغازات ، ويؤدى إلى حال من الصراع مع النفس التى تلتمس الحقيقة ، والنوم إنما يجردها من علائق الحس ، ويمكنها من إدراك عالم الغيب (٢) ، كما كان « بلوتارك » يمنع من أكل بعض الحيوانات المائية ، وكذلك فعل بعض الأطباء (٣)

موقف أتباع الغنوصيه والأفلاطونية الجديدة :

عرض بعض المستشرقين (٤) لتأثر المسلمين - ولاسيما الصوفية منهم ، بنزعة أتباع الغنوصية والأفلاطونية الجديدة ، وقد ظهرت النزعة الأولى فى القرون الأربعة الأولى لميلاد المسيح ، وكانت تتألف من عناصر شرقية ومذاهب يونانية، ترجع إلى الفيثاغورية والأفلاطونية والرواقية ، وكانت هذه النزعة ترمى إلى الكشف عن كنه الأسرار الألهية ، عن طريق نوع من الإدراك ، يقابل ما يسميه صوفية الأسلام بالكشف - أو الحدس أو الذوق أو العيان أو نحوه من تعبيرات الصوفية ، وذهب هؤلاء المستشرقون إلى أن الفاطميين فى دعوتهم الشعبية والأسماعيلية والشيعة ونحوهم ، قد تأثروا بهذه الغنوصية فى بعض نواحى مذاهبهم . وذهب غير هؤلاء إلى أن الغنوصية قد تسللت مع الأفلاطونية الجديدة إلى أحاديث عزاها الكثيرون (من أهل التصوف خاصة) إلى الرسول، والمعروف أن الكشف عند الصوفية قد يتجاوز اليقظة إلى المنام ، فاعتبر

---

(١) أفلاطون : محاورة طيماوس ٧١ د وما بعدها

(٢) Cicero, op. cit. 1, 29. وردد صداه بوشيه لوكلير ك ص ٢٨٧ ج ١

3) Bouché-Leclercq, Histoire de la Divination, 1, p. 287.

(٤) فارن بكر Becker فى مقاله : تراث الاوائل فى الشرق والغرب ومقال =

الوحى فيهما واحداً ،وإن اختلفت رتبته على نحو ما أبنا فى الفصل السالف ، ومن أجل هذا جازلنا أن نرجح تأثر مفكرى الأسلام بالغنوصية والأفلاطونية الجديدة ، فى تعليلهم للرؤيا الصادقة ، بل لقد نص بعض هؤلاء الذين أسلفنا الإشارة إليهم ، على أن الرؤيا والنجامة والسحر والتمائم ونحوها قد تسللت إلى الهيلينيين ، ومن هؤلاء إلى التراث العربى الأسلامى ، وكانت فى الأصل تضم عناصر غنوصية (١) ، كما ذهب غير هؤلاء إلى تأثر المسلمين ولا سيما الصوفية أيضاً - بالأفلاطونية الجديدة فى موقفها من الرؤيا ونحوها من أساليب التكهن، ولعل هذا النزوع طبيعى فى كل مذهب ينصرف من العقل إلى الكشف والإلهام والحدس وما إليه ، أو يقر - على أقل تقدير - هذه الأساليب إلى جانب العقل - وقد كان «فيلون» يعتقد فى أن تطهير النفس بالعبادة ونحوها يصعد بها إلى الله ، ويمكنها من الاتحاد به ، واعتقد «أفلوطين» بأن هذا الاتحاد لا يجيء بالعقل ، بل بالخلاص من المادة التى هى مصدر ما فى النفس من شر ونقص ، فإذا وقع الاتحاد افتقد الوحى ، وأصبح أصحاب هذا فى حالة جذب ، يستطيعون أن يتذكروه فيما بعد (التاسوعة السادسة — الرسالة التاسعة) وهكذا تجاوزت الأفلاطونية المحدثة ، مجال النظر العقلى ، إلى مجال الكشف والجذب ، مما تردد صداه عند جمهرة المسلمين ، ولا سيما الصوفية منهم ، إذ نقل المسلمون بعض التاسوعات (الرابعة والخامسة والسادسة) باعتبارها من إلهيات أرسطو ، ويشهد بهذا كتاب (أوتولوجيا أرسطو) الذى أثر تأثيراً بالغاً فى الفلسفة والإلهيات التى تلت ترجمته (٢)

(تكملة هامش الصفحة السابقة) — جلد تسيهر عن العناصر الغنوصية والافلاطونية فى الحديث (فى ترجمة صديقنا الدكتور عبد الرحمن بدوى فى التراث اليونانى)

(١) مقال « بكر » السالف ص ١٣

(٢) قارن ترجمتى العربية للفلسفة والألهيات (لألفرد غليوم A. Guilaume) فى كتاب تراث الاسلام ص ٢٥٣ — ٢٥٤ — نشرته لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦

ويظهر أن الكثير من هذه الأفكار ليس أصيلا عند فلاسفة اليونان ، فالرواقية يستشهدون بأفلاطون وسقراط والفيثاغوريين ، وبعض مؤرخى الأحلام يرون أن آراء هؤلاء مردها إلى أصل « أورفى » أو مصرى قديم

منابع هذه الأفكار اليونانية فى التراث الشرق

أصولها فى الديانة الأورفية :

ويلاحظ الأستاذ « تايلور » أن الأحلام المهمة التى تعزى إلى سقراط ، فى محاورتى كريتون وفيدروس لأفلاطون ، ترد من غير شك إلى أصل أورفى وفيثاغورى معا ، فمن ذلك أن السفينة التى ترامت فى حلم سقراط وهو فى سجنه ، عائدة من Delos منبئة بأنه سيموت بعد أيام ثلاثة (١) هى نفس الزورق الذى أرسله الأله العظيم « أبولو » من هذه الجزيرة إلى الفيثاغوريين. والرؤيا التى أشارت على سقراط بمزاولة الموسيق ، قد انحدرت عن المصدر نفسه فيما يقول ديوجانس اللايرتى (٢)

والظاهر فيما يشير تايلور نفسه ، أن نظرية الفيثاغوريين هى التى تسللت إلى الرواقيين ، ولكن من أين جاءت نظرية الفيثاغوريين نفسها . . . ؟ من الواضح أن نظريتهم فى التنبؤ أثناء النوم ، هى نفسها النظرية الأرفية بعد أن تهذبت ودبت فيها الروح ، شأنها شأن سائر الأفكار الأورفية الأخرى ، وفى الحق إن الاعتقاد فى الرؤيا الصادقة وطبيعتها الإلهية ، يبدو واضحا فى الديانة الأورفية وسليلتها التى انحدرت عنها ، أى الفلسفة الفيثاغورية ، والثابت أن الأورفية قد اتصلت باليونان كما اتصلت بغيرهم من قدماء الشرقيين ، هنودآ

---

(١) ورد الحلم فى محاورة « كريتون » أو أقريطون ، ورردده « كونتوس » الرواقى فى الفقرة الخامسة والعشرين من الكتاب الاول لشيشرون

(٢) ديوجانس اللايرتى ج ٢ ص ٤٣

كانوا أو فرسا أو مصريين . . . وتتلخص نظرية هـذه الديانة فى الرؤيا فيما يلى :—

إن الجسم مقبرة الروح ، وهذه الروح ـ النفس ـ لا تستيقظ وتدب فيها الحياة الصادقة إلا متى تجردت من علائق الجسد ، وقد يكون هذا أثناء النوم، فتتصل بالكائنات الخالدة ـ النفوس الألهية عند الرواقية ـ وتتبادل الحديث معها ،وتتلقى من السماء مراسلات ليس من السهل أن تصل إليها نهارا . وتبدو هـذه النظرية بصفة خاصة عند « بندار » و « اسخيلوس » اللذين كانا على اتصال بالأورفية والفيثاغورية ، فيقول « بندار » فى فقرة معروفة له ، إن النفس تنام عند مايكون الجسم نشيطا فعالا ، فإذا نام الجسم ، استيقظت النفس وتجلت يقظتها فى كثير من الرؤى .ويقرر « اسخيلوس » بأن عين النفس إبان النوم تزداد ضياء ، ولكنها أثناء النهار لا تتنبأ بقضاء الإنسان، كما أن اتصال النفس بالآلهة ـ عند أفلاطون ـ والتحدث معهم ليلا ونهاراً ، يرجع كذلك إلى أصل أورفى (١) ولعل من العدالة أن نشير إلى أن الهمج قد اهتدوا إلى بعض عناصر هذه الأفكار ، كقولهم إن نوم الجسم عطلة للروح ، وأنه يشبه الموت من حيث إن النفس تستطيع إبانه أن تصعد إلى مكان الأرواح فى السماء ، وتكون حرة من قيود الزمان والمكان (٢) . ومن المؤرخين من ذكر فى مجال الحديث عن موقف فيثاغور من الرؤيا الصادقة ، أنه كان تلميذ المصريين ، وأنه لقن عقيدته إلى مدرسته من بعده (٣)

والأفكار إنما تنتقل بالعدوى هنا وهناك ، وإذا لم تصلح بعض العقول لحياتها ، وجدت الأفكار فى بعضها الآخر خير مهاد ، ومن طبيعتها أن تتخذ

---

1) Taylor, Hastings' op. cit.

2) A. Lang., Hastings' ibid.

3) Bouché-Leclercq, Hist. de la Divination, I. p. 287

لون المكان الذى تنزل به ، وتقبل الغذاء الذى يقدم لها ، فيغير من أعراضها ولكنه يبقى على جوهرها .

تعليل فلاسفة الإسلام فى تراث أرسطو

أما عن اتجاه فلاسفة الأسلام فى تعليل الرؤيا ، ففيه جانبان : أحدهما منقول فيما يرجع عن أرسطو نقلا ، والثانى من إبداع فلاسفة الأسلام ، فأما الجزء المنقول فهو ما اتصل بالمخيلة - الاستحضارية والأبداعية فيما يسميها علماء النفس - وأثرها فى تشكيل الأحـلام ، وقد عرفنا أمر هذا عند تعليل أضغاث الأحلام .

مدى تأثر الكندى بأرسطو فى تعليل الرؤيا :

ويظهر أثر أرسطو بأجلى صوره ، فى تحديد الكندى لعمل الحس والنطق والمخيلة من قوى النفس ، وقد بلغ التشابه - فى هذا وفى غيره - حدا جعل بعض المؤرخين يقول : إن رسالة الكندى ترجمة لرسالة أرسطو ، مع أن الكندى وإن بدأ أرسطاطاليسيا ، فقد انتهى عند الشروع فى تعليل الرؤيا الصادقة إلى أن يكون مزاجا من الفيثاغورية والأفلاطونيه والرواقية المتأثرة بالأورفية على ما عرفنا الآن ، ولم يكن هذا بغريب عليه ، فقد ألف فى الفيثاغورية المحدثة والأفلاطونية المحدثة اللتين تأثرتا بروح الشرق القديم .

أما إنه كان ناقلا عن أرسطو ، فيشهد به ما أسلفناه فى أضغاث الأحلام ، حين انتهينا إلى أن أرسطو يعتبر الرؤيا ضربا من التخيل يقع أثناء النوم ، مرده إلى صور ذهنية لأحساسات تصاحب النوم أو تسبقه ، والمخيلة تحتفظ بهذه الصور وتشكلها أحلاما . . . الخ ، ولكن الكندى حين يشرف مع أرسطو على الرؤيا الصادقة ، ينصرف عنه إلى تأييدها على النحو الذى أسلفناه ، أما أرسطو فيقف منها موقف الحذر والتردد ، ويقرر بأن بعض الأحلام يصدق

ولكنه لا يجد تعليلا لدلالته على الغيب ، ويرى فى الأحلام ثلاثة وجوه :

١ ـ أن يكون علة للغيب ، بالمعنى الذى يكون فيه القمر علة لكسوف الشمس ، أو يكون فيه التعب علة للحمى ـ ٢ ـ أو أن يكون الحلم علامة للغيب ، بالمعنى الذى يكون فيه دخول نجم فى منطقة الظل علامة على الكسوف ، أو تكون فيه خشونة اللسان علامة على الحمى ـ ٣ ـ أو يصدق الحلم اتفاقا ومصادفة ، كما يقع أحيانا أن تنكسف الشمس والإنسان يتريض فى نزهة ، فلا تكون هناك صلة بين هذه الرياضة وذلك الكسوف ، ومن أجل هذا لا تقع المصادفة بموجب قانون عام (١) .

وقد رد أرسطو تحقق الأحلام إلى أربعة احتمالات (٢) : أولها مجرد المصادفة ، وهو على سبيل ما يقع أحيانا حين تذكر شيئا فإذا هو يحدث بذاته (٣) . وثانيها : أن الأحساسات تكبر فى الأحلام ، ومن أجل هذا قد يتنبأ الحلم بمرض أو موت أو شفاء ، ومرجع هذا إلى إحساس الحالم باضطرابات عضوية دقيقة ، لا يشعر بها أثناء اليقظة (٤) ، وثالثها وجود فعل كان إيحاء بعمل ما ، فاستولى الأيحاء على الحالم وهيمن على شعوره بعد يقظته حتى تحقق . ورابعها ما يتصل بأصدقائنا وأحوالهم ، فأن تحققها يعزى إلى اهتمامنا بشئونهم ، ونفس النائم تكون حساسة بالاضطرابات التى تحيط بهم (٥) .

---

1) Aristotle, De Divinatione per somnum 462 B & 463 A.

2) A, Lang & A.E . Taylor, Hastings' op. cit. 3) ibid. 463 B

(٤) سلم الطب القديم (ابقراط وجالينوس وغيرهما) بأن الحلم يتكهن بأمراض الجسم (شارل أبون فى تعليقاته على الفقرة ٦٩ من الكتاب الثانى فى شيشرن) وقد عاد المحدثون إلى رأى أرسطو فى أن مثل هذا الحلم يكون إعلانا عن خلل موجود ولكنه غير مشعور به ، وليس انذارا بوقوعه فى المستقبل (قارن: A. Tridon p. 112 وفى ص ١٠٧ ـ ١١٠ أمثلة كثيرة) وكذلك « فرويد » فى كتابه عن « تأويل الاحلام » ص ٢ و ٢٧ وغيرها من الصفحات » ورأى أرسطو موجود فى De Div. per somnum, 463 A.

5) Aristotle, op. cit. 11, 464 A.

وليس من المعقول عند أرسطو ، أن يرد صدق مثل هذه الأحلام إلى فاعلية الآله المباشرة ووحيه ، فأن من السخف أن يبعث الله بهذه الأحلام ، إلى قوم ليسوا خير الناس ولا أحكمهم (١) ، إن هذه الأحلام التنبؤية تقع لصنف وضيع من الناس ، فكيف يعقل أن يكون الله مرسلها (٢) ، وهى أكثر ما تدل على المستقبل ، حين تصدرعن طغام الناس ، وهى لاتهبط عليهم من عند الله ، لأن أمزجتهم سريعة التهيج مما يكثر تصوراتهم ، فأذا اتفق لهم وقوع رؤيا صادقة ، كان هذا من قبيل ما يحدث للمقامر الذى يخسر ، فيلعب ويسرف فى اللعب ، وقد تغير كثرة اللعب من حظه ، فيصادفه الربح (٣) .

هذا هو موقف أرسطو من الرؤيا الصادقة ، وهو موقف لا يتمشى مع وجهة النظر الأسلامية ، فلم يأخذ بها الفلاسفة ، وراح الكندى يقول عن أحلام عامة الناس ، إنها لا تدل على شيء صراحة أو تأويلا ، ولا تدل على ضده ، لأن عقولهم من الفوضى والاضطراب بحيث يخلطون أفكارهم فى النوم كما يخلطونها فى اليقظة .

وهذه الفقرة الأخيرة توحى بأن المنطق أداة التنبؤ فى الأحلام ، مع أن الكندى قد رد الأحلام إلى المخيلة ، لا إلى قوة النطق ولا قوة الحس - كما عرفنا من قبل - ولعل مرد التناقض أنه أخذ القول بالمخيلة عن أرسطو ، فلما افترق عنه وحاول تفسير الرؤيا الصادقة ، أحاطها بهالة من التقدير ، وحرم منها عامة الناس تمشيا مع هذا الاحترام ، واضطر لتفسير هذا أن يناقض نفسه ، فيرد وقوع الرؤيا إلى العقل المنظم المرتب فى النوم واليقظة على السواء . . !

---

1) idib 462 B. 2) ibid 463 B.

3) ibid 463 B.

مدى تأثر الفارابى وابن سينا بأرسطو فى تعليلها :

هذا عن الكندى ، أما عن الفارابى فأنه تأثر بأرسطو ، وروج لمختلف تعاليمه ، حتى أقام سلطانه فى الفلسفة الأسلامية ، كما أقام حنين بن اسحاق سلطان « جالينوس » فى طب العصور الوسطى ، فيما يقول « ماكس مايرهوف » وقد ألمعنا إلى أن الفارابى قد حاكى أرسطو فيما اتصل بتعليل الأحلام الباطلة فى عرف المسلمين ، أما عن تعليل الرؤيا الصادقة فقد أبدع الجانب المبتكر فى نظريته لأول مرة فى تاريخ الفلسفة ، وتردد صداه أو تأثر به غيره من فلاسفة الأسلام وأهل التصوف ، وقد عرفنا موقف ابن سينا على وجه الخصوص .

مدى تأثر ابن رشد بأرسطو فى تعليلها :

أما ابن رشد فأنا نلاحظ أنه كان أرسطاطاليسيا ، فيما اتصل بالأحلام الباطلة ، فهو حقيقة يلخص عن أرسطو ـ كما ورد فى كتابه ـ وقد عرضنا رأيه فى تعليل أضغاث الأحلام ، أما فى الرؤيا الصادقة فأنه يتحول « فارابيا » إلى حد كبير ، ونحن نستند فى تقرير هذا الرأى على ما أسلفنا من آرائه ، فى تعليل الرؤيا الصادقة .

هذا هو موقف مفكرى الأسلام من تراث القدامى غربيين وشرقيين ، وهذا هو مدى ما أخذوه عنه ، ومبلغ ما أضافوه اليه ، على أن هذا لا يمكننا من الحكم الصحيح على هذا التراث ، وأذا شئنا أن نعرف مكانه فى مجال التفكير الانسانى فى هذا الموضوع ، وجب أن نعرف موقف المحدثين من علماء النفس فى هذا الصدد :

موقف علم النفس الحديث من تعليل الرؤيا :

أشرنا عند الكلام على منابع الأحلام فى علم النفس الحديث ، إلى المؤثرات

الحسية والنفسية التى تؤدى إلى نشأة الأحلام وتكونها ، واقتصرنا على هذا تمشيا مع ما يقتضيه الموضوع الذى كنا بصدده إذ ذاك ، وليس حديثنا التالى إلا تتمة لما ذكرناه هناك ، فأن المحدثين إجمالا لا يسلمون بالرؤيا الصادقة التى قيل إنها وحى من الله ، ولهم فى تفسيرها مايغرى بأنكار الجانب الألهى فيها، فلنعرض موقفهم من تحققها موجزين :

علاقة الحالم بالفنان :

الأبداع .invention فى الحلم كالأبداع فى الفن ، ليس فى كليهما خلق .creation من عدم ، إنما تمر بالفنان الأحداث ، وتتعاقب عليه الصور طوال حياته ، فتترك فى ذاته اللاواعية آثارها ، وقد لا يذكر منها ما كان فى مجال شعوره ، ويغشى النسيان أثرها ولا يقوى على تذكر شىء إلا ما كان منها فى هامش وعيه ، فإذا هم بأبداع قطعة فنية ، استثار ماسبق أن مر به من ذكريات وصور وآثار ، وربما ثار هذا وحده دون أن يتحرى إثارته ، ثم ألف بين العناصر الضرورية لتنشئة صورته الفنية ، ثم نفخ فيها من روحه ، فاستوت آية فنية رائعة ، ويكون الجديد فيها أن العناصر الجديدة قد اكتسبت وظائف جديدة ، وقد يحسب وهما أنه ابتكر عنصرا أو منظرا فى القطعة الفنية التى أنشأها ، دون أن يشهد لها من قبل صورة أو يقرأ عنها شيئا ، وكذلك الحال مع الحالم .

تفسير الجديد فى الحلم :

ليس فى الأحلام خلق من عدم ، إنما تنبىء الأحلام عن البيئة الثقافية التى يتنفس المرء نسماتها ، كما يقول « لنكولن » وهى تعبر عن غرائزه وثقافته وسابق تجاربه واختباراته التى استقرت فى مستودعها ، وربما لا يذكرها الحالم ولا يعلم من أمرها شيئا ، وكل ما فى الحلم من معرفة حدسية intuitive - مهما

كانت غرابتها على الوعى - إنما هى ثمرة خبرة ماضية ، وصدى تجربة شخصية ، وليس المقصود الأحداث السابقة وحدها ، وإنمـــا تراد الحالات العاطفية والأحساسات الجسدية التى تلازمها - مؤلمة كانت أو سارة - وكما يفيد الفنان من خبراته المنسية دون وعى منه أو انتباه ، ومن غير أن يفطن إلى أن هذه المعرفة السابقة جزء من خياله المبدع ، فكذلك الحالم ، وما أكثر الشواهد على صحة هذا عند المحدثين من علماء النفس - فمن ذلك أن أحد المرضى قدم صورة تخطيطية من رسمه إلى « شارب » زاعما أنها تشبه بعض الشبه منظرا رآه من قبل ، إلا أن فى وسط الوادى صخرة من إبداعه وخلقه ، لأنه لم ير لها مثيلا من قبل ، وبعد عام كانت « شارب » تحلل مجموعة من أحـلامه . فظهر فى كل منها سيدتان ، وعند بحث الدلالة التى يحملها وجودهما فى كل حلم ، قال المريض إنه لقى الأولى منهما فى الرابعة من عمره ، ولا يذكر إلا أنه يبغضها ، وقال إنه يذكر أن فى المـكان الذى لقيها فيه ، صخرة ضخمة منفردة تقوم فى وسطه ، وبهذا ظهر أن الخبرة المنسية التى تهيأت له فى الرابعة من عمره ، قد ظهرت فى الصورة التى أنشأها دون وعى منه بحقيقتها (١)

وروى آرشر ما يؤيد هذا الرأى ، الذى يقرر بأن الجديد فى الأحلام ليس إلا خبرات وتجارب عفى عليها النســيان ، ويستشـهد بأمثلة تؤيد ما يقول (٢)

ويقرر هـذا « تريدون » فيقول إن المرء إذا همّ بحل مشكلة إبان يقظته ، صعدت إلى وعيه حقائق تكون مختزنة فى جهازه العصبي (٣) ، وتفيده فى حل مشاكله . والظاهر أن خبرات المرء لا تنعدم صورها ، وهى مصدر ما نرى من أحلام نتوهم أن فيها تـكهناً بالغيب . وقد روى « مورى » Maury أن رجلا كان فى طفولته كثيرا ما يزور قرية تجاور المدينة التى نشـأ فيها . فرأى

(1 E. F. Sharpe : Dream Analysis, P. 14-16.

2) W. Archer : On Dreams p. 4-6.

(٣) اختزان صور التجارب ونحوها فى الجهاز العصبي ، رأى قديم لا يسلم به المعاصرون

فى حلمه ذات ليلة أنه زار هذه القرية ، ولقى رجلا سأله عن اسمه ، وعرف أنه حارس الجسر هناك ، وقد زعم بأنه كان صديقا وفيا لأبيه ، فلما استيقظ عرف من خادمته العجوز ، أنه كان حارس الجسر الذى شاده أبوه ، ولكن كر السنين المتعاقبة قد أنساه أمره ، وكان الرجل الذى لقيه فى اليقظة عند زيارته للمدينة ، يكبر الطيف الذى رآه فى حلمه ، وهذا طبيعى لأنه رأى صاحب الطيف منذ ربع قرن من الزمان (١) . وفى آثار جمعية الأبحاث السيكولوجية (الروحانية ـ تحضير الأرواح) Proceedings of the Society of Psychical Researches كثير من الأمثلة الرائعة التى تبدو أمام المبتدىء معجزة فى دلالتها على الغيب المحجب ، ولكنها سرعان ما تذوب أمام التأويل العلمى الحديث (٢) . وكذلك يقال فى تجارب غير «مورى» من العلماء من أمثال «دلبوف» Delboeuf و «مايرز» Myers «وفرويد» وغيرهم من المشتغلين بدراسة الأحلام ، فالمعروف أن الحلم إنما يستقى مادته من خبرات وتجارب تثار إبانه ، هذه حقيقة لا تقبل جدلا ، وجهل الحالم بمصدر الحلم ، كثيرا ما يكون مصدره نسيان هذه التجارب ، وكل من يشتغل بالأحلام سيتحقق من غير شك ، بأن الحلم يبرهن على وجود معلومات ومواد يجهلها صاحب الحلم فى يقظته (٣) ، ومن المصادر التى تنبع منها مادة الحلم المنسية ، التى لا تظهر فى اليقظة ولا تستخدم فى الوعى ، والتجارب التى وقعت للمرء فى عهد طفولته . وقد لاحظ هذا «هلدبرانت» : Hildebrandt و «فلكلت» : Volkelt و «شترومبل» Strümpell الذى يرى بأن هذه المادة لا تقتصر على ما كان ذا أثر فى الوعى ، أو ما طبع فى النفس أثراً قوياً لا يمّحى ، بل يرى على العكس من هذا أن فى أعماق ذاكرة

---

1) Maury, Le Sommeil et les rêves, p. 92.

وقد روى هذه الحادثة أندريه تريدون فى كتابه : النوم والاحلام ص٨٨ – ووليام آرشر فى كتابه السالف ص ٤–٥ ، وسيجموند فرويد فى كتابه تأويل الاحلام ص ١٢

2) A. Tridon : Sleep & Dreams, P. 88

3) Freud, Interpretation of Dreams p. 7 ff

الأحلام صوراً وأماكن وتجارب قديمة العهد ، قد مرت بالمرء وهو ضعيف الشعور بها . وليست ذات قيمة نفسية إطلاقاً . فإذا ظهرت فى الحلم هذه العناصر المنسية منذ زمان طويل ، بدت غريبة كل الغرابة ، وظل صاحبها على جهل بها حتى يكشف التحليل أصولها - بل إن من العلماء من يرى أن هذه التجارب المنسية التى فقدت قيمتها بالنسبة إلينا ، تصرع الخبرات الحديثة التى انصرف إليها نشاطنا العقلى بأرادتنا ، والتى أثارت عواطفنا فى عمق ، وتبدو - هذه التجارب القديمة المنسية - فى الأحلام دونها (١) . وهكذا يستغرق الذاكرة فى حال النوم نشاط ملحوظ ، فالمنظر الذى يراه المرء عرضاً أثناء رحلته وينساه ، وهو ماض فى قطاره أو عربته ، يتكرر فى الأحلام حاملا معه كثيراً من التفاصيل ، وربما انطبع فى ذاكرة الأحلام أعواماً طوالا - يقول «جرينوود» Greenwood « إن من الغريب ولكنه الحق الذى لا ريب فيه » أن فى وسع الذاكرة أن تسجل وقع الأحساس بالأشياء التى تتخطاها العين دون أن تقف عندها طويلا ، أو تهتم بمعرفتها كثيراً ، وقد اعتبرت الذاكرة - فى رأى قديم - بناء يشيد كيان العلم ، والخيال مهندساً معمارياً لا يقيم من العدم بناء أو جسراً ، ولكنه يرسم التصميم ويضع خطة العمل - ويتناول كل ما تقدمه الذاكرة من حقائق ومؤثرات ، ويصل بعضه بالبعض الآخر » ويستغله فى خلق بيئة جديدة أمام عيوننا ، إنه يستخدم ما سبق أن رأيناه عجلين فى رحلاتنا ، وقرأناه مسرعين فى كتبنا ، وما سمعناه بآذاننا ، ويستغله فى خلق أشخاص وتكوين عالم مخالف لما نعرفه كل المخالفة ، فليس من شىء يستحوذ على نفوسنا مرة ، يمكن أن يزول أثره تماماً - فيما يقول «شولز» Scholz ، أو كما يقول «دلبوف» : إن كل إحساس - حتى ما ينعدم مغزاه - لا بد أن يترك أثراً لا يقبل التغير أو الفساد ، ويحملنا على التسليم بهذه النتيجة كثير من الشواهد الباثولوجية فى حياتنا النفسية ،

---

1) Freud, p. 7-16

فيما يقول فرويد، وقد أحسن تصوير العمليات التى ينتقل عن طريقها المضمون الكامن للحلم إلى مضمونه الصريح، وسنعرض لبيانها عند الحديث على مذهبه فى تأويل الأحلام، فى الفصل الثانى من الباب الذى عقدناه على «علم التعبير».

حل المسائل فى الأحلام :

وكثيرا ما يوفق النائم إلى حل مسألة عجز عن الاهتداء إليها فى يقظته، وكم وقع هذا حتى لرجال الرياضة من أمثال «كوندرسيه» Condorcet وقد كانت «فورستر» وهى طالبة تضع إلى جانب سريرها ورقة لتكتب فيها جواب ما عجزت عن حله من المسائل فى يقظتها، وكان «فابر» Henri Fabre. يقول مؤيدا هذا الرأى — «إن وميضا لامعا يتألق فى مخه، فيثب من سريره، ويشعل مصباحه ويسجل الحل مخافة أن يضيع من ذاكرته، إن هذا الوميض كضوء البرق، يختفى فجأة كما يظهر فجأة» مثل هذه الأحلام تعتمد على الاستبصار insight. أو الحدس iutuition. ويتهيأ لرجال الأدب، وكثيرا ما يقع عند العلماء، ولكن «برجسون»، يقول فى مقال له فى المجلة العلمية (١)، إن هذا النوع من الأحلام لا يقع للنيام على التحقيق، وأن الحالم قد يكون فى حالة نفسية يصعب معها الحكم بأنه نائم أو يقظ، لأن العقل «عندما يخلق، وحينما يكون قادرا على بذل جهد يمكنه من التنظيم والتركيب، الذى يهيئه للتغلب على صعوبة ما، أو لحل مشكلة ما، أو لإنتاج عمل للخيال، لا نكون فى مثل هذه الحال نياما (٢) ولعلنا لانجد فى هذه الملاحظة ما يغرى بتأييدها، فأن القصاص أو العالم الذى يجد فى منامه، تتمة قصة أو حل مسألة كان منصرفا إليها فى يقظته، لا بد أنه كان يفكر فيها طويلا قبل نومه، ولما نام انتظمت أفكاره، فظهر

---

(١) صدرت فى باريس فى يونية ١٩٠١

2) M. Forster, op. cit,ch. 6

الحل المطلوب وكأنه إلهام قد انبثق فى نفس النائم الحالم. فالمفاجأة فى هذه الحال خداع معناه أنه لا يشعر بهذه الأفكار - أو المقدمات - التى هربت من سجن اللاوعى أثناء النوم، وظهرت قوية فوق لجة الأحلام بغتة، فتوهمها صاحبها وحيا وإلهاما، وما هى من ذلك فى كثير ولا قليل، وحشر الاستبصار والحدس والإلهام، والتحدث عن الوميض الذى يظهر فجأة ويختفى بغتة، يعتبر - إن أريد به التعبير عن التكهن فى الأحلام - تطاولا فى منطق التأويل، فأن الخيال متى توافرت لديه الحقائق الضرورية فى حل مسألة ما، عاون عقل الحالم على الاهتداء إلى النتائج الصحيحة، والمادة الناقصة هى التى تؤدى إلى الاستدلالات الفاسدة فيما يذهب البعض (١).

ولكن ينبغى أن نلاحظ بعد هذا كله، أن الحل عملية عقلية محضة، لأنه ليس إلا إدراكا لعلاقات، وإدراك العلاقات لا يكون فى النوم أبدا، لأنه من شأن العقل الواعى وحده، وإنما يقع الحل فى الأحلام عندما تختمر الأفكار وتنضج، ويسقط غير الرئيسى من العناصر، بزوال التعب والسكون إلى الراحة، فيكون هذا تمهيدا للحل الذى يقع إبان الأحلام، وهذا رأى قد انتهى إليه « برجسون » فى محاضرته التى أسلفنا الإشارة إليها. إذ عرض للأحلام التى يتم فيها عمل فنى أو أدبى أو علمى، وعقب قائلا إن مخيلة النائم كثيرا ما تضيف للحلم - عقب اليقظة - أشياء ليست فيه، وتسد ما فيه من فجوات، بفاعلية رجعية يعرفها أهل هذا البحث، وعرض لقول « ستفنسن » أنه صور أغرب قصصه فى أحلامه، وقال إن حالته النفسية - حسب وصفه - لا تمكن من الجزم بأنه كان نائما، وأكد بأن الانسان لا يكون فى حال نوم، عند ما يضطلع بحل مسألة أو إنشاء عمل . . .

---

1) Forster, op. cit. P. 126.

المصادفة والأعداد العقلى الماطق السابق

فأذا سلمنا بهذا ، وعرفنا وجه التشابه بين الحالم والفنان ، تيسر لنا تأويل الكثير مما نظنه من أثر الوحى أو الألهام ، فيما يسمونه رؤيا صادقة ، فأن مثل هذه الرؤيا الصادقة ، قابل للتأويل العلمى الذى يرده إلى علله الصحيحة ، فأن عجز العقل عن الاهتداء إلى علته ، لم ينهض عجزه دليلا على أنه وُجد بغير علة ، وإنما يكون هذا دليلا على عجز العقل عن استقصاء النفس وسبر أغوارها ، ومعرفة المحجب من مكنوناتها ، وقد عرض العلماء لتأويل الكثير من هذه الرؤى ، فمن ذلك أن « تريدون » افتقد ذات يوم وثائق كانت لأبيه ، وقد أفرغ وسعه فى البحث عنها على غير طائل ، فلما سكن إلى فراشه ، رأى فى منامه طيف أبيه ينبئه بأن الوثائق فى قمطر مكتب عيّنه له ، ولما استيقظ وجدها كما قال الطيف . . ! وفسر « تريدون » هذه الظاهرة بما لا يخرج عما أسلفناه(١) وأشباه هذه الرؤى كثيرة .

وقد صدق الأستاذ « بير » I. H. Pear, حين قال « إن عالم العقل يسير على نفس النسق الذى يجرى عليه الجسم ، وقد نشأت كل الأحداث العقلية عن أخرى كانت علة وجودها لا محالة » بل إن هذه القاعدة فيما يقول « آرشر » لا تشمل العقل وحده ، وإنما تستوعب المجتمع كله ، وما من ظاهرة إلا وهى معلول لعلة تدور معها وجودا وعدما . وقد كان « فرويد » وأتباعه على حق ، عندما أصروا على استبعاد افتراض المصادفة علة للأحلام ، لأن التسليم بها يهدم النظرية التى أجهدوا أنفسهم فى إقامتها ، وقد نحى « فرويد » المصادفة حتى قال إن أخطاء اللسان وزلات القلم وهفوات الذاكرة وما إليها ، كالأوهام المجسمة (٢) فى الأحلام ، مردها إلى علل دفينة فى النفس (٣) .

---

1) A. Tridon, Sleep & Dreams, P. 86 ff.

2) Hallucinations توهم أشياء لا وجود لها فى صورة أشباح مجسمة .

3) W. Archer, op. cit. ch. 6 P. 77 ff.

ثابتة لا تتغير بتغير المكان أو الزمان . . . !

وهذه القواعد الكلية تفضى إلى نتائج لها خطرها فى فن التعبير ، و أكبرها قيمة ضرورة اتصال المعبر بصاحب الرؤيا ، والاستفسار منه عن كافة أحواله، ثم ماينبغى توافره فى المعبر، من سعة الاطلاع على ثقافات أفراد الأمة فى مختلف عصورها ، بل ضرورة إلمامة بها عند كافة الشعوب . . ! فلتوضح الحديث فى هذا ، عسى أن يضح فيه غامض ما ، أو يتكشف جديد يفضى إليه الحديث .

تفسير القوانين السالفة :

حين تتصل المعانى بالخيال يصبها هذا فى رموز ، لايخلقها من عدم ، وإنما يستمدها من مدركات حسية ، وقعت للنائم فى سالف حياته ، ومن أجل هذا ذهب البعض إلى القول بأن من العسير على خيال الكفيف ، أن يصور المعانى فى بحار أو جبال أو نحوها من المرئيات ، إلا إذا كان فقد البصر قد طرأ عليه بعد معرفته لهذه المحسوسات ، وربما صورها له الخيال فى صورة مسموعات أو مشمومات (١) . على أن الأدنى إلى الصواب أن يقال إن من ولد كفيفا ، يستطيع أن يتصور المرئيات متى كانت صفاتها قد انتقلت إليه من قبل ، أليس السمع من مدركات الحس . . . ؟ ولقد روى أرسطو عن بعض القدماء أنهم كانوا يصورون أشياء نقلت اليهم بالسماع ، دون أن يكونوا قد شاهدوها من قبل ، فأذا اختبرت صورهم وضح صدق تصورهم ، وبهذا يمكن لمن لم ير الفيل أن يتصور صورته (٢) . وعلى هذا فأن الرمز الذى يتمثل فى الحلم ، ينبع من مدركات حسية وقعت للنائم من قبل ، ولا يظهر عفوا أبدا ، فخيال الصوفى يتمثل بمعانيه فى أوراد وأدعية وصيام وقيام ليل ونحوه ، ومثل هـــذا يقال فى غيره من سائر الناس .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٦ — ٤١٧
(٢) ابن رشد : الحاس والمحسوس ص ٧٣

دعوة التخاطر (١) ومناقشتها :

وإذا كان الذين يؤيدون التخاطر يزعمون أن التجارب الشعورية المعقدة تنتقل من عقل إلى عقل ، بغير المألوف من طرق الحس ، ومن غير أن يسبقها إعداد عقلى أو تهيؤ عاطفى (٢) فأن هذا لايسلم به العلم ، إنهم يقولون إن الأحساسات impressions أيا كان نوعها ، تنتقل من عقل إلى عقل دون وسيط حسى ، وقد اعتبر هذا فى بعض الأوقات تعبيرا عن اللغة التى يتخاطب بها الملائكة فيما تشير « مونتيث » وأكبر الظن أن التهيؤ العاطفى أو الأعداد العقلى قد وقع للنائم فى ماضى حياته البعيد أو القريب ، ولكنه نسى ذلك لبعد عهده به ، أو لأنه لا يحفل به كثيراً . بل يقول البعض إن هذا الأعداد قد يقع للأنسان فى غفلة من عقله الواعى ، عندئذ يكون إصرار الحالم على أن هذا الأعداد لم يقع أبدا ، تعنتاً لا مبرر له . والأحلام التى تظهر فيها أطياف الموتى مردّها إلى ما تنطوى عليه النفس من تيارات المحبة والكراهية ، وفى ضوء هذا الذى أسلفناه ، نستطيع فى يسر أن نؤول جميع ما ورد عند مؤيدى الرؤيا الصادقة

بل لعل من الخير بعد هذا كله ، أن نقرر وجود المصادفة فى الأحلام ، كما نقرها راضين أو مكرهين فى دنيانا الواعية ، وربما كان « آرشر » على حق فى قوله إن تسليمنا بالمصادفة يؤدى إلى رفض كل نظرية تقال فى الأحلام (٣) ولكن هذا نفسه ينسحب على نظريات العلم فى حياة اليقظة ، فأن قواعد العلم لا تحترم الشذوذ ولا تستقيم مع المصادفات ، وربما كان من الحق أن يقال

---

(١) التخاطر ترجمة لكلمة Telepathy (عن الدكتور يوسف مراد فى العدد الاول من مجلة علم النفس ص ١٠٢–٣ حيث يميز بينها وبين الاستشفاف Clairvoyance بأنواعه ، وقراءة الافكار Mind-reading والقراءة العضلية أو نقل الافكار

2) M. Montieth , True Dreams, p. 90. بل الفصل السادس كله

3) W. Archer, p. 51

إن المصادفة فى حياة اليقظة قائمة لا سبيل إلى إنكارها ، فلماذا تنكرها فى حياة النوم . . ؟ إن « تريدون » يروى عن نفسه فى معرض دحضه للتخاطر ، أنه كان فى بعض الأحايين يرفع سماعة التليفون ليطلب صديقا له ، فإذا بهذا الصديق نفسه يطلبه فى نفس اللحظة دون اتفاق سابق ، ومع ذلك فقد اتفق مع صديق له مرات على أن يتصل به عقليا فى وقت محدد ، فلم يصبهما التوفيق فى هذا ولا مرة (١) . فالمسألة إذن مجرد مصادفة ، وما دامت المصادفة قائمة فلماذا لا نفسر بها بعض ما نظنه صادقا من أحلامنا . . . ؟

قانون الجهد المعكوس :

والمعروف عند المحدثين أن للأيحاء والاستهواء الذاتى خطره العظيم فى تصرفاتنا وسلوكنا إجمالا ، ومن منا لم يجرب فى حياته صدق قانون الجهـــد المعكوس Law of Reversed Effort الذى وضعه « كويه » Coué وروج له « بودوان » Baudouin ومن إليه . . ؟ إن القانون يقول : إذا احتل اللاوعى خاطر ما ، جنح بصاحبه إلى تحقيقه ، حتى يعز على هذا اتقاؤه بالغاً ما بلغت جهوده فى هذا الصدد ، بل إنه ليشعر وكأن جهوده التى يبذلها لمقاومته ، موجهة إلى تأييده والعمل على تحقيقه ، ولعل أصدق مثال لهذا القانون ، جهود الذى يتدرب على ركوب الدراجة حين تهم بالاصطدام ، فيحاول جهد طاقته أن يبعدها عن الخطر ، ولكنه يشعر وكأن جهوده موجهة إلى تحقيق هذا الخطر (٢) . . . فإذا طبقنا هذا القانون على عالم الأحلام ، لاحظنا أن الخاطر الذى يحتل العقل ، يؤدى إلى انشاء أحلام ، وينتهى بحكم هـذا القانون إلى التحقق فى عالم اليقظة ، عندئذ يقال إن الرؤيا صادقة ، ومن الممكن أن يقال كذلك إن الحالم إذا وقع تحت تأثير ما ، اتجه تحت تأثير الاستهواء الذاتى إلى

---

1) A. Tridon, op. cit. p. 85-86

2) Baudouin, Suggestion & Auto- suggestion

تحقيق الحلم ولو كان كارها له . . ! ومن هذا أن فتاة روت عن أبيها أنه أصيب في حادث، واعتزم الرحيل إلى طبيب بعيد عنه لاستشارته في إصابته، ثم عدل عن تحقيق عزمه، ورأى في حلمه طيف أبيه يأمره بالعدول عن استشارة الطبيب، لأنه سيموت قبل نوفمبر، وكان هذا في يوليو، فأيقظ الرجل زوجته وأنبأها بهذا الحلم المزعج، وفي ١٨ سبتمبر تحققت الرؤيا ومات الرجل . . ! ويقول «هيل» A Hill إن من الواضح أن مماته ربما كان نتيجة إيحاء خفي ساوره عند ما وقع له هذا الحادث، فخاك له هذا الحلم المزعج، ثم ازداد يقينه بمصيره بعد الحلم، واحتل الموت خاطره، وقوى أمره حتى استوفى أنفاسه قبل الموعد الذي تحدد في حلمه نهاية لحياته (١) . وقد روى كثيراً من الأحلام شبيها بهذا الحلم، ويمكن تأويلها على هذا النحو الذي أوجزنا في عرضه

وهذا الاتجاه يفسر لنا الكثير من أحلامنا عن أنفسنا أو أصدقائنا ومن تعنينا أمورهم، فإذا عرفنا هذا كله، تيسر لنا العلم بتأويل ما يسمونه بالرؤيا الصادقة، أما الوحي ونحوه فإن العلماء يترددون في التسليم به، إذا لم يجزموا ببطلانه

ولكن من الحق أن نقول مع «فرويد» إن من الخطأ أن نفرض بأن النظرية التي ترد الأحلام إلى أصل إلهي أو فوق الطبيعة، لا تجد لها أنصاراً حتى في أيامنا الراهنة، والمدارس الفلسفية التي أيدت الرؤيا الصادقة كمدرسة شيلنج Schelling إنما هي صدى واضح لمن أضاف الصفة الألهية للأحلام من القدامى، ولعل هذا يشهد بأن التفسيرات التي انتهى إليها العلماء، لا تكفي في القضاء على هذه العقيدة القديمة (٢)

وهكذا استقر رأى جمهرة المحدثين من العلماء على إنكار الرؤيا الصادقة

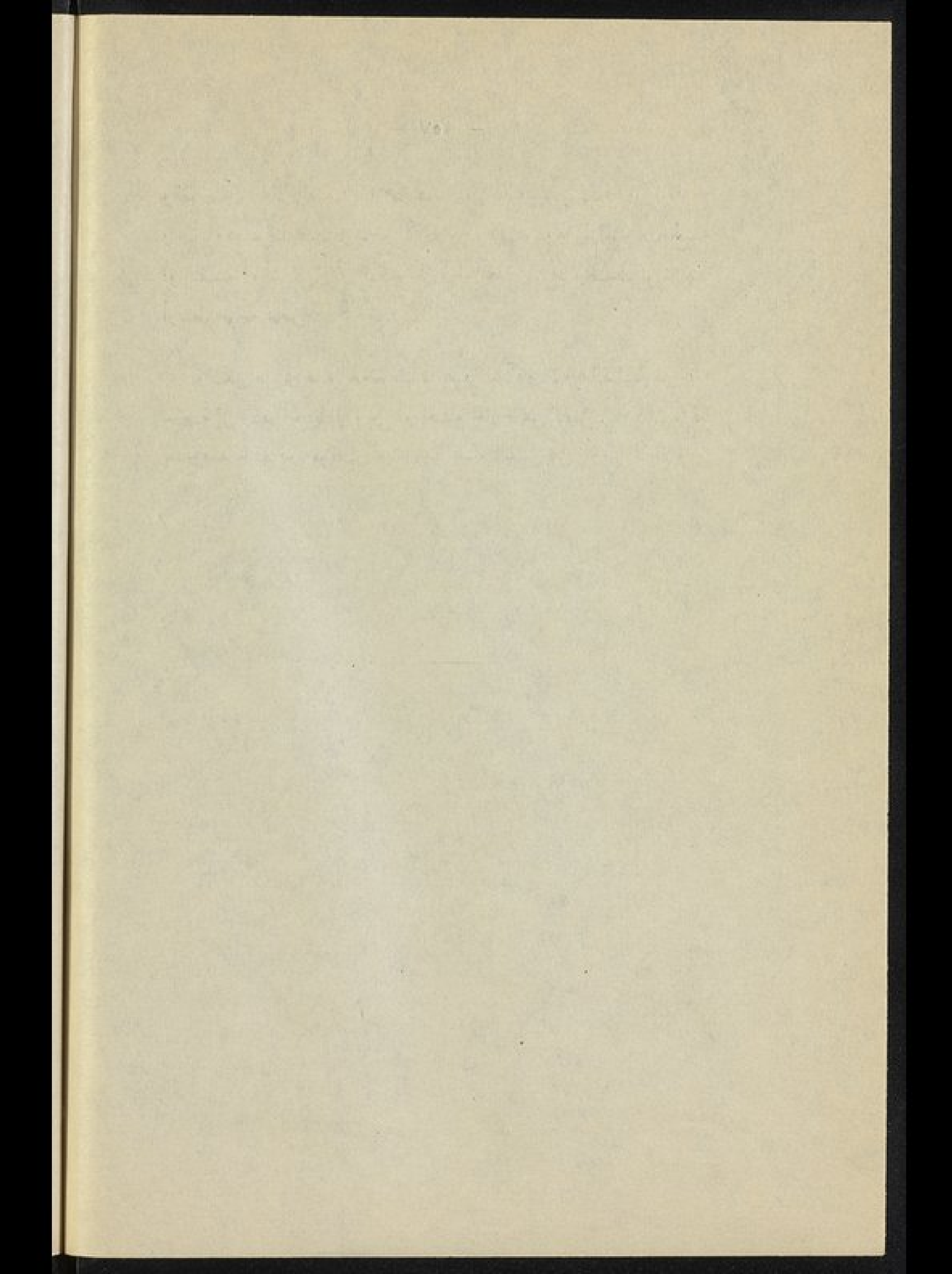
---

1) A. Hill : Man is a Spirit, p' 22 ff.

2) S. Freud, Interpretation of Dreams p. 32.

والقول بأن الحالم كالفنان ، كلاهما يصدر عن نفسه ولا يستمد من الخارج وحياً ، وقد عرفنا رأيهم فى منابع الأحلام ، وكيف ردوها إلى المؤثرات الحسية أو النفسية ، وأشرنا إلى أن الكثير من آراء المحدثين ، قد وجدت نواته عند أرسطو بوجه خاص .

ولكن هل فى هذه الحجج كلها ما يفسر لنا آفاق الرؤيا الصادقة من غير حاجة إلى ردها أحيانا إلى وحى أو إلهام خارج عن النفس . . ؟ ذلك ما قد يضح عند ما نعرض لموقف المحدثين من علماء النفس من تأويل الأحلام



الكتاب الثالث

علم التعبير عند رجال الشرع

ومكانتهم فى مجال التفكير فيه

الكتاب الثالث

علم التعـــــبير عند رجال الشرع

ومكانتهم فى مجال التفكير

تمهيد فى موضوع الكتاب الثالث وعلاقته بما قبله :

عرضنا فى الكتاب الأول موقف مفكرى الأسلام من ظاهرة النوم وتعليلها ، وبما يقع إبانها من صنوف الأحلام الباطلة . كما عنينا بالكشف عن عللها ، وأبنّا فى الكتاب الثانى ، مختلف وجهات النظر الدينية والصوفية والفلسفية فى فهم « الرؤيا الصادقة » وردها إلى عللها ، وعنينا فى كل ما كتبنا بتتبع التفكير الأسلامى إلى منابعه ، فى التراث العقلى فى الغرب والشرق القديمين ، مع مقارنة ما نعرض من آراء ، بما انتهى إليه المحدثون من العلماء

والفراغ من الحديث عن الرؤيا الصادقة وتعليلها ، يقتضى التعقيب بالحديث عن تعبيرها ، ومن أجل هذا عقدنا الكتاب الثالث على « علم التعبير عند رجال الشرع » ، وقصرنا الحديث فيه على رجال الشرع مضطرين ، لأن ما عثرنا عليه من آراء الفلاسفة والصوفية فى هذا المجال ، لا يبرر الأشارة إلى اسمهم فى عنوان الكلام

وقد أبنا كيف كان التعبير عند المسلمين « علماً » له قوانينه الكلية وقواعده العامة ، وإن لم نغفل تصوير الجانب الساذج فى تفكيرهم ، لنكون أمناء فى تاريخ وجهات نظرهم ، وأبنا عن مستلزمات فن التعبير وآداب أهله ، وتتبعنا

هذه الأفكار إلى منابعها عند « أرطميدورس » اليونانى ومن إليه من القدماء فى الغرب والشرق على السواء، وإن لم نهمل الحديث عن وحدة التفكير الأنسانى، وتصوير التشابه فى استجابات العقل البشرى للمؤثرات المتشابهة، مع اختلاف الزمان والمكان، وعقبنا على هذا كله، ببيان مايقابله عند المحدثين من علماء النفس، لنعرف مكان المسلمين فى مجال التفكير فى علم التعبير.

الفصل الأول

علم التعبير عند رجال الشرع

موقفهم من التعبير – مصنفاتهم فى فن التعبير – علم التعبير عندهم – نماذج من قوانين علم التعبير – تفسير القوانين السالفة – مستلزمات فن التعبير

موقفهم من فن التعبير :

أشرنا إلى انعقاد الرأى عند جمهرتهم ، على تقدير الرؤيا باعتبارها وحيا إلهيا ، وأن المعانى التى تحملها ، قد تبدو سافرة لا يسترها نقاب ، أو مقنعة فى رموز يعوزها التعبير (١) ، ومردّ الرموز إلى قلة صفاء النفس ، وضعف استعدادها للتعبير عن الأشياء بأسمائها ، مما يؤدى إلى تدخل القوة المتخيلة بطبعها ، واستبدال ما رأته النفس بمثال يشبهه أو يضاده ، فيقتضى هذا ضرورة التعبير (٢) ، وإن قال البعض بأرجاع الرموز إلى إلهام الملائكة أو نحوه، أما الوحى الإلهى فيتجلى سافرا صريحا (٣) ، على أن للتعبير فى كل الحالات ، خطره البين عند مفكرى

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٩ وابن مسكويه فى الفوز الاصغر ص ١٠٣ والغزالى فى المنقذ من الضلال ص ١٣٨ والتهانوى فى الكشاف ج ١ ص ٦٠١ وطاشكبرى زاده فى مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٤ والقنوجى فى أبجد العلوم ص ٣٩٦ وغير هؤلاء من مصنفى الاحلام ومؤرخيها

(٢) الغزالى : مقاصد الفلاسفة ص ٣٠٩–٣١٠

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٦ والنابلسى فى تعطير الانام ج ١ ص ٤

الأسلام ، لأن من الضرورى أن نتبين حقيقة المعانى التى يوحى بها الله ، رأسا أو عن طريق الملائكة ، وإن ظهر من المفكرين من أبى التسليم بالرموز — فيما يلوح — ورفض القول بضرورة تعبيرها كرأى صالح قبه وأتباعه (١) ، ولكن من أهل التعبير من ردوا استشهادات هؤلاء وأمثالهم إلى تلاعب الشيطان (٢) ، ومنهم من اتخذها دليلا على وجود النفس (٣) ، وأضحى الرأى المسلم به قيام الرموز فى الكثير من الرؤى ، وضرورة تعبيرها للكشف عما تحمل من خفى المعانى .

مصنفاتهم فى فن التعبير :

ومع أن جمهرة مفكرى الأسلام على اتفاق فى هذا الصدد ، فأنا نلاحظ أن الفلاسفة وكبار الصوفية ، لم يهتموا بوضع قواعد للتعبير ، ولم يعنوا ببحثه ودراسته ـ أو هكذا تقول المصادر التى وصلت إلينا عنه ـ فلأن التأليف فى التعبير ، يكاد يكون احتكاراً لغير أهل الفلسفة والتصوف ، ممن عنوا بتعبير الرؤيا وأصوله وآدابه ، تخلفوا لنا فى هذا الصدد مئات المصنفات

ولكن انصراف الفلاسفة عن التأليف فى هذا الميدان ـ أو عجزنا نحن عن الاهتداء إلى أبحاثهم فيه ، قد سلبنا ما كان يرجح أن نظفر به ، من وجوه النظر العقلى فى هذا المجال ، إنها خسارة فادحة من غير شك ، فأن المصنفات التى وصلت إلينا فى التعبير وآفاقه ، يعوزها الابتكار والأبداع ، وتشيع فيها ظاهرة النقل عن الغير دون إشارة إليه ، فما يقرأه القارىء فى مصنف ، كثيراً ما يجده بنص ألفاظه أحيانا ـ فى مصنف آخر . . ! ولعلنا

---

(١) الاشعرى : مقالات الاسلاميين ج ٢ ص ٤٣٢

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل ج ٥ ص ١٩

(٣) إخوان الصفا : ج ٤ ص ١٤٧ — ١٤٨

لا تتجنى على هذه المصنفات إن قلنا إن فى الوسع تصنيف مجلد واحد منها ، ثم إعدامها جميعا ، دون أن يخسر تاريخ مادتها شيئا كثيراً . . ! وإن كان المجلد الذى يبقى بعدها ، سيكون تراثا عقليا مجيدا ، يصمد فى الكثير من نواحيه للنقد الحديث .

ومن أجل هذه الظاهرة ، كان الاطلاع على هذه المصنفات ، يغرى لأول وهلة بأهمالها . ويشى بالاستخفاف بمعلوماتها ، ثم هى عند النظرة العاجلة ، سطحية لا تتجاوز الظواهر إلى الأعماق ، فأن تخطت السطح ، انساقت إلى ميادين تبدو للنظرة السريعة ، منقطعة الصلة بموضوع التفكير ، وفيها سذاجة تدعو إلى العطف حيناً ، وتثير الابتسام أحيانا ، وإن كانت البساطة التى تشيع فيها قد جعلتها مسايرة لعقلية الجماهير ، متمشية مع روح تقاليدهم ، وقد أفضى هذا بطبيعة الحال ، إلى شيوع هذه المصنفات بين الجماهير ، حتى كان الكتاب الواحد منها يعاد طبعه مرات ومرات . . .

علم التعبيــر عندهم :

ولا نكاد نجد كتابا فى التعبير ، إلا انطوى على « جداول » أو ما يشبه الجداول والأثبات ، التى تتضمن أسماء الأشياء التى يحتمل ظهورها فى الرؤيا ، وما يراد بها من معان يحسبها القارىء ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص وظروفهم ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ولو صح هذا لهان فن التعبير ، وما مسّت الحاجة إلى معبرين ، ولكن القارىء الذى يمعن النظر فى هذه المصنفات الساذجة ، يعثر على وجوه من النظر العقلى ، تساير أحدث وجهات النظر السيكولوجية . وترد هذه الآراء القيمة فى مقدمات ، جرى المصنفون على وضعها تمهيدا للجداول ، ولهذا وجب ألا يستفتى المعبر الجداول ، إلا فى حدود القواعد والقوانين ، التى رسمها هؤلاء المصنفون فى مقدماتهم ، وليس أمرها بالهيــن اليسير . ولكن ، أليس فى استخدام لفظ « القوانين » للتعبير عن هذا

الشتيت المتناثر من الملاحظات الساذجة، جرأة لا تسيغها دقة البحث العلمى..!
كلا على التحقيق، وفى المقدمات المشار إليها ما يشهد بصحه ما نقول، بل لقد سبقنا إلى استخدام هذا اللفظ مؤرخ عبقرى فيما يشهد المستشرقون، هو ابن خلدون، وإن اكتفى عند ذكر اللفظ، بالاشارة العاجلة إليه، ثم وثب منه إلى ميادين أخرى، فقرر بأن التعبير «قوانين كلية» يبنى عليها المعبر عبارة ما يقص عليه تأويله (١)، وقد ردد القنوجى صدى ما قاله ابن خلدون، من غير أن يشير إليه فى موضعه (٢)، وأن كان تفسيرهما للقوانين الكلية، تفسيرا هزيلا لا يفى بمعناها الصحيح، كما سنعرف بعد قليل

هذا هو رأى الممتازين من المؤرخين، أما المشتغلون بالتعبير، فأنهم كثيرا ما يستخدمون لفظا آخر، فابن سيرين يشير إلى أن للتعبير «أصولا» ينبغى مراعاتها، وليس لجاهل بها أن يدعى النفاذ فى علم التعبير (٣)، ويشكو من تغير الناس فى أحوالهم. وقلة تمسكهم بدينهم، ويردّ هذا إلى ما يظن من تغير «أصول» الرؤيا عند القدماء (٤) . ويستخدم «ابن شاهين» ذكر هذا اللفظ (٥) ويوضح «السالمى» المقصود بهذا التعبير، إذ يقول فى معرض حديثه عن «أصول العباره»: لا يكون تأويل الرؤيا إلا بعد معرفة أصولها، كأن نعرف أن القمح والشعير والتبن و . . . أموال، وأن الخيل والسباع و . . . خدم وعبيد وأن . . . الخ (٦)

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤١٧

(٢) القنوجى: أبجد العلوم ص ٣٩٩ - ٤٠٠

(٣) ابن سيرين: منتخب الكلام ص ١٢

(٤) المصدر نفسه ص ١٣

(٥) ابن شاهين: الاشارات ص ٣٦٢

(٦) السالمى: الاشارة فى علم العبارة ص + ٣

ووجه الغرابة أن ابن خلدون نفسه ، قد قصد ، بالقوانين الكلية ، فى التعبير ما يشبه هذا نفسه (١) ، وساق أمثلة يستشهد بها على ما يقول ، ولسنا نعتبر هذه قوانين كلية ، ولعل تتبع مقاصد المصنفين فى مقدماتهم ، والتفكير فيها فى ضوء ما يقوله ، ابن خلدون ، ومن جرى مجراه ، يهدينا إلى حقيقة هذه القوانين . ولكن ، أنعرف قوانين العلم قبل أن نعلم عن العلم نفسه شيئاً . . ؟ ما هذا التعبير الذى نردد ذكره ، ونحاول أن نقيمه علما له قوانينه وقواعده . . ؟ إن المرئى فى المنام ، قد يطابق ما يقع فى الظاهر وقد لا يطابقه، بل تدرك النفس معنى من المعانى الغيبية ، من الطريق الذى لا وساطة بينها وبين الحق ، أو من المعانى المتنقشة فى الأرواح العاليه ، فلا تكون له صورة مثالية مناسبة ، من الصور التى تكون فى الحضرة الخيالية ، ولهذا يجب تعبير هذا المرئى حتى يعرف المراد منه ، والحق إنما يهب المعانى صوراً بحكم المناسبة الواقعة بينهما ، وليس يهبها جزافا كما يظن المحجوبون ، حين يظنون بأن الخيال يخلق الصور عفوا ، ويرفضون تعبيرها ، ويسمونها أضغاث أحلام ، وأكثر ما يراه الأنبياء فى مناماتهم ، أمور فى العالم المثالى المطلق ، وكل ما يرى فى هذا العالم مطابق الواقع ، فلا مبرر لتعبيره ، ولكن بعض ما يرونه فى العالم المثالى المقيد (الخيال الأنسانى) يعوزه التعبير ، وقد أخطأ إبراهيم الخليل حين هم بذبح ابنه ، دون أن يؤول صورته التى بدت له فى رؤياه ، مع أن الله قد أراد بهذه الصورة الكبش المفدى ، وكان ينبغى التعبير فى هذا المنام (٢) ، وقد أطلع الله الخليل ، على أن المعانى تظهر فى صور حسية ومثالية دائما ، فلا ينبغى أن تحمل

---

(١) قال : « كما يقولون البحر يدل على السلطان ، وفى موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفى موضع آخر يقولون البحر يدل على الهم والامر الفادح . . . فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر فى كل موضع بما تقتضيه القرائن التى تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا

(٢) ابن عربى : فصوص الحكم ص ١٤٠ و١٤٣

على ظاهرها فحسب ، بل ينبغي أن يطلب المقصود منها ، حتى لا يحجب المرء بظواهر الأشياء عن بواطنها ، ومن هنا عبر اللبن بالعلم ، لأنه غذاء الأرواح..(١) والتعبير هو الجواز بين صورة ما رأى به الأمر إلى أمر آخر ، ألم تر إلى الله تعالى كيف يقول : إن كنتم للرؤيا تعبرون (٢) . . . ؟ وعلم التعبير هو معرفة الأمور الغيبية ، عن طريق التخيلات النفسانية التي تقع أثناء النوم (٣) . وهو يستلزم تفكير المرء في الصور التي وعتها حافظته ، مما رآه في رؤياه ، ثم محاولة إرجاعها إلى ما يشبهها ، من مدركات الحس متى وعاها من قبل ، ثم استخدام الخيال والذاكرة في الانتقال من شيء إلى شيء موجب له ، إلى آخر مؤد إليه ، وهكذا حتى يهتدى آخر الأمر ، إلى أول شيء كان السبب في تخيل هذه الصورة الأخيرة التي وقعت في الرؤيا (٤) . وبتجريد مدركات النوم عن الصور التي كساها فيها الخيال على هذا النحو ، يصل المعبر إلى حقيقة هذه المدركات (٥) والتعبير لا يتطلب معرفة المناسبات التي بين الصور ومعانيها فحسب ، بل ينبغي معرفة مراتب النفوس ، التي تظهر الصورة في حضرة خيالاتها ، ومن أجل هذا اختلفت الصورة الواحدة ، باختلاف مراتب الأشخاص (٦)

فما هي القوانين الكلية التي يجرى عليها هذا التعبير . . ؟ لو قصد بها ما أراده المشتغلون بالتعبير من مبنى الأصول ، لارتد التعبير إلى الجداول ، والأثبات التي أشرنا إليها ، فنحاول الكشف عن معناها الصحيح

---

(١) المصدر السالف ص ١٤٢

(٢) المصدر السالف ص ١٤١

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٩١ ، وطاشكبرى زاده في مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٧٤ والتهانوى في مقدمة كشاف الاصطلاحات ص ٤٤

(٤) الغزالي : مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠

(٥) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٦٠١

(٦) ابن عربي : فصوص الحكم ص ١٤١

نماذج من قوانين التعبير :

نذكر من هذه القوانين ، ما لا يكاد يخلو كتاب من ذكره ، وقد وردت هذه القواعد العامة فى مصنفات المسلمين شتيتا متناثرا ، لا ينتظم فى صورة قوانين كلية . ولكنها موضع اتفاق عند أصحاب هذه المصنفات ، ولهذا كان موقفنا إزاءها ، مقصورا على جمعها وصبها فى قالب القانون ، فلنعرض نماذج منها باعتبارها أظهر وأشيع ما اتفق عليه المشتغلون بالتعبير :

١ - تنبع الرموز (١) عند النيام من سابق مدركاتهم الحسية .

٢ - تمثل الرموز معانى تربطها بها صلة تشابه أو تضاد .

٣ - تختلف دلالات الرمز الواحد ، فى الأمة الواحدة والملة الواحدة ، باختلاف ثقافات الأفراد ومهنهم وصناعاتهم ونحوها ، كما تتغير هذه المعانى بتغير الأمم والملل .

٤ - تختلف دلالات الرمز الواحد عند الفرد الواحد ، باختلاف ظروفه وأحواله .

هذا كله من حيث الرموز ، أما المعانى فأنها إلهية ، تقع على ما أراد الله لمن شاء من عباده ، وليس لها قانون عام ، يؤدى التزامه إلى وقوعها ، وإن وجب التهيؤ لاستقبالها على نحو ما عرفنا من قبل .

وهذه النماذج يمكن اعتبارها قوانين عامة وقواعد كلية ، لا تقتصر على زمان ولا تتصل بمكان ، وهى كلها على اتصال بعضها بالبعض الآخر ، حتى لتؤلف كلا واحدا يبرر اعتبارها علما بالمعنى الحديث ، وإن لم تمنع وحدة العقل البشرى عند شتى الشعوب فى مختلف العصور ، من إعطاء بعض الرموز معانى

---

(١) لم يستخدم المسلمون هذا اللفظ فيما لاحظنا

وهذا نفسه يسلمنا إلى ما اعتبرناه قانونا ثانيا ، فأن الرمز الذى يمثل المعنى لا يظهر عفوا واتفاقا ، وإنما يقع المعنى للنفس ، فيتخير الخيال الرمز الذى يلائمه ، ويصب المعنى فيه ، وبهذا تقوم بين الرمز ومعناه صلة لا يستقيم بغيرها فن التعبير ، وهى فى أكثر حالاتها صلة تشابه ، تبرر التداعى الذى ينتهى بحقيقة المعنى إلى الرمز الذى يمثله . فيتمثل السلطان فى بحر ، والعداوة فى حية ، والنساء فى أوان والرحمة فى مطر ، والنجاة فى سفينة والسفر فى إبل . . . إلى غير هذا مما ترى مئات الأمثلة منه فى كتب التعبير .

وربما كان بين المعنى والرمز صلة تضاد لا تشابه ، والتضاد كالتشابه من مبررات التداعى ، فقد يرى الرجل أنه رزق ابنا فتجيئه بنتا ، أو أنه حزين يبكى ، فيكون هذا تعبيرا عن الفرح والغبطة (٢) ، والغالب من المتقاتلين فى الحلم مغلوب (٣) ، وقد يقوم التبادل المتضاد بين الرمز ومعناه ، فيتمثل الحرب فى طاعون والطاعون فى حرب ، أو السيل فى عداوة والعداوة فى سيل ، أو الجراد فى جند والجند فى جراد وهلم جرا (٤) .

ويعلل الكندى تحول الشيء إلى ضده ، بأن المرء فى يقظته متى أحسن استخدام عقله ، انتهى إلى نتائج صحيحة ، فأن ضعف تفكيره ، كانت أحكامه وتصديقاته مجرد تقديرات واعتبارات ، ولهذا طرفان : هما أن الشيء كذلك أو ليس كذلك ، وهكذا الحال فى الرؤيا : إما أن يقع الشيء كما ظهر ، أو يقع ما يضاده .

---

(٢) قارن الشعرانى فى اللطائف والمنن ج ٩ ص ٩٨ - ٩٩

(٢) اخوان الصفا ج ٤ ص ١٦٢ والغزالى فى مقاصد الفلاسفة ص ٣١٠ وإن قيل إن البكاء يؤول إلى فرح ، إن لم تصحبه رنة أو صوت أو شق جيب ، ويؤول الرقص والفرح إلى هم وحزن (ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٤)

(٣) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٤ (٤) النابلسى : تعطير الانام ج ١ ص ٧

وإذا كان النائم يستمد رموزه من سابق مدركاته الحسية على ما عرفنا، ترتب على هذا أن تختلف الرموز التى تعبر عن المعنى الواحد باختلاف الأفراد، وأن يحمل الرمز الواحد معانى تختلف باختلاف الأفراد فى الأمة الواحدة، لاختلاف صناعاتهم وأحوالهم وتباين ثقافاتهم وتغير بيئاتهم، فالعسل فى حلم الرجل الصالح رمز لحلاوة القرآن ولذة الذكر فى قلبه، وهو عند الكافر رمز لحلاوة الدنيا وشهواتها (١)، وفسر ابن سيرين الأذان عند رجل بالحج وعند آخر بقطع اليد، فلما سئل فى ذلك قال إن الأول خيّر صالح، والثانى شرير طالح فيما يلوح، واستند فى كلا التعبيرين على آى القرآن، قال تعالى: «وأذنْ فى الناس بالحج»، وقال أيضا: «فأذن مؤذن بينهم أيتها العير إنكم لسارقون» (٢)، وقد يعبر تقييد اليدين والعنق فى المنام بالصلاح واجتناب المعاصى، عند من تنبىء سيماه عن الخير، وإلا كان التقييد شاهدا على كثرة المعاصى ومنذرا بالمصير الذى ينتظره فى جهنم (٣)، وقد يرى المرء أنه أصاب وسقا من التمر فيصيب من المال مائة درهم، ويقع هذا لغيره فيصيب ألفا، ولثالث فيكون رمزا لحلاوة دينه وصلاحه. وهكذا يختلف التعبير باختلاف الرجال فى الهمم والأقدار والتمسك بالدين (٤). والرمانة تكون للسلطان مدينة يتولى حكمها، فيرمز قشرها إلى جدار المدينة أو سورها، ويعبر حبها عن مكانها، ولكنها تكون للتاجر داره التى يقيم فيها أهله، أو حمامه أو فندقه أو سفينته التى تحمل الركاب والأموال، أو متجره العامر بالناس، وقد تكون للعابد الناسك كتابه ومصحفه، فيرمز قشرها إلى أوراقه، ويعبر حبها عن كتابه الذى يقوم به صلاحه، وقد تكون للأعزب زوجة بما أوتيت من مال

---

(١) النابلسى: تعطير الانام ج ٢ ص ٣٥٤

(٢) ابن سيرين: الاشارات فى تعبير المنامات ص + ٥

(٣) ابن سيرين: تعبير الرؤيا ص ٤

(٤) ابن سيرين: منتخب الكلام ص ١١

ووهبت من جمال . . . إلى آخر هذه المشابهات (١) ، وكذلك يقال فى ظهور نوح والكثير من وجوه التعبير التى يمكن التماسها من سيرته (٢) ، ويكون تقلد السلاح للجندى العاطل خدمة ، وللمقاتل نصر وللعابد بطلان لعبادته ، ولغير هؤلاء فتنة وخصومة (٣) .

وربما اختلفت معانى الرمز الواحد عند أفراد الأمة الواحدة باختلاف ثقافاتهم ، فيتمشى تعبير الرمز مع معلومات صاحبه فى الشعر ، ومحفوظاته من القرآن والحديث ومأثور الكلام والحكم والأمثال ونحوها (٤) ، أو تتغير معانى الرمز بتغير الوقت الذى وقعت فيه الرؤيا ، فالاصطلاء بالنار والتدفئة بالشمس ، خير وطمأنينة إن وقعت إبان الشتاء ، أو كانت عند المصابين بالبرد ، وإلا كانت نكدا وهما إذا وقعت أثناء الصيف (٥) .

وربما اختلفت معانى الرمز الواحد باختلاف الأمم والملل ، فالطين لأهل الهند مال ولغيرهم محنة وبلية ، والسمك يرمز فى بعض البلاد للعفونة ، وفى غيرها للتزويج ، ويكون لليهود مصيبة (٦) ، والباقلاء الخضراء عند الصابئة مال حرام ، واللحوم يحرمها المجوس ، والدجاج محرم عند بعض اليونانيين والخمر عند المسلمين ، فهذه ونحوها فى المنام تعبر عن شرور عند من يعتقدون تحريمها ، وترمز إلى الخير عند من يحللونها (٧) ، وزنا المرأة فى المساجد يرمز عندنا إلى الشهرة السيئة ، فأن كانت من أهل الهند كان هذا رمزا للتقرب إلى

---

(١) ابن سيرين : فى منتخب الكلام ص ٥ وفى ابن غنام فى تعبير الرؤيا ص ٣ + مثال آخر .
(٢) النابلسى : تعطير الانام ج ٢ ص ٢٨٦ — ٢٨٧

(٣) النابلسى : ج ٢ ص ٣٦١
(٤) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٣ – ٤

(٥) النابلسى : ج ٢ ص ٣٦٠

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٥

(٧) النابلسى : ج ٢ ص ٣٦١

الله (١) ، والسفرجل ينبىء عن الغزو والجمال لمن كان ملما بلغة الفرس ، ويدل على السفر والجلاء عند العرب (٢) .

بل إن الرمز ليختلف معناه عند الفرد الواحد باختلاف ظروفه وأحواله ، فقد يرى جماعة فيعبر هذا بالرحمة أو بالعزم أو بالمخاوف أو بالجسارة (٣) ، وليس يعرف الحقيقة إلا المعبر الماهر الممتاز ، ولا يستوى قوله فى الحلم تزوجت ، مع قوله فى حلم آخر : نكحت (٤) .

وهكذا نلاحظ أن الرمز الواحد يتغير بتغير الأفراد ، ويختلف باختلاف مكانتهم وصناعاتهم ومذاهبهم وأديانهم وأوقاتهم وبلدانهم ، ويكون رحمة لأحد الناس وعذابا لغيره (٥) . بل إن معناه ليتغير فى أحلام الفرد الواحد بتغير ظروفه وأحواله .

وإن كان هذا لا يمنع من أن نقول إن فى الرمز عنصرا مشتركا بين الشعوب على اختلاف أجناسها وتباين مللها ، ورغم تفاوت التصور عند أهلها ، وسنعرض لبيان هذه الوحدة فى العقل البشرى بعد ، ونعرف منها كيف يمكن أن يحمل الرمز الواحد معنى واحدا عند مختلف الأفراد فى شتى الأمم مع اختلاف العصور . فإذا فهمنا تعبير الرمز على الوجه الذى أسلفناه ، أدركنا السر فى أن الرمز الواحد يحمل دلالات تختلف باختلاف أصحابه ، بل باختلاف الظروف عند الفرد الواحد ، وهذا ما لم يفطن له المستشرق « مرجوليوث Margoliouth » حين صرح فى معرض حديثه عن كتاب النابلسى بأنه يثير الحيرة ، لأن الرمز الواحد يحمل دلالات كثيرا ما يبدو بينها التضاد والتناقض (٦) !!

---

(١) النابلسى : ج ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٢ (٢) المصدر نفسه : ج ٢ ص ٣٦٠

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٦ (٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٠

(٥) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٩ والنابلسى ج ١ ص ٧

6) Encyclopedia of Religion & Ethics, art. (Muslim) Divination

مستلزمات فن التعبير :

اختلاف معانى الرمز الواحد على النحو الذى أسلفناه ، يستوجب لامحالة اتصال المعبر بصاحب الرؤيا للاستفسار منه عن أحواله ، فوق ماينبغى توافره فى هذا المعبر من سعة اطلاع تكاد تتجاوز حدود التصور . . فلابد له من أن يكون على اتصال بصاحب الرؤيا كلما أشكل عليه أمر ، ليسأله عن نيته بصدد ما يظهر فى رؤياه من صلاة أو سفر أو نحوه ، ويقضى بما يتفق وهذه النية ، ويتمشى مع خواطره الباطنية (١) . وهكذا يلزم الاهتمام بالنية وعدم الاكتراث لماعداها من رموز الأحلام ومناظرها (٢) . بل إنه ليتصل بصاحب الرؤيا حتى ولو لم يشكل عليه فهم شىء فيها ، فيسأله عن حاله وقومه وصناعته ومعيشته ولا يدع شيئا مما يساعد على فهم الرؤيا إلا استفسر عنه ، أليس يختلف معنى الرمز باختلاف العادات والمهن والظروف ونحوها . . ؟ فإذا لم يسعفه هذا كله، اجتهد برأيه فى حدود الأصول التى أسلفناها ، ومن الحكمة أن يتريث فى التعبير ولا يتعجل ، فقد كان ابن سيرين إذا عرض له تعبير رؤيا، مكث فيها مليا من النهار ، يستفسر فيه عن حقيقتها من صاحبها (٣) .

وهذا بالأضافة إلى ماتقتضيه قوانين التعبير السالفة، من سعة اطلاع المعبر وسلامة تفكيره وقوة ملاحظته وخبرته بخفايا النفوس، وإلمامه بشئون العيش واطلاعه على كتاب الله وسنة رسوله، ومعرفته بعادات البلاد وتقاليدها ، ووقوفه على العلوم اللسانية بما انطوت عليه من ترادف الألفاظ واشتقاق الكلمات وتصريف الأفعال وإعراب المفردات ونحو ذلك ، وهذا فوق معرفته بشعرها ونثرها وما أثر من أمثالها وشاع من حكمها وقصصها ، فقد يتراءى فى الحلم

---

(١) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٠ وتعبير الرؤيا له أيضا ص ٥

(٢) النابلسى : تعطير الانام ج ٢ ص ٣٥٤

(٣) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٢ والنابلسى ج ٢ ص ٣٥٣

طيف شيء ورد ذكره في أحد هذه الميادين ، فلا يهتدى المعبر إلى مصدر صورته ، ويتبين حقيقة معناه ، متى كان على جهل بهذه المصادر ، فمن أمثلة ما يرد في القرآن تأويل البيض بالنساء لقوله تعالى : « كأنهن بيض مكنون » ، وكالحجارة يعبر عنها بالقسوة لقوله « ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » ، واللحم الطرى يرمز إلى الغيبة « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » ، وكالحبل يؤول إلى الاتحاد « واعتصموا بحبل الله جميعا » ، وأما مثال الحديث النبوى فكالغراب يعبر عنه بالرجل الفاسق ، لأن النبي سماه فاسقا ، والضلع يؤول إلى امرأة في الحديث : « خلقت المرأة من ضلع أعوج » .
وأما المثل السائر فمثاله طول اليد ، يؤول إلى اصطناع المعروف لقولهم هذا أطول منك يدا وباعا أى أكثر عطاء ، وكالكبش يؤول إلى رجل عزيز في قومه . وأما التأويل بالشعر فمثاله : الورد يرمز إلى سرعة الاضمحلال وقلة البقاء ، والآس يرمز إلى الدوام لقول الشاعر :

أنت ورد وبقاء الـ ـــورد شهر لا شهور
وهواى الآس والآ س على الدهر صبور

وأما الحاجة إلى معرفة الاشتقاق اللغوى ومعانى المفردات ، فكالمغفرة أصلها الستر ، والفسق أصله الخروج والبروز و . . . . إلى آخر ما ذهب إليه أهل التعبير ومؤرخوه .

بل إن عفة لسانه وطهارة أخلاقه - وهى ضرورية له - لا ينبغى أن تمنعه من معرفة المبتذل من الأمثال والأحاديث ، لأنه قد يحتاج إليها في تعبيره ، كقول لقمان : بدل فراشك أى زوجتك ، وقول ابراهيم لاسماعيل عليهما السلام : غيّر أسكفة الباب ، أى طلق زوجتك ، ونحو هذا من أمثال وأحاديث (١)

---

(١) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٢ — ٤ ومنتخب الكلام له أيضا ص ٤ و ٨ وغيرهما من الصفحات والنابلسى جـ٢ ص ٣٥٢

فأن تهيأ له هذا العلم الواسع كله ، وجب أن يكون لبقا فطنا حاذقا دقيقا، فى التسلسل فى معانى الصور حتى يدرك حقيقة الرمز ، فهو لايستطيع أن يعرف معنى الرمز إن كان جنسا عاليا ، إلا إذا رده إلى نوعه السافل ، ثم عرف طبيعته وصنفه ، فالشجر والسباع والطيور أجناس، ترمز فى أغلب الحالات إلى الرجال ، لكن أى نوع من الرجال تكون . . ؟ إنه مضطر إلى أن يرد هذه الأجناس إلى أنواعها ، فأن كانت الشجرة نخيلا عبرها بعربى عزيز، لأن النخيل من نبات بلاد العرب ، وإن كانت شجرة جوز كانت رمزاً لأعجمى ، وهلم جرا ، وتستتبع معرفة النوع العلم بطبعها ، فشجرة النخيل تنبىء بأن العربى الذى ترمز له ، كثير الخير عريق الأصل ، أما شجرة الجوز فتنبىء بأن الأعجمى خداع غاش فى معاملته وخصومته ، وهكذا يقال فى سائر الأجناس (١) .

ومن مستلزمات فن التعبير أن يراعى وقت الرؤيا من فصول السنة وحال النفس إبانه ، فقد قيل إن الرؤيا الصادقة تجىء مع اعتدال الطبائع واستقامة الهواء ، منذ اهتزاز الأشجار حتى سقوط أوراقها ، وصفو الفكر من هموم العيش وآمال النفس، مع الاقتران بالطهارة والبعد عما يشوبها ، وإلا طافت بالخاطر الأحلام الباطلة التى لاتقبل تأويلا (٢) وقيل إنها أقوى ماتكون إذا وقعت إبان الربيع أو الصيف ، وأضعف ماتكون فى الخريف والشتاء ، أى أن قوة صدقها تتمشى طردا مع نمو الأشجار وازدهار النبات ، لأن النفوس يشيع فيها الاطمئنان متى أثمر النبت وأورق الشجر ، فأن ولت مظاهر الأثمار ارتفعت الملائكة المنوطة بها ، فتفرق النفوس وتجزع ، وبذلك تكثر الأحلام . التى تعبر عن وساوس النفوس وهمومها ، ولا تأويل لمثل هذه الأحلام (٣) بل قيل إن الرؤيا التى تقع والأشجار تتأهب لحمل ثمارها ،

---

(١) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٠ وتعبير الرؤيا له أيضا ص ٥ والنابلسى ج ١ ص ٨

(٢) أبو عثمان فى البشارة ص ٦ وابن سيرين فى منتخب الكلام ص ١٨

(٣) السالمى فى الاشارة ص ٣ وبعض هذا ورد فى ابن سيرين فى تعبير الرؤيا ص ٤

تكون مرجوة قوية ، فأن وقعت عند نضج الثمر والانتفاع به واجتماع أمره . كانت أبلغ وأنفذ وأصح وأوفق ، فأن وقعت عند مايورق الشجر وقبل أن يظهر الثمر ، كانت دون ما وصفنا قوة وبقاء ، وإن سقط ورقها وذهب ثمرها، كانت الرؤيا عند ذلك أضعف ، ورجح أن تكون أضغاثا (١) .

أما أصح أوقاتها من الليل والنهار فقيل السحر ، وقيل النهار وقبل القيلولة . . . (٢)

ولا ينبغى أن يقتصر على مراعاه الوقت الذى تقع فيه الرؤيا ، فأن للتعبير أوقاتا يحسن فيها ، وقد يسوء فى غيرها ، فلا يحسن التعبير فى شروق الشمس أو غروبها أو أثناء الزوال (٣) ، وقيل إن مدة التحريم فى هذا ثلاث ساعات (٤) ومن المستحب أن يكون التعبير بالغدوات بعد مطلع الفجر وقبل مطلع الشمس ، إذ أن المعبر فى هذه الفترة يحسن الفهم ، كما يجيد صاحب الرؤيا تذكرها ، وقد قال النبى : « اللهم بارك لأمتى فى بكورها (٥) » ، ومن أهل التعبير من جعله رهن الشهور العربية والأيام ، فلكل شهر أو يوم تأويل معروف محدود ، فمنام محرم يتحقق ولا يخطىء أبداً ، فأن وقع فى صفر كان وخيم العاقبة ... أما الأيام فأن ما يقع فى يوم الجمعة . . (٦) وهكذا نلحظ اختلاف وجهات نظرهم فيما لا طائل تحته . . !

واختلفوا كذلك فى تحديد المدة التى تفصل بين وقوع الرؤيا وتحققها ، فقيل إن الحكماء يرون أن الرؤيا تقع بعد أمد قريب ، لأن رحمة الله قد

---

(١) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٢

(٢) ابن غنام : تعبير الرؤيا ص ٥ و + ٦

(٣) النابلسى : تعطير الانام ج ١ ص ٦

(٤) ابن غنام : تعبير الرؤيا ص + ٣

(٥) النابلسى : ج ٢ ص ٣٥١ وابن غنام ص + ٦

(٦) ابن غنام : ص ٦ و + ٧

اقتضت ألا يحصل الأعلام بوصول الشر إلا عند قرب تحققه ، حتى يكون الحزن والغم أقل ، وأما الرؤيا الجيدة فتتحقق بعد أمد طويل ، لأنها إعلام بخير ، فتحققه بعد زمان يؤدى إلى إطالة مدة الابتهاج لتوقعه (١) . وقيل إن الرؤيا إن وقعت فى مطلع الليل فأنها تتحقق بعد عشرين عاما وإن . . . (٢) وقيل بل تتحقق رؤيا مطلع الليل بعد شهر أوعشرة أيام و . . (٣) والخلاف فى مثل هذا ـ مع تفاهته ـ كثير (٤) ، وقد جرى على هذا ابن سيرين ، فكان يؤول الرؤيا بمعنى ، فأن تكرر وقوعها عند صاحبها غير تعبيرها له ، استنادا إلى الاختلاف فى وقت التعبير (٥) .

فأذا لاحظ المعبر هذا كله ، وجب ألا يشرع فى التعبير وتطبيق الأصول ، حتى يطرح عن الرؤيا ما يحتمل أن يكون من أضغاث الأحلام أووسوسة النفس أو وحى الشيطان ، ولا يعبر إلا ما كان من وحى الله (٦) . ثم يلاحظ أن من الرؤى ما يؤول مثلا بمثل ، فالسفر فى الرؤيا سفر فى اليقظة ، وكذلك الحال فى غيره ، ومنها ما يؤول إلى ضده على ما عرفنا ، ومنه ما يجب رده إلى أصوله ، فأكل لحم الأنسان اغتياب . . . . الخ (٧) ، مع إمكان الاستعانة بما يرد فيها من الأسماء ، فيؤول سهل إلى سهولة ، وسالم إلى سلامة وسعد إلى سعاد ، وقد نصح الرسول بذلك (٨) ، وتبعه فى هذا أئمة الدين من أمثال الشعرانى (٩) .

---

(١) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ج ٥ ص ١٠٦

(٢) السالمى : الاشارة ص ٣ و + ٤ (٣) المصدر نفسه صفحة ٤

(٤) ابن سيرين فى منتخب الكلام صفحة ٩ ، ١٩ وأبو عثمان فى البشارة صفحة + ٧ وابن غنام صفحة ٥ + ٦ والسالمى صفحة ٤ وغير هؤلاء كثيرون

(٥) ابن سيرين : منتخب الكلام صفحة ٩٩

(٦) ابن سيرين : المصدر نفسه صفحة ١٢ و ١٣

(٧) إخوان الصفا : ج ٤ صفحة ١٦٢

(٨) ابن غنام صفحة + ٣ وأبو عثمان صفحة + ٨ وابن سيرين فى تفسير الرؤيا ص ٣

(٩) الشعرانى : الطائف والمنن ج ١ صفحة ٩٩

هذا كله من مستلزمات فن التعبير ، ومع كثرته وعسر تحققه فى الكثير من الحالات ، لايقنع به بعض أهل التعبير ، إذ يرون أن علم التعبير وإن كان يجيء تعلما واكتسابا ، إلاأن فيه إلى جانب هذا ما يشبه الألهام الألهى ، فهو وإن كان ضربا من الحدس والفطنة (١) ، يعتمد على الاطلاع والذكاء والحذق ، إلا أن أهله لو اعتمدوا على كتب التعبير وحدها لعجزوا عن أشياء كثيرة . . ! فيما يقول البعض ، وذلك لأن التعبير يتوقف على حذق المعبر ، والفتح عليه بهذا العلم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم (٢) ، وهذا أمر عسير المنال لا يحظى به — إن كان ممكننا — إلا قلائل من الناس ، ولعل ابن خلدون قد قصد إلى شيء من هذا حين قال : إن القرائن التى تعين المعبر عم تعبير الرؤيا ، منها ما ينقدح فى نفسه بالخاصية التى خلقت فيه ، وكل ميسر لما خلق له (٣) . بل ذهب ابن العربى صراحة إلى أن العلم بالتعبير انكشاف لا يحصل إلا بالتجلى الألهى من حضرة الاسم الجامع بين الظاهر والباطن ، ومن هنا قال الرسول لابى بكر فى تعبيره لرؤيا : أصبت بعضا وأخطأت بعضا . . . الخ (٤) . وقد ذكر كبار المفسرين ما يؤيد هذا ، فقالوا إن يوسف حين عبر رؤيا البقرات السمان والعجاف ، بشرهم فى آخر التعبير بأن العام الثامن يجيء مباركا خصيبا ، وأن هذا كان « من جهة الوحى » ، فلما اعترض على هذا بأن الجدب ينتهى بالخصوبة لا محالة ، قالوا إن هذا معلوم علما مطلقا لا مفصلا ، ولكن يوسف قد فصل أمره ، فدل بهذا على أنه يتكلم عن وحى . . (٥) .

ومن أجل هذا كان طبيعيا أن يختلف المعبرون فى تأويل الحلم الواحد ،

---

(١) الغزالى : مقاصد الفلاسفة صفحة ٣١٠

(٢) النابلسى : ج ١ صفحة ٨ وابن شاهين فى الاشارات فى علم العبارات ص ٣٦٢

(٣) ابن خلدون : المقدمة صفحة ٤١٧

(٤) ابن عربى : فصوص الحكم صفحة ١٤١

(٥) الفخر الرازى : مفاتيح الغيب ج ٥ صفحه ١٣٩ ، والزمخشرى فى الكشاف ج ١ ص ٦٦١

حتى ليراه بعضهم أضغاثا ، ويقول غيرهم إنه صدى مزاج ، ويعتبره غير هؤلاء هذيانا وجنونا ، ويعده غيرهم رؤيا صادقة وبمثل هذا تنفرج بينهم مسافة الخلف فى الحلم الواحد (١) . ومن هنا قيل إن التعبير يتوقف على معلومات صاحبه وأفق اطلاعه وسعة إلمامه بالأمور وكمال حذقه (٢) ، فوق فتح الله عليه عند البعض، ولهذا فليس بدعا إن عجز عن تأويل حلم ، ومن واجبه عندئذ ألا يتردد فى إعلان عجزه متى شعر بقصور فى ذلك ، وقد كان على هـذا أئمة المعبرين ، فكان ابن سيرين يعبر رؤيا واحدة فى كل أربعين تعرض له (٣) . ومرد هذا التريث إلى ما يترتب على التعبير من خطر ، عرفنا أمره فى آداب قص الرؤيا .

ترى من هذا كله كيف أحاطوا فن التعبير بالمصاعب ، حتى أضحى احترافه أو الاشتغال به عسيرا شاقا ، فكان طبيعيا بعد هذا كله ، أن يحرموه على الصبية والنساء وذوى الجهالة ونحوهم ، ويقصرونه على ذوى العلم والرأى وأهل الفطنة والذكاء ، ورجال التقى والورع والبعد عن الفواحش ، وأصحاب العلم بكتاب الله وسنة رسوله ، ولغة العرب وأمثالها والمعروف من أحاديثها (٤) ، وذوى الخبرة بهيئات الناس وأصول التعبير مع العفة والطهارة حتى يوفقهم الله إلى ما فيه الصواب (٥) .

فأن تهيأ للمعبر هذا كله ، وجب أن يلتزم الآداب التى وضعت فى هـذا الصدد ، وأظهر ما فيها : الاقتداء بالرسول الذى كان يقول إذا قصت عليه رؤيا : « خيرا تلقاه وشرا تتوقاه ، وخيرا لنا وشرا لأعدائنا والحمد لله رب

---

(١) اخوان الصفا : ج ٤ صفحة ١٤٩ – ١٥٤

(٢) النابلسى : ج١ صفحة ٨

(٣) ابن سيرين : منتخب الكلام صفحة ١٠ والنابلسى ج ٢ صفحة ٣٥٢

(٤) ابن سيرين : منتخب الكلام صفحة ٦ وابن غنام فى تعبير الرؤيا صفحة + ٨

(٥) ابن سيرين فى تعبير الرؤيا صفحة ٢

العالمين ، أقصص رؤياك (١) . فأذا أمسك المعبر عن تعبير حلم لكراهيته ، أو لقصور عن معرفته ، وجب أن يقول : خير لك وشر لأعدائك . . . (٢) فأن دلت الرؤيا على فاحشة أخفاها المعبر عن صاحبها ، وعبر عن هذا بخير عبارة (٣) . فلا يجبه صاحبها بما يكره أن يطلع عليه أحد سواه ، إن كان مبتلى لا حيلة له فى ذلك ، وفى وسعه أن ينبه بأمرها على سبيل التلميح لا التصريح ، إلا إذا كان مصرا على معصية الله ، أو هم بهـــا فأن وعظه فى ذلك واجب ، وأوجب منه الستر عليه كما أمر الله ، فمن واجب المعبر أن يخفى أسرار المسلمين ويستر عوراتهم ، ولا يخبر بها إلا صاحبها ، ولا ينطق بهـا عند غيره ، ولا يذكر اسمه فيها إن كان لا بد من ذكرها ، فأن فى ذلك غيبة ذميمة (٤) . وقد أمر النبي بكتمان المكروه من الأحلام التى تعزى إلى الشيطان ، فأن كان المنام مؤديا إلى فتوى أو خديعة أو روع وحزن ، ولم يتضمن تحذيرا من ذنوب أو تنبيها من غفلات ، وجب أن يتفل عن يســاره للتخلص منه . . . (٥) ، فأن اشتبه فى أمر الرؤيا طلب إلى صاحبها إن بارح بيته صباح السبت فى مطلع النهار ، أن يسأل من يلقاه عن اسمه ، فأن كان ميمونا كاسم نبى أو صالح كانت الرؤيا خيرا ، وإلا ساء تعبيرها . . . (٦) ولا بد أن يمتاز المعبر مع هذا كله بعفة اللسان وصدقه ، وطهارة الأخلاق والتقوى والورع ونحو ذلك مما يساعد على صدق التعبير (٧) .

هذه هى مستلزمات فن التعبير بما فيها مما يتمشى مع العقل ، وما لا يساير

---

(١) ابن سيرين ، فى تعبير الرؤيا ص ٥ ، وابن غنام فى تعبير الرؤيا ص ٢

(٢) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٣٠ (٣) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٥

(٤) ابن سيرين : فى منتخب الكلام ص ١٢ وابن غنام فى تعبير الرؤيا صفحة + ٣

(٥) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٢ ـ ٣

(٦) النابلسى : تعطير الانام جـ ١ ص ٧ (٧) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٢

المنطق ، عرضناها كما هى لأنها تلقى ضوءا على عقلية واضعيها ، وروح الذين تقبلوها بالرضا حتى شاعت بينهم ، ولأنها تساعدنا على فهم مكان التفكير الأسلامى فى هذا الموضوع ، فحسبنا ما عرضناه ، ولنعقد فصلا مستقلا نتتبع فيه أفكارهم إلى منابعها الأولى ، فى الدين والتراث القديم ، ثم نعقب على هذا ببيان موقف المحدثين من علماء النفس من الأحلام وتأويلها ، لأن هذا يمكننا من معرفة مكان مفكرى الأسلام فى مجال التفكير العام فى موضوع الاحلام :

الفصل الثانى

مكان المسلمين فى مجال التفكير

فى فن التعبير

منابع أفكارهم فى علم التعبير — مدى تأثر المسلمين بأرطميدورس اليونانى — علم التعبير ووحدة العقل الانسانى — أرطميدورس وتفكير المسلمين فى التراث الشرق القديم — التفكير المتشابه مع اختلاف الزمان والمكان — نماذج فى تعبير الاحلام لهذا التشابه — أرطميدورس وعدوى أفكاره عند المسلمين — موقف علم النفس الحديث من تأويل الاحلام — مذهب « فرويد » بين التأييد والانكار — من آثار التصور القديم للحلم — طريقة تحليل الحلم فى مذهب «فرويد» — ديناميكية الحلم عنده، تجنى المؤلفين على فرويد — تفسير حلمين — ميكانيكية الحلم : عمليات التركيز (تفسير حلم يوضحها) والابدال (تفسير حلم يوضحها) وتجسيم المعانى ـ وتحويل المحسوسات الى رموز — طبيعة الرموز بين المحدثين من علماء النفس . . الخ

عرضنا فى الفصل السالف وجوها من التفكير الإسلامى فى علم التعبير، وتكشف لنا مدى العمق أو مبلغ السذاجة فى هذه الوجوه من النظر العقلى، ولكن هذا لا يكفى فى تحديد مكانهم من مجال التفكير الإنسانى فى هذا الموضوع، ولهذا يحسن بنا أن نكرّ إلى الماضى السحيق، لنفتش فيه عن أصول أفكارهم ومنابعها، ونمضى بعدها إلى المستقبل البعيد فى عصرنا الحاضر، لنرى مدى التطور الذى أدرك التفكير فى علم التعبير، فعندئذ نستطيع أن نعرف مكان المسلمين على وجه قريب من الدقة.

منابع أفكارهم فى علم التعبير :

صدرت الأفكار التى عرضناها فى الفصل السالف عن رجال دين، لم ينصرفوا

إلى الدراسات الفلسفية ولم يهضموا مذاهبها ، فأذا ثبت تأثرها بتراث عقلي دخيل، كان الراجح ألا يكون هذا التراث فلسفياً ، وقد حاولنا أن نتتبع هذه الأفكار إلى منابعها فى مختلف مظانها ، ورجح عندنا ردها إلى ثلاثة مصادر واضحة المعالم ، هى : البيئة المحلية بأوسع معانيها ، من ثقافة ودين ولغة وتقاليد ونحوها، مما كان الشرق العربى الأسلامى مهده ، ثم طبيعة التفكير النظرى الأنسانى الذى يشترك فيه كافة الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولا يتصل بزمان ولا مكان ، ثم التراث القديم الدخيل ، وأكبر مظاهره كتاب أرطميدورس اليونانى الذى نقل إلى العربية ، وإن ألبسه أهلوها ثوبا عربيا ونفثوا فيه روحا إسلاميا، حتى كادت تمحى معالمه . وتتفرع البيئة المحلية إلى فرعين : أولهما نظرى يتمثل فى الدين من كتاب وحديث ، واللغة بعلومها اللسانية ، وثانيهما عملى تمثله تجارب الناس فى زحمة الحياه ووجوه خبرتهم بشئون العيش . ومن أجل هذين الاتجاهين ردوا الرمز إلى ما عرف من معانيه فى المألوف عند الناس من تراثهم العقلى الشائع ، كل بحسب حظه من هذا التراث ، وأوجبوا على المعبر أن يكون ملما بفصول الأمطار ومواسم النبات ، وأدوات الطعام ونحوها مما يحتمل ظهوره فى الأحلام ، أليس الرمز وليد البيئة التى يعيش فيها الحالم . . . ؟

أما أفكارهم التى تنحدر إلى طبيعة التفكير الإنسانى ولا تتصل بزمان أو مكان بعينه ، فيمثلها تقرير العلاقة بين الرمز ومعناه ، أو بينه وبين صاحبه ، فإن هذا التفكير إنسانى بحت ، وهذا ما جعل التعبير علماً له أصول .

ولكننا إذا جردنا أصول التعبير وقواعده ، عن الأمثال التى تشرحها ، والبيانات التى تفسرها ، والاستشهادات التى تؤيدها ، أمكن فصلها عن البيئة العربية الإسلامية ، وجاز عندئذ التفكير فى منابع دخيلة قد انحدرت عنها هذه الأفكار ، وقد حاولنا هذا وأدتنا المحاولة إلى أن أعظم مصادرهم التى أثرت فى تفكيرهم ، كان أرطميدورس اليونانى ، وقد اطلعت بعد الفراغ من هذا

البحث وجوازه امتحان الدكتوراه - على إشارة للمستشرق « مرجوليوث »
Margoliouth في دائرة معـــارف الدين في مادة Divination (Muslim)
والأخلاق، تفيد نقل المسلمين عن أرطميدورس في موضوع الرؤيا، ولـكنه
لم يحدد مجال النقل، وأطلق إشارته مرسلة من غير تحديد، ومن الخير أن
نفصل الحديث في علاقة المسلمين به :

مدى تأثر المسلمين بأرطميدورس:

ولد أرطميدورس في أفسوس في القرن الثاني لميلاد المسيح، واشتهر بمؤلفه
الذي وضعه في خمسة كتب عن « تفسير الأحلام » وقد نقل مؤلفه إلى عدة
لغات قديمة وحديثة معاً، وهو حافل بالمعلومات القيمة الدقيقة من أساطير
القدماء وخرافاتهم (١) . ولم يردد صدى ما قاله سابقوه في الرؤيا، وإنما
اعتمد على ما استقاه من تجاربه الشخصية، وعشرته للناس واختلاطه بالمشتغلين
بالـكهانة والعرافة — ممتازين كانوا أو دجالين — ورحلاته التي استغرقت
أعواماً طويلة في آسيا وإيطاليا وبلاد اليونان وغيرها (٢) . وهو يهتم بتجاربه
واختباراته، ويستمد من الواقع براهينه، ولا يحاول أن يقيم علاقة ضرورية
بين الشاهد أو الرمز ودلالته، استناداً إلى مجرد البداهة، بل يلتمس الدليل
العقلي على ما يقول، وحسبه أن تقرر التجربة هذه العلاقة، فلا ينفيها استناداً
إلى نظرية تغاير ما تقرره التجربة (٣). وقد مارس العرافة والتكهن
بالغيب وقراءة الـكف وتعبير الأحلام أثناء رحلاته السالفة (٤) . ويقول
« سويداس » Suidas إنه كتب عن العيافة وقراءة الـكف، ولـكن كتبه قد

---

(١) أنظر دائرة المعارف البريطانية والفرنسية ومعجم باشليه وديزوبري وغيره (مادة : Artémidore.)

2) Oneiro Critica في المقدمة & Bouché-Leclercq, Hist. de la Divination dans L'Antiquité, 1. p, 298

3) A, Bouchê- Leclerq, op, cit. 1. p. 29c

(٤) دائرة المعارف الفرنسية في مادة أرطميدورس .

ضاعت وامحت آثارها (١) . وليس يعرف كتاب سيرته عن حياته أكثر من ذلك .

أما عن كتابه فى تعبير الرؤيا فقد شاع أمره حتى لانكاد نصادف كتابا، يؤرخ الأحلام أو يضع عنها بحثا مقارنا إلا ويشير إليه ، وقد روى ابن النديم أن حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٨٨٧) قد نقله بمقالاته الخمس إلى العربية (٢) وقد كان حنين يجيد اللغة اليونانية فيما يقول ابن خلكان فى وفيات الأعيان (٣) وابن النديم فى طبقات الأطباء (٤) . ولسنا نزعم بأن نقله إلى العربية يحتم القول بتأثر المسلمين به ، ولكننا نستند فى ترجيح هذا الظن إلى بساطة أفكاره ، ومسايرتها لعقلية رجال الدين ، وتمشيا مع نزعات المسلمين عامة ، ثم إلى التشابه البين بين الكثير من آرائه وآراء هؤلاء فى مصنفاتهم ، وإن كان من العسير جداً أن نحدد على وجه الدقة مدى هذا التأثر ، ومبلغ ما كان يحتمل أن يخسره المسلمون ، لو اقتصروا على وحى تفكيرهم ، ولم يتصل بهم هذا الكتاب

وأول ما نلاحظه فى هذا الصدد ، مسايرة أرطميدورس لتفكير المسلمين ، فهو يسلم بالرؤيا الصادقة التى تكون بوحى من الآلهة ، ويضيق بهؤلاء الذين لا يؤمنون بتدخل الآلهة لأنذار الناس ، وزجرهم فى النوم واليقظة على السواء (٥) ، بل إنه وضع كتابه استجابة لأمر أبولو ، وإلحاح حاميه « كاسيوس ماكسيموس (٦)

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ومقدمة الترجمة الفرنسية لكتابه سنة ١٩٢١

(٢) ابن النديم : الفهرست ج ٢ ص ٢٢٥ طبعة فلوجل وكرر ذكر الكتاب بين كتب تعبير الرؤيا

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٠٩

(٤) ابن أبى اصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج ١ ص ١٨٠

5) Artémidore : Oneiro Critica, ch. 2.

2) Bouché-Leclercq, Hist. de la divination, 1. p. 297

ويقسم الأحلام إلى ما يبدو صريحا واضحا ممثلا فى صور بسيطة ، فيتحقق فى اليقظة كما يظهر فى المنام ، ولا يحتاج بهذا إلى تعبير ، فيراه وكأنه فى مرآة Speculation (١) ، وإلى ما يستتر وراء رموز مقنعة يعوزها التعبير (فيكون فى صورة مجازية) Allegorica ويسوق على هذا أمثلة يوضح بها ما يقول ، وذلك فوق أن الحالم قد يكون رمزا لغيره ، كما يكون غيره رمزا له ، إلى غير هذا مما يتطلب التأويل (٢)

أما منهج الكتاب ، فقد جرى فيه على نفس النسق الذى جرى عليه المسلمون من بعد ، إذ وضع فى سلسلة فصول قصيرة ـ يكاد أكثرها يكون فقرات ـ قواعد للتعبير ، وبيانات يفيد منها أهله والمشتغلون به ، وقد نهج المسلمون ما يشبه هذا المنهج فى مقدماتهم التى أشرنا إليها من قبل ، ويعتمد كتاب أرطميدورس بعد هذا على « الأثبات » أو الجداول التى تتضمن أسماء الرموز وما يقابلها من معان ، وهذه هى نفسها طريقة المسلمين الشائعة فى مصنفاتهم

وإذا كان المسلمون يعقبون على مقدماتهم ، بالحديث عن رؤيا الله ، فأن أرطميدورس لم يغفل هذا ، فقال فى بيان طريقته فى تأليف كتابه ، إن المؤلفين قد جرت عادتهم بالكلام عن الآلهة أولا ، وأنه لا يلتزم هذه الطريقة لا لنقص فى تدينه كما يبدو لبعض الناس ، بل لأنه رأى أن يتسلسل بحثه تسلسلا طبيعيا ، فيبدأ بالولادة ويعقب بالتربية ثم بأعضاء الجسم (٣) . . . الخ وليس من الضرورى أن يكون المسلمون قد نقلوا عن القدماء هذا التقليد ، ولعله وليد غريزة التدين عند الشعوب

---

(١) Speculum باللاتينية = مرآة و Specular = شفاف

(٢) أرطميدورس فى المصدر السالف فى الفصل الثانى

(٣) الفصل الحادى عشر من المصدر نفسه

وأطرف من هذا كله فهمه للرمز ، فالرمز عنده غير مستقل عن صاحبه وشخصيته ، ومركزه وظروفه وأحواله فى حياته ، ومن أجل هذا جاز أن يحمل الرمز الواحد للثرى المتزوج الخطيب معنى ، يختلف عن المعنى الذى يحمله للفقير الأعزب المشتغل بالتجارة (١) ، ومن هنا كان الرمز يحمل كثيرا من المعانى التى تختلف باختلاف الأمم والملل ، وتتباين عند الأفراد بتباين ثقافتهم وتقاليدهم وصناعاتهم وطرق معيشتهم ونحو ذلك ، بل إن الرمز الواحد ليحمل فى أحلام الفرد الواحد، معانى تختلف باختلاف ظروفه فى مختلف المناسبات ، وهذا نفسه هو فهم المسلمين للرمز ، فأرطميدورس يقول إن الأمم تشترك فى عادات وتقاليد ، كعبادة الآلهة والخضوع للقوانين وصلة الآباء بالأبناء ، واليقظة نهارا والنوم ليلا ، وطلب الراحة بعد النصب ونحو هذا كله ، وإن كانت هذه العادات تختلف باختلاف الفهم فى كل أمة ، وإلى جانب هذه العادات المشتركة تقوم عادات أخرى خاصة بكل أمة ، فأهل « بونتوس » لا يجدون معرة فى النكاح جهرا ، كأنما كانوا كلابا ، ويعبد المصريون الحيوانات والطيور ، ويتصارع أهل « أفسوس » مع الثيران . . الخ ومثل هذه العادات خاص ليس عاما مشتركا بين الشعوب ، وعلى المعبر أن يفهم عادات كل شعب وتقاليده ، حتى يعرف تصور أفراده للخير والشر ، وبهذا لا يخطىء فى التعبير ، فأن الرمز يختلف باختلاف الأمم ، وكل امرىء إنما تقع رموزه وفقا لتصوراته وتبعا لمعتقداته . (٢)

وتختلف معانى الرمز باختلاف الأفراد ، فولادة الطفل فى رؤيا إن وقعت لفقير ، أصاب خيرا ورزقا ، فأن وقعت لعامل يشتغل بيده أدركه الشر ، لأن

---

1) Freud, Interpretation of Dreams, p. 82

وفى كتاب أرطميدورس سيل من هذه الامثلة التى تؤيد ما يقوله عنه فرويد وبوشبه لوكليرك وغيرهما

(٢) أرطميدورس فى المصدر نفسه — الفصل التاسع

الطفل يولد ساكنا مقبوض اليد ، فيكون رمزاً للتعطل ، فأن وقعت لغنى فقد سلطانه على بيته ، وخضع لارادة غيره ، لأن الطفل على الدوام محكوم بغيره ، فأن كانت زوجة لعالم رزقت ولداً ، فأن كان الحالم عبدا أحبه سيده ، وإن اقترف إثما غفر له ، ولـكنه لا يتحرر من رقه ، لأن الأطفال يخضعون لسلطان غيرهم ، فإن كان الحالم مصارعا انتظره الإخفاق ، لأن الطفل لا يقوى على الحركة والهجوم ونحوه . . . إلى آخر المعانى التى يحتمل أن يحملها الرمز الواحد لأصحاب الرؤيا (١)

والرمز إنما يخضع لثقافة صاحبه ومعلوماته ونحوها ، فيتحقق بالمعنى الذى يفهمه صاحب الرؤيا ، فاليونانى لا يفهم الجمل باعتباره حيوانا ، بل باعتبارة رمزا للكرم وحسن الضيافة ، ويرى أن نخذه المنحنية تعبر عن كسر الساق فى اليقظة (٢)

وقد تتغير معانى الرمز بتغير اللغات ، وطرق أهلها فى اشتقاق ألفاظها ونحو ذلك ، فالذئب فى حلم اليونان قد يدل على السنة ، لأن السنة Lycobas والذئب Lycos (٣) ، وربما دل الخروف فى الحلم على السيد والرئيس والملك ومن إليه لأن اسمه Krios وكلمة Krinein تعنى يحكم (٤) . وقد يشير الغنم إلى الإنسان ،

---

(١) أرطميدورس فى الفصل الرابع عشر

(٢) المصدر نفسه فى الفصل الخامس

(٣) قارن معجم : .L. & S الذى يشتق Lycobas من لوكى : Lyce بمعنى الضوء ، ولا يسلم باشتقاق أرطميدورس ، ولـكن يظهر أن اشتقاقه كان معروفا ، فأن الامبراطور جوليان قد استعمل هذا الاشتقاق فى مدحه للشمس — وهذا التعليق والذى يليه لزميلنا الدكتور محمد سليم سالم

(٤) لا يسلم .L. & S بهذا أيضا ويرى ان Krinein معناها يفصل بين شيئين ، ومعناها المجازى يفصل فى قضية ولـكن ربما وجد أرطميدورس فى اللغة ما يؤيد وجهة نظره

وتنبىء عن الخير لمن يطمع فى رقى أو تقدم ، ، لأن اسمها « بروباين » و pro. = إلى الأمام : Baino = يمشى (١) ، ونكاح الرجل الكامل الرجولة لابنه ينبىء عن عودة غائب واجتماعه به ، لأن Coitus تعنى يجتمع وجماع (٢) . ونكاح المريض لأمه الميتة ، ينبىء عن موته العاجل ، فأن الموت يؤدى إلى تحلل البدن إلى مادة (أم = Mater والمادة = Materia فاتصاله بالأم اتصال بالتراب ، ثم أننا نسمى الأرض أما (٣)

وقد تتغير معانى الرمز بتغير أمثال الناس وقصصها ومألوف حديثها ، وقد جرت العادة بأن تسمى الصناعة والوطن والطبيعة أما ، فالاتصال الجنسى بالأم قد يدل على تعطل فى الصناعة أو وظائف الدولة ، وقد يؤول – استنادا إلى أنه سيطرة على الجسم والأرادة – إلى تولى إدارة المدينة والأشراف على شئونها وهلم جرا (٤)

ومن أجل هذا كله ، وجب على المعبر أن يعرف صاحب الرؤيا من حيث ثراؤه أو فقره أو صناعته أو مركزه أو نحو ذلك ، ويتصل به أثناء التعبير للاستفسار منه عما خفى عنه . ويؤكد أرطميدروس هذه الفكرة فى فصل له عن الأمور الضرورية - لا المفيدة - لمعبر الأحلام ، فيقول : ليس من المفيد فحسب ، بل من الضرورى لمعبر الأحلام ، أن يكون على اتصال بصاحب الرؤيا ، ليعرف من هو وما مهنته وكيف ولد ، وماذا يملك وما حالته الجسمانية من حيث الصحة والمرض وما عمره . . . الخ (٥) . بل إنه ليسأله عن شعوره

---

(١) الفصل الثانى عشر من الكتاب الثانى فى أرطميدورس

(٢) الفصل الحادى والثمانون من كتاب أرطميدورس

(٣) أرطميدورس فى الفصل الثانى والثمانين من كتابه السالف

(٤) المصدر نفسه فى الفصل نفسه

(٥) أرطميدورس فى الفصل العاشر

نحو رؤياه ، ومدى توقعه الخير أو الشر من ورائها ، ومبلغ اغتباطه أو ضيقه بها عند وقوعها (١) ، فأن التعبير يتأثر بالمؤثرات الحسية - كالأكلة الثقيلة والأحوال النفسية التى تسبق الرؤيا(٢) ، ومن هنا وجب أن يستعين المعبر على تأويل ما أشكل عليه بالاستفسار من صاحبها عن حالته النفسية ، لأن لهذا خطره فى توقعه الخير أو انتظاره الشر (٣) . وعلى المعبر أن يعرف بأن التعبير يقوم على نظرية ، تقول بأن الرؤيا كلٌّ واحد متسق ، يفسر بعضه بعضا ، وربما ساعد آخرها على تفسير أولها ، ودلت بدايتها على معنى نهايتها ، ولهذا فليس يجب التسرع فى إعطاء كل رمز فيها معنى مستقلا بذاته ، لأن الرؤيا وحدة أو كل واحد (٤)

وذلك كله بالإضافة إلى أن الرمز قد يتغير بتغير الوقت الذى تقع فيه الرؤيا ، فليست رؤيا الليل كرؤيا النهار ؛ ولا يستوى وقوعها عند مطلع الفجر مع وقوعها بعد العشاء (٥) . وقد كانت النظرية الشائعة فى العالم اليونانى الرومانى كله ، توجب الاهتمام بأحلام الصباح ، لأن النفس تكون إذ ذاك قد تخلصت من مؤثرات اليوم السابق ، ويكون الجسم أبان هذا أكثر راحة وطمأنينة . ولعل « هوميروس » هو أول من نادى بهذه النظرية (٦) .

وفى الحق إن التعبير لمهنة شاقة عسيرة ، ومناهجه متعددة متباينة ، فمن الرموز ما يعبر عن الحقائق نفسها ، فإذا جرحت فى المنام تحقق الجرح فى اليقظة ، على

---

(١) المصدر نفسه فى الفصل الثالث عشر

(٢) المصدر نفسه فى الفصل الثامن

(٣) المصدر نفسه فى الفصل الثالث عشر

(٤) الفصل الثانى عشر من المصدر نفسه

(٥) الفصل الثامن من المصدر نفسه

6) Bouché-Leclercq, Hist. de la Div. 1, p. 286

نفس النحو الذى وقع فى الحلم (١)، ومن الرموز ما يؤول إلى ضده، فإذا حلمت بالفقر اغتنيت، أو بالعبودية تحررت وهلم جرا (٢)، وهذه طريقة عرفها منذ القدم الكهنة والمنجمون والعرافون والمسنات من النساء، فكانوا إذا عرضوا لتعبير حلم مفرح أولوه بالسوء، واعتبروا الصقيع والجليد فى المنام ناراً مخيفة فى اليقظة (٣). وقد يستغل المعبر تحليل الاسم فى معرفة معناه، فقبح الاسم قد يقلل من يمن الرؤيا، أو يزيد من شرها، ومن معانى الأسماء قد تفهم الحقائق، فقد يفيد سليم معنى السلامة، وسعاد معنى السعادة، وفى اليونانية يدل اسم : Menon على المقيم و : Menecrates على سيد البقاء. و : Cratianus على القوى، ومن أجل هذا دلت فى الرؤيا على الزجر عن السفر، كما أن اسم Zenon و Zenophilos و Theodorus تشير إلى الشفاء و Karapos (المثمر) Elpidophoros (أى حامل الأمل) و Eutychos (أى سعيد الحظ) تشير إلى الثراء والجاه و Tharcon (أى الشجاع) و Thrasylos (المعنى نفسه) و Thrasybolilos (أى الحازم فى الرأى) تحرض على الأقدام وعدم الركون إلى الكسل، وكذلك الحال فى أسماء النساء (٤)

وربما تطلب التعبير رد الرمز إلى ما يقاربه من معان، جرى بها العرف أو قررتها التقاليد، أو نحوها مما يعرفه كافة المعبرين فى كل زمان ومكان، فالشعر زينة للنساء، فإن سقط جزؤه الأيمن، فقد الحالم الذكور من أقاربه، وإن سقط جزؤه الأيسر فقد الأناث منهم، وهكذا تكون التفرقة بين اليمين واليسار فى سائر أعضاء الجسم... الخ (٥)

---

(١) ارطميدورس فى الفصل الثانى

(٢) الفصل السادس من المصدر نفسه

3) M Forster : Studies in Dreams, p. 118

(٤) ارطميدرس : الكتاب الثالث فى الفصل الثامن والثلاثين

(٥) الفصل ١٩ و ٢٠ و ٢٢ وغير ذلك كثير

وإذا كان التعبير فناً شاقاً على هذا النحو، كان طبيعياً ألا يتولاه إلا أصحاب العقل السليم والرأى السديد . (١)

فإن عز عليه بعد هذا أن يعبر الرؤيا ، وجب عليه أن يقتدى بالكهان الذين يستنبئون أحشاء الضحايا ، فإنهم إن التبس عليهم الأمر ، امتنعوا عن إبداء رأى ، لأن الخطأ يستتبع خطأ آخر ، ثم هم لا يقولون بأن العلاقات التى ترى فى الأحشاء غير صادقة ، وإنما يعترفون بقصورهم عن إدراك معناها ، وكذلك ينبغى أن يكون الحال مع معبر الأحلام ، متى استعصى عليه التعبير ، فلا يتكلم عفواً واعتباطاً ، ولا ينطق إلا عن روية وتفكير . فإن الاستخفاف بالتعبير أمر شائن لا يشرف صاحبه ، فوق أنه مضرة لصاحب الرؤيا .(٢)

على أن التزام المعبر لهذه الأصول ، وتوافر هذه الصفات فيه ، لا ينفع متى أساء صاحب الرؤيا روايتها ، فأضاف إليها أو حذف منها وغيّر فى معالمها ، إنه إن فعل هذا ساء تعبيرها ، ووجب ألا يلومنّ إلا نفسه . (٣)

وعلى هذا النحو يمضى أرطميدروس فى شرح آرائه خلال كتابه ، فإذا جردناها من صبغتها اليونانيه الوثنية ، وجردنا ما يقابلها فى آراء المسلمين السالفة من مسحته الدينية العربية ، فماذا نرى من خلاف بينهما رغم تفاوت الزمان واختلاف المكان . . . ؟ بل إن الكثير من الآراء التى أسلفناها ، لا يحتاج إلى تجريده ، من مسحته المحلية ، لأنه عام مشترك ، وهكذا نلاحظ أن تفكير المسلمين فى هذا الصدد ، كان صدى الأصول التى أسلفناها عن أرطميدروس ، الذى انتقل إلى العربية وساير عقلية أهلها ، ولكن ، ألا يجوز أن يكون المسلمون قد اهتدوا ، أو كان ينتظر أن يهتدوا إلى هذه الأفكار ، أو

---

(١) الفصل الثالث عشر من أرطميدرس

(٢) المصدر السالف

(٣) الفصل العاشر من المصدر نفسه

أو أكثرها على أقل تقدير ، دون أن يلموا بما كتبه أرطميدروس أو غيره من القدما . . . ؟

علم التعبير ووحدة العقل الإنسانى :

إن فى العقل البشرى عنصراً مشتركا بين الأفراد والجماعات ، لا يختلف باختلاف المكان ولا يتغير بتغير الزمان ، ولعلنا إن تتبعنا الأفكار التى أسلفناها عن أرطميدورس والمسلمين ، وجدنا لها نظائر فى التراث القديم والحديث ، شرقياً كان أو غربياً ، وربما عز إثبات الاتصال بين هذا التراث وتفكير من أسلفنا ذكر آرائهم ، ولنعرض نماذج لهذا التشابه ، الذى يمكن رده إلى وحدة العقل الإنسانى ، دون حاجة إلى البحث عن منابعه التى صدر عنها .

ميز « هومير » بين الرؤيا الصادقة والأحلام الباطلة ، واعتبر الآلهة مرسلى الأحلام جميعاً (١) . وهذا هو رأى المسلمين ، ولكن المعروف أن هومير لم يصادف عندهم اهتماما ، فأهملوا نقل الأوديسا والألياذة ، فى حركة الترجمة المعروفة عندهم . وفرق الرواقية بين الرؤيا التى تكون من الله ، والحلم الذى يكون من حديث النفس وصدى طبيعتها ، وقالوا إن الله لم ينشىء الأحلام الباطلة أبداً (٢) . وقسموا الرؤيا إلى صراحة لا تحتاج إلى تعبير ، ومرموزة تعتريها التأويل ، وساقوا من الأمثلة ما يوضح رأيهم (٣) . ولاحظ اتباع أتباع الأكاديمية الجديدة فى ردهم على الرواقية ، أن الرؤيا الواحدة تختلف فى المعنى الذى تحمله باختلاف الناس ، بل قد تختلف عند الفرد الواحد باختلاف ظروفه ، أو باختلاف المعبرين الذين يعرضون لتأويلها (٤) .

---

1) Bouché-Leclercq, Histoire de la Divination 1. p. 294.
2) Cicero : Divination, II ch. 62

(٣) قارن المصدر نفسه فى الفقرتين الخامسة والستين والسادسة والستين من الكتاب الثانى
(٤) قارن المصدر نفسه فى الفقرتين السبعين والتاسعة والستين من الكتاب الثانى

ولاحظ شيشرون فى رده على الرواقية ، اختلاف المعبرين فى تأويل الحلم الواحد ، إذ قال إن حدس المعبرين أدل على فطنة أصحابه . منه على قيام علاقة بين الأحلام وقوانين الطبيعة ، واستشهد بأمثلة استعان بها من أبحاث «كريسبوس ، وه أنتباتر » الرواقيين ونحوهما ، فقال إن عدّاء تحوّل فى المنام إلى نسر ، فعبر الرؤيا أحد المعبرين بالنصر ، باعتبار النسر أسرع الطيور ، وأولها غيره إلى الهزيمة ، استناداً إلى أن النسر يطارد غيره من الطيور ، فهو على الدوام يسير وراءها .. ! وفى رد شيشرون كثير من أشباه هذه المثل (١) . وقد تبع فى رأيه فى الحدس نظرية « أنتيفون » معبر الأحلام اليونانى ، الذى كان يرى أن التعبير يقوم على المهارة الفنية ولا يستند إلى الإلهام ، ومعبر الأحلام كشارح دواوين الشعراء (٢) وهذا هو رأى الغزالى ومن جرى مجراه من المسلمين على ما عرفنا من قبل .

وكان الفيثاغوريون يعلقون أهمية كبيرة ، على هيئة الجسم وأوضاعه عند النوم ، وقد حرموا النوم على الظهر والجانب الأيمن ـ كما عرفنا فى آداب النوم ـ وقالوا إن لفصول السنة تأثيراً على الأحلام ، فالربيع يخلع على الصور الوضوح والجلاء ، لأنه مستهل العام ، والخريف لا يلائم الرؤيا لأنه يحمل الأمراض وأسباب الضيق (٣) ، كما كانوا يلتمسون الرؤيا الصادقة من الآلهة بدعوات معروفة (٤) .

ونظرة الرواقية إلى معبر الأحلام ، تشبه نظرة المسلمين من بعض الوجوه ، إنه يكون أقدر على التعبير متى كان طاهراً نقى النفس ، بعيداً عن الدنس (٥) ، ممتازا

---

(١) قارن الفقرة السبعين من الكتاب الثانى فى المصدر السالف

(٢) المصدر نفسه : الفقرة الحادية والخمسون فى الكتاب الاول

3) Bouché-Leclercq, Hist. de la Eivination, 1 p. 287

4) ibid. 1. p. 287

بالذكاء الغلاب والعلم الكامل كمالا مطلقا بل إنه لا يستطيع أن يكون معبرا إلا إذا كان حكيما (١)

ولكن لماذا نهتم بالبحث عما يشبه أفكار المسلمين فى التراث القديم ، ونغفل التفتيش عن المنابع التى صدرت عنها أفكار أرطميدروس نفسه ... ؟ ألم ينقل هو عن غيره كما نقل غيره عنه .. ؟

أرطميدورس والمسلمون فى التراث الشرقى القديم :

إن مؤرخى الأحلام يقولون إن آراء أرطميدورس ، ليست أصيلة نبتت فى عقله أو فى بيئته ، وإنما استعارها من تراث شرق قديم .. ! فيقول الأستاذ « سايس » A. H.Sayce إن البابليين قد ردوا الرؤيا إلى الوحى الألهى ، وأسرفوا فى دراستهم لتعبير الأحلام ، حتى ميزتهم هذه الدراسة وأضحت علما عليهم ومن كتبهم استمد أرطميدورس مادة كتبه فى تعبير الأحلام (٢) أى أبواب الكتاب الذى نستشهد به - ويقول « بوشيه لوكليرك » Bouché-Leclercq إن اليونان لم تكن أكثر البلدان مهارة فى تعبير الأحلام ، ولهذا فأن أهلها كانوا يشعرون بأن عليهم أن يتعلموا الكثير من هذا الفن على يد جيرانهم ، وقد تلقوا هذا الفن عن مصر والشرق ، بعد أن استعاروا تقاليده (٣) ، ولاشك أن أرطميدورس قد أفاد من هذا كثيرا

هذا رأى له خطره العظيم فى تاريخ حركة النقل والاقتباس فى مادة الأحلام ، لأن المسلمين إذا كانوا قد أخذوا عن أرطميدورس وغيره ، الكثير من وجوه التفكير فى تعبير الأحلام ، فأنهم يكونون قد استردوا تراثا شرقيا

---

1) ibid. 11, ch. 63

2) A. H. Sayce, Hastings' Encyclopedia of Religion & Ethics vol. V.

3) Bouché-Leclercq, Hist. de la Div. 1. p, 292 & 295.

قد انتقل إليهم عن طريق اليونان . . . ! ومن أجل هذا سارعوا إلى قبوله ، وتمكنوا من تمثله وهضمه ، كما قبله وتمثله كل شعب له مثل حظهم من الثقافة .

ولكن إذا كانت المادة التى انتقلت من مكان إلى مكان ، تراثا عقليا مشتركا بين الشعوب على اختلاف مللها ونحلها وجنسيتها وعصرها ، فلماذا لا تكون هذه المادة استجابة العقل البشرى للبيئات المتماثلة والمؤثرات المتشابهة ، دون أن يكون هناك نقل أو اقتباس . . ؟ ثم متى نقل كتاب أرطميدورس إلى العربية ، ومتى ظهرت وجهات النظر الأسلامية فى فن التعبير . . ؟ ألا يجوز أن يكون المسلمون قد اهتدوا إلى الكثير من أفكارهم قبل أن ينقل إليهم كتاب أرطميدورس . . . ؟ إن أفكارهم — فيما يلوح — لم تظهر فجأة ، وإنما جاءت على درج . شأنها فى ذلك شأن الأفكار التى تتصل بموضوع واحد عند شعب من الشعوب . ولكن إذا جاز — إذا جاز أن يرد أكثرها إلى « ابن سيرين » — وهو إمام التعبير عند المسلمين — كانت أصيلة عند أهلها ، ولم يكن لأرطميدورس فضل فيها ، فأن ابن سيرين مات سنة ٧٢٨م — ١٠٨هـ . (١) ، وناقل كتاب أرطميدورس (وهو حنين بن اسحق قدمات سنة ٨٧٧م فإذا افترضنا أنه نقل الكتاب أول عهده بالترجمة — باعتبار الكتاب بسيطا غير معقد ، كانت ترجمته له سنة ٨٢٦ على أقل تقدير ، وبهذا يفصل بين وفاة ابن سيرين وبدء عهد حنين بالترجمة ، قرن من الزمان ، وعندئذ لا يرتقى إلينا الشك فى أن المسلمين لم يأخذوا عن أرطميدورس آراءهم فى فن التعبير ، إلا إذا قيل إن أفكاره قد وصلت إليهم قبل ترجمته فى اقتباسات المشتغلين بالعلم . . .

على أننا نفترض بهذا أن أفكار المسلمين التى كان ينقلها بعضهم عن بعض ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٨ طبعة دار الرجاء بالقاهرة وقيل إنه مات سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ — ٧٢٩ م) وانظر ص ١٩٥ ق تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية لمعالى مصطفى باشا عبد الرازق .

لم تُعرف إلا أيام ابن سيرين ، وهو افتراض لا يسهل إثباته ، بل لعل الأرجح أن يقال إن المسلمين قد فكروا فى الأحلام منذ أول عهدهم بالحياة ـ شأنهم فى ذلك شأن سائر الشعوب ـ ولكن أرطميدورس عند ما نقل إليهم ، تمشى مع تفكيرهم فى نفس الاتجاه الذى تسير فيه أفكارهم ، ومن أجل هذا قبلوه وتمثلوه . ومثل هذا يمكن أن يقال فى آراء الفيثاغوريين والرواقيين ومن إليهم ، ممن يحتمل أن تكون أفكارهم قد انتقلت إلى المسلمين ، وكثيراً ما يشير إلى هذا المؤرخون ، كأن يقولوا إن التماس الرؤيا بالدعاء لله ، طريقة يونانية مصرية ، وفى أوراق البردى المصرى ما يشهد بما نقول (١)

التفكير المتشابه مع اختلاف الزمان والمكان :

وينبغى ألا نبالغ فى نقل المسلمين عن غيرهم ، فأن وحدة العقل الإنسانى عند كافة الشعوب فى شتى العصور ، تأتى بالعجائب فى وجوه التشابه فى الأفكار ولا سيما فى موضوع ـ كموضوع الأحلام ـ أليف عند الناس فى كل زمان ومكان (وقد فطن إلى هذا أحد المشتغلين بدراسة الأحلام ، فوضع رسالة للدكتوراه فى الأحلام عند البدائيين ، أشار فى فصل من فصولها ، إلى أن العقل قد يفكر تفكيرا متشابها رغم اختلاف الزمان والمكان ، ودلل على صدق هذا بمقارنة موجزة ، عقدها بين معانى الرمز الواحد فى أحلام اليونان ، كما وردت عند أرطميدورس فى القرن الثانى للميلاد ، وبين معانى هذا الرمز نفسه ، عند سكان افريقيا الوسطى المعاصرين لنا ، كما عرفها المؤلف عند عشرة رؤساء عشائر من « نياسالاند » واستشهد بعدة أمثال على هذا التشابه الذى يتخطى الزمان والمكان (٢) ، فرأينا نحن أن ننقل هنا الأربعة الأولى من هذه

---

1) Bouché-Leclercq, Hist. de laDivination 1, p. 289,

2) J. S. Lincoln : The Dreams in Primitive Cultures p. 127.ff. وقد استند فيها إلى كتاب « Central Africa and Artemidorus » Man. p. 211. ; وكتاب Rose Hodgson Dreams in Cenfral Africa man. ص ٦٦ — ٦٨

النماذج ، بعد أن نضيف إليها معانيها عند المسلمين فى العصور الوسطى ، كما وردت فى الكثير من مصنفاتهم ، لنؤيد بهذا صدق هذه القاعدة ، التى تنفى القول بنقل اللاحق عن السابق ، كلما وجد بينهما تشابه فى بحث الموضوع الواحد :

نماذج فى تعبير الأحلام لهذا التشابه :

الطـيران فى الأحلام :

ينبىء عند سكان أفريقيا الوسطى عن العمر الطويل والصحة الطيبة ، وفى أرطميدورس أن من سوء الطالع أن تطمع فى القدرة على الطـيران فلا تتهيأ لك هذه القدرة ، ومثل هذه الأحلام تنبىء عن الحظ السعيد ولكنها لا تعنى العمر المديد .

أما عند المسلمين فإن من معانى الطيران الحظ السعيد ، فالسجين إذا طار فى منامه أطلق صراحه ، فإن وقع هذا لمملوك أعتق ، فإن طار من كوة أبق ، ومن طار فوق جبل نال سلطانا أو أصاب ولاية ، وغلب فيها ملوكا وصعابا ، فإن طار فى الهواء نال عزة ورفعة ، فإن طار إلى عنان السماء حج إلى بيت الله ، وإن طار بغير جناح إلى العلا ، حقق أمنيته وارتفع بقدر ما علا ، فإن كان بجناح أصاب خيراً . . . . (١) الخ وفى هذه المعانى كلها حظ طيب وإن لم يرد فيها العمر الطويل .

٢ — النار المشتعلة فى الأحلام :

تدل عند سكان إفريقيا الوسطى على وقوع مصيبة ، وينبىء التهاب عوسج كبير عن وقوع حرب — وفى أرطميدروس تدل النار فى السماء على الحرب أو المجاعة والقحط

---

(١) ابن شاهين : الاشارات ص ٢٦٧ — والنابلسى فى تعطير الانام ج ٢ ص ٦٢

أما عند المسلمين فإن من معانيها الحرب ، ومن رأى لهبين يهب كل منهما نحو الآخر ، فقد دل حلمه على اقتتال جيشين ، وأيهما كان الريح معه كانت الغلبة له ، وأيهما . . . وقيل إن النار إذا رؤيت نهاراً ، دلت على الحرب والفتنة ، ومن رأى ناراً أحرقت بعض ثيابه . أصابته مصيبة أو أدركه بلاء . وربما دلت النار على القحط والوباء والجراد الذى يفضى إلى الجدب والقحط (١)

٣ ـ صعود شجرة أو ارتقاء تل :

يدل عند سكان إفريقيا الوسطى على ارتقاء إلى رياسة أو قيادة أو مستوى أعلى ـ وفى أرطميدورس يدل نزول السلالم على الهبوط إلى مستوى طغام الناس

أما عند المسلمين فأن صعود السماء نيل رياسة وشرف عظيم ، وارتقاء التل ارتفاع وسلطنة مع مشقة ، وكل صعود يراه الأنسان إلى ، جبل أو عقبة أو تل أو سطح أو غير ذلك ، ينبىء عن قضاء المطالب والحاجات (٢) . ومن صعد جبلا نال عزاً ورفعة وشرفا . . . (٣) الخ

وإن كان فرويد يؤول هذا وفقا لاتجاهه فى تغليب الناحية الجنسية ، فيرى أن صعود السلالم تعبير عن الجماع فى أغلب الحالات (٤)

٤ ـ فقدان الأسنان فى الأحلام :

يعبر عند سكان إفريقيا الوسطى عن فقدان زوجة أو طفل أو أحد الأقارب ،

---

(١) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٢١٩ ، النابلسى فى تعطير الانام جـ ٢ ص ٢٩٠ — ٢٩٢ ، وابن شاهين فى الاشارات ص ٢٦٢ — ٢٦٣

(٢) النابلسى : تعطير الانام جـ ٢ ص ٤٣ — ٤٤ وابن شاهين فى الاشارات ص ١٦٦

(٣) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ١٩

4) Freud, Interpretation of Dreams, P. 256.

وهو فى أرطميدورس فقدان أحد من أفراد الأسرة ، والأسنان عنده متصلة بالأطفال ، وإمساك الأسنان الساقطة من فم إنسان ، يعبر عن فقدان الأطفال بالموت أو بغيره . ووجد الأستاذ « سليجمان » Seligman أن فقدان الأسنان يؤول فى كل مكان تقريبا ، بمعنى فقدان قريب أو صديق (١)

أما عند المسلمين فإن الأسنان « أهل بيت الرجل وفراشه » (٢) أى زوجته وأقاربه كذلك (٣) ، فالعليا ترمز للرجال من أهل بيته ، والسفلى للنساء ، والناب سيد بيته والثنية اليمنى . . . إلى آخر الأهل والأقارب ـ وضياع الأسنان وسقوطها إلى الأرض موت أو غيبة أو عودة بعدها ، وقلعها قطع رحم . وقيل إن الفم بمنزلة المنزل ، والأسنان بمنزلة السكان (٤) . وإذا سقطت أسنانه فأخذها بيده أو نحوها انقطع ولده . . . (٥) الخ فأن نبتت له سن أفاد ولدا أو أخا ، إن أضرت به أضره الولد أو الأخ الجديد . . (٦) وعند المحدثين مشابه من ذلك ، ففقدان الأسنان فى حلم المرأة ، يمكن أن يعنى عند فرويد الطلاق ، لأن الأسنان تتداعى فى أغلب الحالات مع الأطفال (٧)

هذه أمثلة أربعة من ثمانية عشر مثالا ساقها « لنكولن » فى بحثه لرسالة الدكتوراه ، ليدلل بها على نزعة العقل للتفكير المتشابه ، بين تعبير الرمز الواحد عند اليونان فى العصور القديمة ، والمسلمين فى العصور الوسطى ، وسكان إفريقيا فى العصر الحديث ، ومن الواضح - فيما يشير

---

1) Lincoln, op. cit. p. 128

(٢) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٢٨ (٣) ابن شاهين : الاشارات ص ٨٠

(٤) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٦٤ — ٦٥

(٥) النابلسى : تعطير الانام ج ١ ص ٣١٠ — ٣١١

(٦) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ٢٨٦ — ٢٨٧

7) Lincoln, op. cit. p. 130.

« روز » H. J. Rose أن أرطميدروس لم يدرس العادات عند سكان إفريقيا الوسطى، وأن هؤلاء لم يقرءوا كتابه، ويلموا بأفكاره، إلا أن هذه الاستشهادات تكشف لنا عن طريقة العقل البشري، في نزوعه إلى التفكير المتشابه في كل زمان ومكان، وهذا الرأي ينسحب على دراسة الأستاذ « سليجمان » Seligman لنماذج أحلام عامة، تؤول تأويلا متشابها في كثير جداً من البقاع (١)، وقد لاحظ « لنكولن » أن الشمس تؤول في كل مكان إلى الملك والأب — ولاسيما عند عباد الشمس (٢). وبالبحث عن معانيها عند المسلمين، وجدنا ما يؤيد ما يقول، فأنها الملك الأعظم أو الأب (٣)، فهي الملك الأعظم لأنها أكبر ما في السماء نورا، وهي الأب لفضلها في الإشراق والضياء (٤). وقيل إنها تدل على أحد الأبوين (٥). وردّ بعضهم تأويلها بالسلطان إلى دانيال (٦)

وإذا كان المسلمون قد عرفوا أرطميدورس لأنه نقل إلى لغتهم، فأخذوا عنه تعبير الرموز التي أسلفناها — فأنهم — فيما يرجح — لم يتصلوا بسكان أفريقيا المعاصرين له، حتى يتبادلوا معهم هذه المعاني، أو ينقلها أحد الفريقين عن الآخر — ولهذا ينبغي أن نتريث في الحكم، فلا نجزم بنقل اللاحق عن السابق، أو نقطع بعدوى الثقافات والعادات كلما صادفنا تشابها بين شعبين، ووحـــدة العقل

---

1) C. G. Seligman, "Anthropology & Psychology", J. of Roy. Anth. Inst., Vol. LIV, 1924, p. 37. Seq.; The Unconscious in Relation to Anthropology "Br. J. of Psychology, vol. XVIII, Part 4, 1928, pp. 374 – 87 فيما يذكر لنكولن ص ١٢٩

2) Lincoln, op. cit. p. 115.

(٣) النابلسي : تعطير الانام ج ٢ ص ٢

(٤) ابن سيرين : منتخب الكلام ص ١٦٠ — ١٦١

(٥) ابن سيرين : تعبير الرؤيا ص ٩ (٦) ابن شاهين : الاشارات ص ١١، ١٢

الأنسانى تجعله يستجيب للمؤثرات المتشابهة بطريقة واحدة ـ ولاسيما إذا كان حظه من الثقافة والتفكير واحدا ـ مع اختلاف الزمان والمكان .

أرطميدورس وعدوى أفكاره عند المسلمين :

على أن التسليم بوحدة العقل البشرى ، لا يمنع من قيام عدوى الأفكار ، وانتقالها من شعب إلى شعب ، ومن عصر إلى عصر ، متى كانت البيئة التى تنزل بها هذه الأفكار ملائمة لحياتها ، وكل ما أسلفناه فى وحدة العقل وتشابه دلالات الرمز الواحد ، عند اليونان والمسلمين وسكان أفريقيا الوسطى ، لا يمنع من التسليم بتأثر المسلمين بأرطميدورس وغيره ، كما أنه لم يمنعنا من تقرير تأثر أرطميدورس نفسه بالشرق القديم . لقد أقامت الشعوب كلها علاقة مّا بين الرمز ودلالته ، وكان التشابه بينهما هو أساس هذه العلاقة ، فالمعقول أن يكون فى دلالات الرموز ـ أو بعضها على الأقل ـ جزء مشترك بين الشعوب فى مختلف العصور ، ولكن لا يشترط فى كل شعب أن يهتدى وحده إلى قواعد عامة وقوانين كلية لفن التعبير ، هذا أمر يحتاج إلى مرحلة خاصة فى الثقافة ، لا ، بل إنه ليحتاج إلى عقلية علمية تقنن المعلومات وتصبها فى قوالب القواعد العامة ، وليست تكفى الثقافة لبلوغ هذه المرتبة ؛ ولسنا ندعى بأن هذا التقنين قد وجد ظاهرا فى مصنفات المسلمين ، ولكن قواعدهم كانت لا تحتاج على ما عرفنا لغير الصياغة العلمية ، ومن المحتمل أن يكونوا قد تأثروا فيه بعنصر أجنبى دخيل ، والتشابه الدقيق بينهم وبين أرطميدورس فى الكثير من آفاق التفكير ، يبرر ترجيح الظن بأنهم تأثروا به فى بعض هذه الآفاق على أقل تقدير . وإذا كان مؤرخو الأحلام على اتفاق فى تقدير كتابه ، واهتمام الشعوب بنقله إلى لغاتهم ، فلماذا نرفض التسليم بتأثيره فى تفكير المسلمين بعد نقله إلى لغتهم ، وهو قريب إلى نفوسهم وعقولهم معا . . ؟ ولسنا نكتفى فى تقرير هذا التأثر بالاستنتاج المنطقى وحده ، بل لقد عثرنا مصادفة على شاهد له خطره فى هذا

الصدد ، ذلك أنا نلاحظ أن مصنفي كتب الأحلام من المسلمين ، ينقل بعضهم عن بعض . دون إشارة إلى هذا النقل فى أكثر الأحايين ، وفى الكثير من هوامشنا ما ينبىء بذلك ، ومع هذا فأننا لم نعدم من بينهم من يستشهد بأقوال أرطميدورس ...... ! فان غنام المعبر يقول فى مخطوط له ، فى مقالته الأولى بمقدمة هذا المخطوط : « قال المسلمون إذا صفا الدم والبلغم ..... وقال أرطميدورس إن المرء إذا استعمل حواسه وتبعها ضعف ، وانحل رباطه حتى لا يكاد يحس شيئا ، سكن ونام وذل ، لأن الحواس قوامها بالروح ، فإذا تعبت حن الروح إلى السكون » (١)

وليس ابن غنام بنكرة فى هذا المجال ، فأن كبار المصنفين الذين أشاروا إلى المصادر التى رجعوا اليها وأخذوا عنها – من أمثال النابلسى – قد ذكروا ابن غنام كمرجع لهم (٢) . وقد كان النابلسى فى طليعة مصادرنا فى هذا الباب (٣) وقد روى أن ابن غنام قد سبقه فى منهج الكتابة فى التعبير (٤) ، ومن مظاهر تقدير المصنفين له ، أن كتبه قد وجدت من يقوم باختصارها ويعمل على نشرها ، كالإمام العلامة محب الدين أبى حامد محمد المقدسى (٥)

---

(١) ابن غنام : تعبير الرؤيا ص ٢ وبدار الكتب عدة نسخ منها ، إحداها خطها آية فى الجمال ، وقد أشار فى المقدمة إلى أن كتابه مؤلف على حروف المعجم (ص + ٢) فيبدأ بالالف وينتهى بالياء

(٢) عبد الغنى النابلسى : تعطير الانام جـ ٢ ص ٣٥٠ — وإن كان قد ذكر اسمه محرفا لا ابو طاهر برهان الدين ابراهيم بن يحيى بن غنام المقدسى واسم كتابه — المعلم على حروف المعجم — والمخطوط الذى يشير إليه هو الذى ذكرناه فى الهامش السالف ، وقد ذكر النابلسى اسمه صحيحا فى مقدمته ص ٢ جـ ١

(٣) لاعتمادنا عليه ما يبرره ، فأن كتابه جامع لامهات المصنفات فى هذا الصدد ، ولم يصف إلا القليل مما وقع له ، وقد نبه إلى أنه من كلامه فى موضوع أو موضوعين ، أما غير هذا من هذا الكتاب الضخم ، فتصنيف المصنفات السالفة فيما يقول هو نفسه (جـ ٢ ص ٣٥٢)

(٤) النابلسى : جـ ١ ص ٢   (٥) قارن النابلسى فى جـ ٢ ص ٣٥٠

وقد أخذ ابن غنام يعدّد مشاهير المعبرين حتى أبلغهم مائة رجل ، وضعهم في خمس عشرة طبقة ، واعتبر الأنبياء في أولاها ، والصحابة في ثانيها ، والتابعين في ثالثها ، وهكذا حتى إذا بلغ الطبقة السادسة ، خصها بأصحاب التأليف من أمثال محمد بن سيرين وأرطميدورس . . . . (١) الخ

وأبلغ من هذا في تأييد هذا الرأى ، أننا إذا تتبعنا ما لخصناه من آراء أرطميدورس في كتاب ابن غنام ، لاحظنا أنه يتضمن الكثير منها في مقدمة شملت أربع عشرة مقالة (أى فقرة) مهد بها للأثبات أو الجداول التي وضعها لتعبير الرموز في الأحلام ، ورتبها ترتيبا أبجديا ، وليس ابن غنام إلا نسخة من عشرات المصنفات التي وضعت في هذا الصدد ، وقارئه لا يشعر أبدا بأنه يختلف عن غيره من المصنفين في كثير أو قليل ، فإهمالهم الاستشهاد بأرطميدورس ، لاينفي وقوفهم على آرائه وتأثرهم بها ، وإنما يؤكد طريقتهم في الاقتباس والنقل دون الاهتمام بالأمانة العلمية ، في ذكر المصادر التي يأخذون عنها .

على أن من الخير بعد هذا كله ، أن نقول إن مؤرخي الرؤيا من حاجي خليفه وطاشكبري زاده والقنوجي ومن إليهم ، يذكرون كتب تعبير لجالينوس وإقليدس وبطلميوس وسقراط ومن إليهم من قدماء الغربيين ، فإن كانت هذه الكتب قد ترجمت إليهم ، كان من المحتمل أن يكون لها أثرها في تفكير المسلمين ، وإن كان من الراجح أن تكون بدورها قد تأثرت بالتفكير المصرى الشرقي القديم ، كما ذكرنا نقلا عن مؤرخي الأحلام ، وعدوى الأفكار أقوى من عدوى الأمراض ، فإن من الممكن أن توقف عدوى الأمراض ، بأعطاء الجسم ما يضاد جراثيمها ، أما عدوى الأفكار فإن مقاومتها تزيد شوق العقل

---

(١) ابن غنام ص ٧ و ٨

إليها، وكلف الناس بها، ومن أجل هذا كان نفيها استنادا إلى وحـــدة العقل البشري وما يشبهها، تعنتا لا يسيغه تاريخ التفكير في شتى مراحله

على أن المسلمين لم يكونوا في الجانب الذى نقلوه مجرد نقله، وإنما نفثوا فيه الروح العربي الإسلامى، حتى بدا في ظاهره أصيلا غير دخيل، حتى ليستبعد القارىء أول الأمر، مجرد الظن بأن في هذا التراث عنصرا دخيلا .. !

حسبنا هذا في مجال الموازنة بين أرطميدورس ومصنفى الأحلام من المسلمين، فأن من المستحيل أن يتمكن الباحث من تحديد تأثرهم به تحديدا رياضيا دقيقا، ولكن أين تقف هذه الأفكار كلها في مجال تطور التفكير في هذا الموضوع خلال العصور ...؟ إن الجواب على هذا يقتضى أن نعرض ما يقابل هذه الأفكار عند المحدثين من علماء النفس :

موقف المحدثين من علماء النفس

مذهب فرويد بين التأييد والإنكار:

كانت الأحلام حتى أواخر القرن الماضى، تدخل في باب العرافة والنجامة ونحوها من فنون الخرافات الشعبية، التى تشيع بين الجماهير شيوعا واسع المدى، ومن هنا كان الأقدام على وضع كتاب يتناولها بدراسة علمية جادة، يتطلب شجاعة أدبية - كما تقول « فورستر » ! ولكن « فرويد » قد وضع - قبيل مطلع القرن العشرين - مجلدا ضخما في بضع مئات من الصفحات، تناول فيه دراسة الأحلام دراسة منهجية تجريبية، فأثار الكتاب في كل لغة ترجم إليها[1]

---

(١) ترجمه إلى الانجليزية A. A. Brill تحت عنوان Interpretation of Dreams
ونقله إلى الفرنسية Meyerson تحت عنوان La Science des Rèves
(وسنشير إليه في الهوامش التالية بهذا الرمز I. D.)

عاصفة عنيفة من النقد والتقريظ معاً ، وبهذا خضعت الأحلام لدراسات جرت فى مئات المؤلفات فى نصف القرن الأخير ، وصح بهذا ما يقوله أمثال « ستراوس » Strauss من أن الذين يأبون التسليم بمذهب فرويد فى التحليل النفسى - الذى تعتبر الأحلام لبه وجوهره - ويميلون إلى إنكاره جملة ، يتساوون مع أتباعه الذين ينكرون بعض مناحى مذهبه ويسلمون ببعضها الآخر ، ومع حوارييه الذين يعتنقون مذهبه جملة وتفصيلا ، فى أنهم لا يملكون إلا الاعتراف بأن « فرويد » - رب التفكير السيكولوجى الحديث فى موضوع الأحلام - قد طبع الدراسات السيكولوجية الحديثة بطابعه ، ووجهها فى اتجاه جديد لا سبيل إلى الرجوع عنه . . ! ومن أجل هذا كانت دراسة الأحلام فى علم النفس الحديث ، ميسورة لمن يعرض لبيان مذهب فرويد ، والمذاهب التى قيلت بصدده تأييداً أو إنكاراً - ولكن المقام الآن أضيق من أن يتسع لهذا البيان مفصلا ، فحسبنا أن نعرض منه ما يعيننا على فهم مكان التفكير الإسلامى فى هذا الموضوع - على أكمل وجه مستطاع :

من آثار التصور القديم للحلم :

كان التصور القديم للأحلام ، يقيمها على أساس القول بوجود ملكات نفسية مستقلة ، يقوم كل منها بعمل بعينه ، حتى ذهب البعض إلى قصر الأحلام على الذاكرة ، زاعما أنها لا تفسد ولا تتعطل عن أداء وظيفتها إبان النوم ، وقال إنها تزداد قوة ونشاطا ، ويتبدى نشاطها فى وفرة ما تقدمه من مادة ، وفى السرعة التى تلازمها فى أكثر الأحايين ، عند تذكر المناظر تباعا ، حتى تتتابع الأحداث سراعا ، بعضها وراء بعض فى غير تباطؤ وبدون جهد ، وإن اللحظة القصيرة قد تستوعب من أحداثها ما يملأ أعواما بل قرونا . . !! ، وقد بالغ البعض فى هذا حتى قال إن فى قدرة الحالم أن يستعيد حياته ، ويستعرض أحداثها بتفاصيلها فى بضع لحظات . . . !! ، كما هو الحال عند من أشرف على الغرق

فيما يرى البعض (برجسون) (١) وقد حمل هذا الأسراف بعض المفكرين من أمثال «آرشر» على أن يقولوا إن الأصح أن يقال أننا ننسى كل شيء، من أن يقال إننا نذكر كل شيء. . . ! (٢) وكلا القولين مغالاة لامحالة ، ولكن الصحيح عند هؤلاء ، أن الخيال فى الأحلام لايخترع الأشجار ولا الأزهار ، ولا يخلق العلاقات بينها ، وعلى هذا فليس بدعا إن رأينا فى أحلامنا مدينة حافلة بالشوارع والبساتين ، مكتظة بالبيوت مليئة بالغرف والردهات وما إليها بسبيل ، إن الخيال ينشئها (!!) ويزودها بالغابات والحدائق ويمدها بسائر ما تتطلبه المعيشة فى ظلالها ، ولا يتحتم أن تكون هذه المدينة قد صادفت الحالم وملأت عينه من قبل ، ولكن من المحتم أن تكون العناصر التى ائتلفت منها قد قدمتها ذاكرته (!!) مما وعته من سابق تجاربه ، والخيال ينظمها على طريقته (!!) ويرسلها مصنفة منظمة أو مهوشة إلى عالم الأحلام ...! إنه لا يقدم العناصر فى الأحلام كما تلقاها عن الذاكرة أمينا دقيقا ، ولكنه يتناولها بالتغيير والتأليف والحذف وما إليه ، تبعا للقصة التى ينشئها (٣) . . ! وقد كان المظنون قديما أن الخيال الأبداعى فى الأحلام مطلق دواما ، لأن التداعى فى قصصه ينساب على غير هدى ومن غير قصد أو غاية ، وبدون إشراف من العقل أو رقابة من الأرادة ، إذ كان المظنون أن قوى النفس تفسد وتتعطل عن أداء وظيفتها إبان النوم ، ولكن لوحظ بعد ، أن الأدنى إلى الصواب أن يقال إن الخيال الابتكارى الأبداعى - المقيد برقابة العقل - قائم فى الأحلام كذلك ، ويشهد بهذا ماتراه من حبكة فنية تتجلى فى الكثير من قصص أحلامنا ، فليست الأحلام إذن

---

(١) قيل إن «برجسون» لم يحسن فهم مشكلة التذكر

2) W. Archer : On Dreams, p. 20-22

3) M. Forster. p. 121 - 122.

عرضا طارئا يسببه اضطراب عقلي كما كان المظنون من قبل (١) . ومتى قدمت الذاكرة إلى الخيال (١) كلمة أو اسما أو مكانا أو نحوه ، فسرعان ماتظهر الفكرة التي تنظم قصة الحلم ، وتتداعى أفكاره ومناظره بعد ذلك (٢) .. إلى آخر ما قيل مما يعتمد على التصور القديم فى أمر ما كانوا يسمونه بالملكات النفسية ، وفى ضوء هذا الفهم كان يقوم تأويل الأحلام — متى كانت منصبة على الماضى أو الحاضر

طريقة تحليل الحلم فى مذهب فرويد : (٣)

الحلم فى رأى فرويد ظاهرة جسدية Somatic وليس ظاهرة نفسية (٤) ولا يكفى لتفسير الحلم المنبهات الحسية التى تقع على حس النائم فى إبان نومه ، ومضمون الحلم لا يكون كله استجابة للمؤثرات التى تقع على مركز الأعصاب (المخ) ، بل لا يكفى لتفسير الحلم ، أن نضيف إلى هذه الأحساسات ، الذكريات التى يحتمل أن تثيرها عن طريق تداعى المعانى ، ولا بد لتفسير الحلم ،

---

1) ibid. p. 46-47

(٢) أنظر (فورستر) فى كتابها السالف الذكر ، فى الفصل الخامس من الذاكرة والعقل والخيال فى الاحلام

(٣) لعل خير ما كتب من مذهب فرويد إطلاقا ، هو كتاب Dalbiez, R., La Méthode Psychanalyse et la Doctrine Freudienne 2 vols.
وقد نقله الى الانجليزية T. F. Lindsay تحت عنوان Psychoanalytical Method and the Doctrine of Freud (941, in 2 vols.)
وقد رأينا أن نستعين بهذا الكتاب فى تصوير مذهب « فرويد » ومنهجه فى تأويل الاحلام ، وأن نفيد مع القارىء من الهوامش والمصادر التى رجع اليها (ص٣٩ ومابعدها) ونضيف اليها ما تهيأ لنا من قراءاتنا فى كتب « فرويد » واتباعه وخصومه على السواء .

(٤) دالبيه ج ١ ص ٣٩ وقارن فى هذه الفكرة : فرويد فى I. D. ص ١٠٥ وكذلك Introductory Lectures on Psycho-Analysis ص٨٣
وسنشير اليه فى الهوامش التالية بهذا الرمز I. L.

من التماس نشاط نفسى أصيل ، أعم من الأحساسات والذكريات ، ويعبر «فرويد» عن هذا بقوله : إن للحلم مغزى (١)

ولكن صاحب الحلم كثيرا ما يزعم بأن حلمه ينطوى على تناقض يعوق فهمه ، وأنه لا يدرى كيف تأتى له مثل هذا الحلم الغريب (٢) . فلو لجأ الحالم إلى تأمله الباطنى لتأويل حلمه المتناقض ، لما اهتدى إلى نتيجة يسيغها العقل - ولكن علم النفس الحديث ، يرى - بحق - أن الحالات النفسية الباطنية ، لا تتفق على الدوام مع الحالات الشعورية المدركة ، وأن ما نقف عليه من حالاتنا النفسية ، ليس إلا جزءا من حقيقتنا ، ولتوضيح هذه الفكرة ، يلجأ «فرويد» إلى تجارب «برنهايم» Bernheim التى يقرر فيها بأن من يستيقظ من نوم مغناطيسى ، يدعى بأنه لا يذكر مما وقع له أثناء هذا النوم كثيراً ولا قليلا ، فإذا أبلغه المجرب بطلان زعمه ، وألحّ فى توكيد ذلك ، طفت ذكريات هذا النوم عند صاحبها ، وذكر كل ما عفى عليه النسيان (٣) ، ومعنى هذا أنه كان ينطوى على هذه الذكريات مع جهله بهذه الحقيقة . !

ولزيادة الإيضاح نقول إن «فرويد» يرى أن علاقة الرمز بدلالته ، تتطلب أساسا تقوم عليه ، هى فكرة العلية ، فإذا كان الدخان رمزا وشاهدا على وجود النار ، فردّ هذا إلى أنه نتيجة صادرة عن هذه النار ، ومعنى هذا أن مغزى الحلم علة مضمونه ، والرموز التى تظهر على مسرح حوادثه ، علتها قائمة فى المعانى التى تحملها (٤) ، وبهذا يصبح الحلم - عند فرويد - عرضا نفسيا ، تستلزم دراسته

---

1) I. D. p. 19, 105
2) I. L. p. 83.
3) ibid, 84-5
4) Frink, Morbid fears and compulsions p. 19-22

منهجا موضوعيا ، تيسره مقتضيات مبدأ العليه ، ومن ثم تكون علة المضمون الظاهر للحلم ، قائمة فى العمليات النفسية المستقرة فى مجال اللاوعى ، فهى مصدر نشأته ، وبها يتيسر تأويله — فيما يرى « دالبيه » .

ورب قائل يقول : إن هذا الاتجاه الذى يرد الحلم إلى مكتونات اللاوعى ، ينتهى بنا إلى إخراج الحلم من نطاق البحث العلمى ، وإدخاله فى مجال البحث الميتافيزيقى ، لأن مكتونات اللاوعى ، ليست فى متناول التجربة ، والتحليل النفسى — فى رأى هؤلاء المعترضين — ليس إلا رجوعا إلى التصور الفلسفى القديم لملكات النفس . . ! والواقع أن هذا غير صحيح ، فأن « فرويد » يستعين على تفسير الحاضر بالماضى ، والموجود بما طواه النسيان ، واللاوعى الذى يهتم بدراسته ، مكتسب وليس فطريا موروثا ، وقد كان الاهتداء إلى مغزى الحلم قبل فرويد ، أمراً متعذرا . إذ كان هذا البحث يعوزه قيام منهج يسلم إلى اكتشاف المغزى ، وقد كان « فرويد » أول من فطن إلى هذه المشكلة التى أثارت عند أسلافه اليأس من تأويل الغريب من الأحلام ، فاتجه إلى وضع منهج للتأويل ، ورد الرموز إلى معانيها الخفية ، وكان أساس منهجه التداعى التلقائى الحر ، وبهذا المنهج تحول التناقض الظاهرى فى الأحلام ، إلى اتساق منطقى يكشف عنه تحليل المضمون الصريح ، وتكشف المغزى الحقيقى لكل ما بدا فى الحلم عرضا مجازيا مقنعا ، وبهذا المنهج ثبت صدق ما ادعاه « فرويد » من أن الحلم — بالغا ما بلغ التناقض فى ظاهره — ينطوى على معان ودلالات تساير منطق العقل .

وينبغى أن نفرق بين المضمون الصريح Manifest Content والمضمون

الكامن للأحلام (١) (Latent Content or oneiric ideas). فالمراد بالمضمون الصريح، الحلم كما يتمثل فى حالته الفجة برموزه ومناظره المجازية، أما المضمون الكامن، فيراد به المعانى الخفية التى تستتر وراء هذه الرموز، وتتكشف بعد التحليل، ومن هنا كانت الرموز الظاهرة ومعانيها الخفية، تعبيرين مختلفين عن مضمون واحد، بل إن المضمون الصريح ترجمة للأفكار الأصلية، بدت فى رموز تتكشف قوانين تأليفها بمقارنة الترجمة بأصلها، ولكن الترجمة - وهى المضمون الصريح الذى يتجلى فى رموز وشارات - قد انصبت فى لغة هيروغليفية مبهمة، يقتضى فهمها معرفة معانى ألفاظها واحدا بعد واحد، ومن الخطأ أن نعزو لهذه الرموز معانى تتمشى طرديا مع قيمة صورها وأشكالها، لأن هذا يبديها عبثا مجردا من كل معنى (٢).

على أن مضمون الحلم الكامن، قد يكون فى مجال هامش الوعى، وعندئذ يكون من البساطة بحيث لا يتطلب تأويلا، وإنما يبدو تعقد الحلم إذا كان صادرا عن اللاوعى، لأنه عندئذ يمر بعمليات معقدة، سنعرض لبيانها عند الحديث عن ميكانيكية الأحلام.

وأهم نقطة رئيسية فى أبحاث «فرويد» فى موضوع الأحلام، هى استخدام منهج التداعى التلقائى الحر، عند تأويل رموزها، وليس التحليل النفسى عنده إلا منهجا أو أداة للبحث، وإن غفل عن هذا أكثر الذين عرضوا للبحث فى

---

(١) أنظر كتاب فرويد « تأويل الاحلام » (I. D.) ص ٢٦٨ وكذلك On Dreams ترجمة M. D. Eden ص١٩ و The Origin&Development of Psycho-analysis (وهو مجموعة محاضرات ألقيت فى الاحتفال بمرور عشرين عاما على افتتاح جامعة Clark فى سبتمبر ١٩٠٩ وكذلك فى المحاضرة السابعة فى كتابه I. L. ص ٩٤ - ١٠٤

2) I. D., p. 268-9

مذهب « فرويد » ولا سيما الفرنسيون منهم — فيما يقول « داليه » (١)

ديناميكية الحلم :

لم يكتف « فرويد » بأن يقرر بأن الحلم فى كل صوره ، ينطوى على مغزى يساير منطق العقل ، ولكنه جاهر بأن الحلم متى تم تأويله ، تكشف عن « تحقيق رغبة » Wish-fulfilment (٢) وقد تبدو هذه الرغبة سافرة واضحة، فى الأحلام التى تخلو من وجوه الانحراف distortion وإلا تكشف عنها تحليل الحلم ، وإن بدا ظاهره فى بعض الأحيان على عكس ما يحب صاحبه ويريد.

والأحلام فى رأى « فرويد » رجع لمنبه عقلى ، هى استجابة مؤثرات ، وتنفيث عن وجوه من الأثارة ، بها تمحى آثار المنبه فيتصل النوم ويستمر ، ومعنى هذا أن الحلم ليس اضطرابا فى حياة النوم ، بل هو حارس يقيه من

---

(١) ص ٤٨—٤٩ ج ١ حيث يقول إن أول من أبان للجمهور الفرنسى عن مذهب « فرويد » هو Vaschide فى كتابه Le Sommeil et les Rèves وقد أهمل منهج التداعى ، وإن كان قد تحدث (ص ١٨٧) عن المضمون الكامن للحلم ، وكذلك الحال مع Delage فى مؤلفه الضخم الذى وضعه عام ١٩٢٠ تحت عنوان Le Rève, Etude Psycho'ogique, Philosophique et litteraire وهو يعرض مذهب فرويد ص ٥١٣ —٣٣ ولا يجد منهج فرويد من هذا العالم البيولوجى العظيم الا مجرد تلخيص موجز (ص ٦–٧ و٥٢٨ – ٣٣) وكذلك « جانيه » Pièrre Janet فى الجزء الثانى من Medications Psychologiques يمر بمنهج التحليل النفسى على عجل ص ٢١٦ — ٢٢٢ — أما عن المقالات التى نشرها الكثيرون، فيشيع فيها سوء فهمهم لهذا المنهج

(٢) انظر الفصل الذى عقده فى كتابه « تأويل الاحلام I. D. » بعنوان : الحلم تحقيق رغبة ص ١٠٣–١١٢ وفى الفصل الذى يليه عن الانحراف فى الاحلام ١١٣–١٣٧ والمحاضرة الرابعة عشرة عن تحقيق الرغبات فى الاحلام ، وقد نشرها فى كتابه محاضرات تمهيدية I. L. ص ١٨٠ — ١٩٢

المنبهات التي تعوق استمراره (١) ، ويكون الحلم بهذا ، استجابة لأثارة نفسية مردها إلى وجود رغبة لم تشبع إبان اليقظة .

ويمضي فرويد في بيان وجهة نظره، حتى ينتهي إلى وضع مذهبه في هذه الصيغة : « الحلم تحقيق (مقنع) لرغبة (مكبوتة أو مضغوطة)

« The Dream is a (disguised) fulfilment of a (suppressed or repressed) wish. » (٢)

وقد أثارت هذه الصيغة اعتراضات كثيرة ، مردها إلى سوء فهم أصحابها ، لما يقصده « فرويد » بدلالتها ، فلنقف عند هذا التجني قليلا :

تجني المؤلفين على فرويد :

اتهم جمهرة المؤلفين وعامة الناس « فرويد » بأنه يقول مع مدرسته إن الاحلام جميعها ، متى أحسن تأويلها، تكشفت عن طبيعة رمزية ، لأن الحلم في جميع حالاته عرض مجازي لاستيفاء رغبة جنسية مكبوتة . . . ! (٣) لأن هذه الرغبات لا تساير العرف ولا تتمشى مع التقاليد ، فتغوص - من غير وعي - إلى مجال اللاشعور وتعيش في ظلامه ، فإذا سنحت الفرصة لظهورها في مجال الذات المدركة الواعية ، وهمت بالفرار من سجنها ، وجدت الرقيب Censor الذي يتولى حراستها ، فتلبث في مقرها حتى إذا غفلت عنها عينه - أثناء النوم - ولت الأدبار ، بعد أن تأخذ حذرها من الرقيب ، بالتنكر في رموز تخفي معالمها عن حارسها ، ومن أمثلة هذا ما نراه في اليقظة من وجود حالات القلق الشاذ والأفكار الغريبة

1) Freud, I. L. p. 107

2) Dalbiez I. p. 55 ; Freud, I. D. p. 164 ; On Dreams p, 85 ; The Origin and Development of Psycho-Analysis p. 202.

وسنفرق بين الكبت والضغط في هامش ٢ في الصفحة التالية

3) M. Forster, Studies in Dreams p. 112

والعمى الهستيرى والفالج الهستيرى ونحوه (١) وبهذا أضحت الأحلام فى كل صورها منفذا للرغبات الجنسية المكبوتة، التى تبدو مقنعة محجبة فى رموز، وقد تكون هذه الرغبات قديمة العهد، فتتمثل غيرة الابن من أبيه على أمه، فى صورة موت للأب .. ! وقد تكون الرغبات حديثة عهد، فتتجلى الرغبة فى زوجة الجار، فى صورة اشتهاء لسيارته فى منام - كما يقول « ودويرث »، (٢) وبهذا زعم الكثيرون أن فرويد يرى أن الأحلام تبدو على الدوام فى صورة رموز تخفى معانيها، والرموز تكون تعبيرا عن رغبات جنسية مكبوتة محرفة من أجل تنافيها مع المألوف، وعدم مسايرتها للعرف والتقاليد، وهذا هو غرض التجسيم الرمزى فى الأحلام، واستنادا إلى هذا يقولون إن « فرويد » ومدرسته يتعسفون فى ربط الرمز بأعضاء التناسل ونشاطها، وما يتصل بها من عمليات بيولوجية، كالولادة والموت ونحوها، إذ يرون أن عيش الغراب والمظلات والخناجر والقوارير وصنابير المياه ونحوها من الرموز، إنما تشير إلى أعضاء التناسل، كما يشير الذهب إلى البراز و . . . إلى آخر ما يزعمون (٣) .

---

(١) العمى الهستيرى هو تعطل العين عن أداء وظيفتها لأسباب سيكولوجية وليست فسيولوجية، ومثال هذا فتاة تخطب لرجل بغيض لا تطيقه، ولكنها - انسياقا مع تقاليدها - لا تملك التصريح ببغضه، أو التمرد على خطوبته، فتخفى ضيقها وتحبسه فى نفسها مكرهة . . . وتصبح ذات يوم فإذا هى عمياء لا ترى، أن عينيها سليمتان من الناحية الفسيولوجية، لم يصبهما خلل يمنعهما عن أداء وظيفة الابصار . . ! فكأن عماها تعبير عن رغبتها فى الحرص على عدم رؤية خطيبها البغيض الى نفسها، أنها تريح من وراء مرضها، الرضا بعدم رؤيته، والأمل فى أن يعدل عن التزوج بها . ولعل هذا يساعد على بيان المراد بالشلل الهستيرى أو نحوه .

(٢) الواقع أن الميل الجلسى الى زوجة الجار، يخفيه صاحبه بارادته شاعرا واعيا، ولهذا لا يعتبر مثل هذا الميل كبتا (repression. fr, refoulement) لأن الكبت لاشعورى ولكنه ضغط أو قمع (fr. repression) suppression. لان القمع شعورى دواما، والمعروف أن « ودويرث » لا يعتبر ثقة فى فهم التحليل النفسى وعملياته ومناهجه .

3) P. Stewart, Diagnosis of Nervous Diseases p. 599.

وقد أشرنا منذ حين إلى بعض ما ينقض هذه الاتهامات، فالحلم عند «فرويد» لا يبدو على الدوام مقنعا فى رموز، وقد أكثر من الحديث عن أحلام الأطفال، وهى لا تتطلب تحليلا أو تأويلا لمعرفة مضمونها، لأنها بسيطة سافرة غير مقنعة، وحسب المحلل أن يستفسر من الطفل أو من يعولونه عن تجاربه فى يومه السابق، فأن الحلم لا يخلو منها أبدا، لأنه رجع العقل أثناء النوم لتجربة من تجارب اليوم السابق، ومن الأمثلة التى يرويها «فرويد» إيضاحا لرأيه، أن طفلة فى مطلع العام الرابع من حياتها، صحبت إخوتها فى نزهة بحرية، لأول مرة فى حياتها، وراقتها هذه النزهة، فلما هموا بالعودة إلى الشاطىء، توسلت إليهم باكية، أن يطيلوا بقاءهم على أديم الماء، ورفضت عند الوصول إلى البر أن تغادر زورقها راضية، وفى صباح اليوم التالى قصت عليهم حلما، خلاصته أنها استمتعت - أثناء النوم - بنزهة بحرية طويلة الأمد..! ومثل هذا يقال فى الطفل الذى تحرمه نهارا من أخذ قطعة من السكر، فيأخذ فى منامه ثلاث قطع أو يزيد..! هذه تحقيق رغبات بسيطة لم تشبع فى اليقظة، فتحققت فى المنام، فى صورة سافرة غير مقنعة فى رموز يعوزها التأويل.

ويعقب «فرويد» على مثل هذه الأحلام بقوله، إنها لا تتضمن انحرافا يقتضى تحليلها لمعرفة معانيها الخفية، فضمونها الكامن هو مضمونها الصريح من غير خلاف. وليس حلم الطفل إلا رجعا لتجربة مرت به فى يومه السالف، وانتهت بشعور بالأسف على قيام رغبة فى نفسه لم تشبع فى يقظته، وليس حلمه إلا تحقيقا مباشرا غير مقنع لرغباته (١) ولهذا يدهش فرويد من تأخر فهم الناس للغة الأحلام طوال العصور الماضية (٢)

---

(١) انظر المحاضرة الثامنة عن احلام الاطفال فى كتاب فرويد: محاضرات تمهيدية I. L. وخصوصا ص ١٠٥ - ١٠٧ او ص ٥٠ ج ١ من كتاب Dalbiez وفيه أيضا أمثلة لهذا النوع من الاحلام البسيطة التى لا تحتاج إلى تحليل أو تأويل

2) Freud, I. D. p. 104.

على أن فى اتهام فرويد ومدرسته بأن الحلم عندهم، تحقيق رغبة جنسية مكبوتة، تجنيا ينطوى على تعسف ظالم، ومردّ الظلم إلى شيوع هذا الاتهام عند جمهرة المؤلفين والمتعلمين إجمالا

والواقع أن فرويد يرى أن بعض الأحلام تثيرها حاجات لا تنطوى على عنصر جنسى إطلاقا، كالجوع والظمأ ونحوه، وكم من مرة احتج فرويد على الذين أساءوا فهم مذهبه، واتهموه بهذا الاتهام الخطير، وهو يقول فى صراحة لا تدع للشك مجالا: إن تأكيد القول بأن جميع الأحلام تتطلب تأويلا جنسيا ـ وهى الفكرة التى أثارت نزاعا متصلا فى المؤلفات التى تناولت هذا الموضوع ـ دخيلة على كتابى «تأويل الأحلام» وغريبة عنه كل الغرابة، وقد خلت من هذه الفكرة، الثمانى طبعات التى ظهرت من هذا الكتاب، بل إن هذه الفكرة التى يتهموننى بها، تناقض محتويات هذا الكتاب تناقضاً صريحاً سافراً (١)

ويؤكد هذا الرأى فيقول مرة أخرى: «لم أقل قط إن كل حلم يعبر عن تحقيق رغبة «جنسية»، بل كثيرا ما قررت عكس هذا الرأى، ولكن إنكارى ـ لهذا الاتهام ـ لا يجدى نفعاً أمام إصرار خصومى»

ولكن «داليه» Dalbiez يعلق على هذا فيقول إننا نلاحظ بأن فرويد وإن لم يصرح بأن جميع الأحلام يتحتم تفسيرها تفسيرا جنسياً، إلا أن الصيغة التى صب فيها مذهبه، تجعل البواعث الجنسية للاحلام ذات طابع غلاب، فمن ذلك قوله «كلما تعمق الأنسان فى تفسير الأحــلام، يجد نفسه مستعدا للاعتراف بأن أغلب أحلام الراشدين، تحتوى على مادة جنسية، وتعبر عن

---

(١) المصدر السالف ص ٣٧٣ ومحاضرات تمهيدية I. L. ص ١٦٢ وكتاب «داليه» ص ٥٧

رغبات عاطفية ».(١)

ولكننا نلاحظ على نص « داليبه » أنه لاينفى مايقوله « فرويد » من أنه لم يرجع جميع الأحلام إلى نزعات جنسية . والواقع أن « فرويد » قد ألحّ فى توكيد هذه الغريزة ، ولاسيما فى بدء حياته العلمية ، لجنى عليه هذا كثيراً ، وأساء إلى مذهبه شر إساءة ، ولم ينفعه حديثه أواخر حياته عن غريزة الموت التى فسر بها ميل الناس إلى الهلاك أحيانا .

على أن نظرية « فرويد » فى تحقيق الرغبات ، قد أثارت الكثير من الاعتراضات ، لأن الكثير من الأحلام يتعارض ظاهريا مع هذه الفكرة ، ومن أجل هذا اهتم « فرويد » ببيان ذلك ، فقال إن تحقيق الرغبات يقتضى أن يكون الحلم على الدوام مبعث سرور ولذة ، ولكن بشرط أن تكون الرغبة التى تشبع فى الحلم غير متعارضة مع رغبة أخرى حبيبة إلى النفس أثناء اليقظة ، وفهم فكرة « الرقيب » فهما دقيقاً ، ييسر إدراك هذه الحقيقة ، لأن الرغبات التى تمهد لنشأة الأحلام ، ليست فى العادة موضع تسليم عند الإنسان فى حال وعيه ، ومن ثم فإنها تكون مبعث سرور للجانب الدنىء الحيوانى فى الإنسان ، ومصدر ضيق للجانب السامى عنده ، فلا ينبغى أن ننسى أن الإنسان كائن مزدوج ، تصطرع فيه رغبات وأهواء متضاربة ، ومن هنا أمكن تأويل الكابوس ونحوه من الأحلام التى تثير الضيق ، واعتبارها من ناحية أخرى « تحقيق رغبات »...!

وعلى هذا فإن « فرويد » عندما يعتبر الحلم تحقيقاً مقنعا لرغبة مكبوتة ، لا يقصد بالرغبة المضمون الصريح للحلم ، ولكنه يعنى بذلك المضمون الكامن ، وإغفال

---

1) Freud, I. D. p. 372,

هذه الفكرة، وعدم النظر إلى الرموز باعتبارها معلولا لدلالاتها، قد أدى ببعض العلماء إلى نقد فرويد فى مذهبه، فلنعرض مثالين لتوضيح رأيه :

تفسير حلمين :

رأت سيدة فى منامها أنها تريد أن تنظم حفلة عشاء، ولكنها لاحظت أنها لا تجد لديها سوى نوع من السمك، وظنت أن فى استطاعتها أن تبتاع من السوق ماتشاء، ولكنها تذكرت أنها فى مساء يوم الأحد، فالمحال كلها مغلقة، فحاولت أن تتصل تليفونيا بمحال بيع الأطعمة المطبوخة، ولكن التليفون كان معطلا، ومن ثم وجدت نفسها مضطرة إلى التخلى عن رغبتها فى تنظيم هذا العشاء (١)

نلاحظ فى هذا الحلم، أن مضمونه الصريح يناقض تحقيق الرغبة، ولكن التحليل قد تكشف عن غير ذلك، إذ أبانت المريضة فى أثنائه أنها كانت فى اليوم السابق للحلم، فى زيارة صديقة لها تغار منها كثيراً، لأن زوجها كان يثنى على هذه الصديقة ثناء مريبا، وقد كانت هذه الصديقة نحيفة، وزوج المريضة - لحسن الحظ - يميل إلى البدينات، وقد صرحت الصديقة بأنها تريد أن تسمن، وقالت لصاحبة الحلم أثناء الزيارة، متى تنوين دعوتنا مرة أخرى..؟ إن طعامك دسم دواما - وهذا يوضح لنا معنى الحلم، كأنما أجابت به صاحبته على سؤال صديقتها بأن قالت لها : أأدعوك وأقدم لك الطعام الدسم حتى أمكنك من أن تكونى بدينة، فيزداد إعجاب زوجى بك بعد أن تصيبى هذه السمنة..؟ كلا، لن أعيد دعوتك إلى طعامى الدسم..!، فالحلم بهذا ليس إلا تحقيقا مقنعاً لرغبة تنطوى عليها سيدة غيور، تريد أن تتخلص من أخرى تنافسها فى حب زوجها - وقد تأكد تفسير « فرويد » حين عرف أن السمك الذى كان عندها هو أحب الطعام إلى هذه الصديقة..! (٢)

---

1) ibid, p. 135 2) ibid, p. 153.

ومن الأحلام التى يرويها « فرويد » فى هذا الصدد ، أن إحدى مريضاته رأت فى منامها أن ابنتها الوحيدة التى تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، فاقدة الحياة مسجاة فى صندوق ، ومن الواضح أن صاحبة الحلم ، لم تكن مستعدة للتسليم بأن حلمها يعبر عن رغبة دفينة عندها . ولكن التحليل قد أبان عن ذلك ، إذ صرحت بأنها فى يومها السابق تحدثت عن كلمة « صندوق » بالانجليزية «box» والألمانية Büchse ، بل ذكرت أن اللفظ الأخير تعبير مبتذل عن أعضاء المرأة التناسلية ، فرأى أن الطفلة المسجاة فى الصندوق ، تمثل الرحم فى جسم أمها .

عندئذ وضح الحلم فى نظر صاحبته ، فقد ضاقت ـ كما كثر السيدات الصغيرات ـ بحملها ، وتمنت لو أن طفلها مات جنينا ، بل لقد أقدمت ـ فى فترة من فترات سوء التفاهم مع زوجها ـ على ضرب بطنها بقبضة يدها ، أملا فى إيذاء الجنين فى بطنها . . ! وإذن فموت ابنتها لم يكن إلا تحقيقاً لرغبة تخفت خمسة عشر عاما . . ! وتحقق الرغبات بعد هذه المدة الطويلة لا يثير أى دهشة (١)

حسبنا هذا عن ديناميكية الحلم عند فرويد ، فقد عرضنا رأيه فى أحلام الأطفال البسيطة ، وأشرنا إلى الأحلام الأكثر تعقيدا ـ عند المراهقين ـ وهى التى حملت فرويد على إدخال افتراضه فى فكرة الرقيب ، ورأينا كيف استطاع فرويد فى ضوء هذه الفكرة ، أن يفسر الأحلام ـ حتى ما كان منها مثارا للضيق ـ باعتبارها تحقيق رغبات .

ميكانيكية الحلم :

يراد بها العمليات التى ينتقل بها المضمون الكامن للحلم إلى مضمونه الصريح ، وقد أحسن « فرويد » تلخيصها فى :

1) ibid, p. 159.

١ — التركيز — أو التكثيف Condensation :

يؤدى تحليل الأحلام ـ على الدوام ـ إلى حقيقة ترتفع عن كل شك ، هى أن المضمون الصريح للحلم ، اختزال لمضمونه الكامن ، فالرموز تبدو على قلة وتناقض ، ولكنها بالتحليل تنكشف عن وفرة من الأفكار يسودها اتساق منطق ، وهذا هو المراد بالتركيز

وكثيراً ما يصرح « فرويد » بأن صور المضمون الصريح ، أكثر من أن تحد (١) بمعنى أن كل رمز فى هذا المضمون ، يرتد إلى عدة أسباب كامنة ، ومن ثم فهو يعبر عن كثير من الأفكار الخفية المستترة ، فلنوضح هذا بمثال نستقيه عن « فرنك » Frink (٢)

تفسير حلم يوضح عملية التركيز :

رأت سيدة شابة ، أنها كانت تسير مع صديقة لها ، حتى إذا بلغت محلا يقوم بحياكة الملابس الخاصة بالسيدات ، وقفت تتطلع إلى القبعات المعروضة فى واجهته ، ثم خيل إليها أنها ابتاعت واحدة منها .

ظاهر الحلم يوحى بأنه مألوف ، ولكن تحليله قد كشف عما يلى :

ذكرت صاحبة الحلم ، بأن صديقتها التى صحبتها فى حلمها ، كانت فى اليوم السابق تسير لوقوعه بالفعل معها فى هذا الشارع نفسه ، ولكنها لم تقدم على ابتياع قبعه ما ، وقد صرحت بأن زوجها كان فى هذه الآونة مريضا يلازم سريره ، ورغم أنها كانت لا ترى فى حالته ما يثير القلق عليه ، فإنها كانت تشعر بضيق شديد ، مرده إلى فكرة خبيثة ساورتها بصدد احتمال موته ...! قد طلبت إليها صديقتها أن تصحبها خارج البيت ، ورحب زوجها بذلك ، أملا فى أن يبدد

---

1) Freud I. D. p. 274

2) Frink, Morbid fears and compulsions p. 67-69

هذا من مخاوفها السوداء . وقد عرضت فى حديثها مع صديقتها إلى رجل كانت على اتصال به قبل زواجها ، فلما طلب إليها محلل حلمها « فرنك » Frink أن تواصل حديثها عن هذا الرجل ، ترددت وتوقفت ثم قالت آخر الأمر إنها — فيما تظن — كانت تضمر له حبا .

فسألها محلل حلمها : إذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم تقترنى به ؟ فضحكت لسؤاله ، ثم عقبت قائلة إن فكرة الزواج لم تأخذ فى ذهنها صورة جدية إطلاقا ، ثم إن مكانته الاجتماعية ومركزه المالى ، يعلو مستواها علوا يجعل التفكير فى الزواج وهما سيبانيا ، ولم يتمكن المحلل من أن يعرف عن قصة هذا الحب أكثر من ذلك ، فقد أضافت إلى هذا قولها إنها كانت فتاة غرة صغيرة ، وأن هذه العلاقة كانت حماقة تليق بمثل سنها . . !

فطلب إليها أن تسترسل فى تداعى خواطرها بصدد القبعة التى ابتاعتها ، فقالت إن القبعات التى رأتها ، أثارت إعجابها ، وحركت رغبتها إلى اقتناء واحدة منها ، ولكن هذا كان مستحيلا ، لأن زوجها فقير لا يملك ثمنها ، ومعنى هذا أن الحلم كان تحقيقا لرغبة لم تشبع فى يقظتها .

ولكن الحلم يتضمن دلالات وأسرارا أخرى غير هذه الرغبة ، لأن صاحبته ذكرت فجأة أن القبعة التى ابتاعتها كانت سوداء اللون — ترمز إلى الحزن . . ! وقد أفشى هذا اللون سرا غريبا تنطوى عليه هذه السيدة . . فإن « فرويد » يقول : كثيرا ما يحدث والمحلل ماض فى تأويل حلم ما ، أن تطفو فجأة إلى خاطر الحالم حادثة ، تكون على الدوام أهم أجزاء الحلم ، وأملأها بالدلالات ، إنها تقع فى أخصر طريق يؤدى إلى تأويل الحلم ، ومن أجل هذا كانت أكثر أجزاء الحلم تعرضا للنسيان ، رغبة من الحالم فى إخفاء معالمها (١)

---

1) Freud I. D. p. 278, 9

وعندئذ انتهى « فرنك » فى تحليله لهذا الحلم إلى مايلى :

كانت صاحبة الحلم فى اليوم السابق لوقوعه ، تخشى على زوجها أن يقضى نحبه ، فرأت فى منامها أنها تبتاع قبعة سوداء ، وبهذا تحققت رغبتها فى موته ..! لقد كانت فى حياتها اليقظة لا تقوى على اقتناء هذه القبعة ، لأن زوجها فقير معدم ، ولكنها استطاعت أن تحقق فى الحلم ماعجزت عنه إبان اليقظة ، وهذا معناه أن لها زوجا غنياً ، ولسنا فى حاجة إلى تفكير طويل يهدينا إلى هذا الزوج الثرى، لأنه هو الذى كشف عنه التداعى من قبل ، وهدانا إلى إنه الرجل الذى يعلوها فى مكانته المالية والاجتماعية ، والذى صرحت بأنها كانت تضمر له حبا ـ قبل زواجها الراهن ـ وإن أبت أن تضيف إلى هذا بيانات أخرى عنه .. ! لقد كان عريض الثراء، ولو قدر لها أن تبنى به ، لتيسر شراء كل ما يروقها من قبعات. ! ومن هنا كان تفسير الحلم . أن هذه السيدة تضيق بزوجها الحالى ، وليس خوفها فى حال يقظتها من أن يدهمه الموت، إلا عملية تعويض ، أو زجع دفاع تعارض به رغبتها الحقيقية فى أن يموت .. ! إنها شوقة إلى التزوج بمن كانت تنطوى على حبه قبل هذا الزواج ، وهذا هو الذى يمكنها من اقتناء ما تشاء من قبعات ، وإشباع سائر رغباتها بما تهيأ له من ثراء

وعند ما كاشف المحلل صاحبة الحلم بذلك أذعنت لتأويله ، وأضافت بيانات تؤكد صحته ، وكان أكبرها خطراً أنها عرفت بعد زواجها ، أن هذا الرجل الغنى الذى كانت تضمر له الحب ، كان بدوره ينطوى على حبها ، وقد تكفل هذا بتكدير صفوها ، وإثارة أسفها لتسرعها فى الزواج ، إذ اعتقدت أنها لو تباطأت قليلا ، لكان من المحتمل أن تظفر بهذا الحبيب الغنى زوجا ..

هذا نموذج لعملية التركيز ، لأن شراء القبعة السوداء فى الحلم ، يعبر عن ثلاث رغبات لم تشبع فى اليقظة ، فتحققت فى المنام ، هى : موت زوجها ، واقترانها بصديقها الذى كانت تحبه ، وامتلاك المال الذى يمكنها من اقتناء

ما تريد (١)

ومن هذا نلاحظ أن الصورة فى الحلم ، قد تعبر عن عدة رغبات لا يتحتم أن تبدو أثناء اليقظة فى وقت واحد ، وهذا هو رأى فرويد (٢) ، ولو أن الزوج ـ فى الحلم السالف ـ قد قضى نحبه ، أو لو أن صاحبة الحلم اقترنت بصديقها الذى كانت تحبه ، لما ابتاعت بعد زواجها الحقيقى قبعة سوداء اللون .

ونلاحظ من هذا الحلم ، أن أول مرحلة فى وصفه ، بدت ، فى المشى ، وهو عديم المعنى فى ذاته ، وأن اقتناء القبعة بدا شيئاً محتملا على وجه التقريب ، وأن تذكر لونها الأسود ـ وهو النقطة الرئيسية فى الحلم ـ جاء فجأة فى أثناء التحليل حسبنا هذا عن التركيز (٣) . ولنعرض لثانى العمليات الرئيسية فى الحلم :

٢ ـ الأبدال ـ أو الأزاحة والنقل Displacement :

ننقل توضيحا لهذه العملية ، حلما قام بتحليله الأستاذ ، فرنك ، Frink وهو يسلمنا إلى تعريف ، الإبدال ،

تفسير حلم يوضح عملية الأبدال

كانت إحدى الفتيات تعانى من عصاب تسلطى Obsessional neurosis فرأت فى منامها أنها فى حضرة رجل بدت شخصيته مجهولة لها ، ومع هذا كانت تشعر بأنها مدينة له بجميل ، فقدمت ـ اعترافا بجميله ـ مشطها هدية له والمضمون الصريح فى هذا الحلم مألوف جداً ، ولكن تحليله لمعرفة الأفكار الكامنة التى نشأ عنها ، يقتضى معرفة تاريخ صاحبته ، وهى فتاة إسرائيلية ، تقدم للزواج بها قبل وقوع الحلم بعام رجل بروتستانتى ، فبادلته شعورا بشعور ، ولكن اختلاف الدين عندهما حال دون الزواج ، إذ اعتقدت الفتاة بأن مثل هذا الزواج يمكن أن يكون سعيداعند خلوه من الأطفال ، فأن

---

1) Frink, ibid p. 69 2) I, D. p. 123.

(٣) اقرأ الفصل الذى كتبه فرويد عن عملية التركيز فى I. D. ص ٢٦١ وما بعدها

انتهى بوجودهم ، طفرت مشكلة الدين، ونشأ الشقاق واستيقظ الشقاء، ومن أجل هذا رفضت خطوبته .

وفى اليوم السابق على وقوع الحلم ، اشتجرت مع أمها واستطال النزاع بينهما ، حتى إذا مضت إلى سريرها ، خطر لها أن تهجر البيت تلافيا لمثل هذا الشقاق البغيض ، واستسلمت للنوم وهى تفكر فى الوسائل التى تمكنها من أن تشتغل ولا تعوّل فى حياتها على أهلها .

عندئذ أراد المحلل أن يعرف الخواطر التى تطوف ببالها متصلة بالمشط ، الذى قدمته هدية فى حلمها ، فطلب إليها أن تدع خواطرها بصـــدده تنساب وتتداعى حرة طلقة ، فقالت إن شخصا قد همّ باستعمال فرشاة أومشط لغيره ، فسمعت البعض يحذره مغبة ذلك ، ويقول له : إنك بهذا تخلط النسل ...!

وهـذا المعنى الذى تداعى مع المشط ، مفتاح التأويل ، لأنه يكشف عن صاحب الشخصية المجهولة ، إنه خطيبها البروتستانتى من غير شك ، وقد وشى برغبتها فى أن تخلط نسلها الأسرائيلى بنسله البروتستانتى ، تقديم مشطها هدية له ، لأن هذا معناه أنها تتوق للاقتران به . والملحوظ أن المضمون الصريح إذا أخذ على ظاهره ، بدا عديم المعنى أو تافه الدلالة ، ولـكن مراعاة ميكانيكية الأبدال ، تجعل المغزى معقولا ، لأنها تـكشف عن فكرة التزوج بالشاب البروتستانتى التى ، أبدلت ، فى الحـلم بالمشط المهدى إلى صاحب الشخصية المجهولة (١) اختفت من المضمون الصريح الفـكرة الأصلية ، وأخذ مكانها رمز يحمل الدلالة على وجودها .

وتحليل هذا النوع من الأحلام ، يبين عن رأى فرويد فى عملية الأزاحة أو الأبدال ، فهدية المشط ـ فى رأيه ـ لاتقبل التأويل الذى يكشف عن دلالتها

---

1) Frink, op. cit, P 70 - 2

الصحيحة ، إلا إذا خضعت لمنهج التداعى ، فبهذا المنهج تتكشف علاقة إبدال المضمون الكامن بالمضمون الصريح ، ويرى التحليل النفسى فى هذه الظاهرة علية صادقة لاشك فيها ، هى أن المضمون الصريح رمز نشأ معلولا للأفكار الكامنة ، ففكرة المشط مردها إلى فكرة الاقتران ، أما عامل الأبدال ، فليس إلا أداة خداع لأخفاء فكرة مكبوتة ، لأن الأبدال - فى رأى فرويد - نتيجة للكبت الذى هاجه الرقيب ، فالفتاة لم تر فى حلمها صراحة أنها تبنى بخطيبها البروتستانتى ، لأنها هى التى رفضت بأرادتها المدركة خطوبته ، وتولت ضغط الفكرة فى نفسها ، فانفصل النشاط الوجدانى عن موضوعه الأصلى ، وانتقل إلى صورة أخرى بدت بديلا ، تربطه بالأصل علاقة تداع موجودة من قبل ، وهذه هى عملية الأبدال ، أو النقل والأزاحة (١)

ولعلنا لاحظنا أن الأبدال عند « فرويد » نتيجة الكبت ، وهو ينبه قراءه إلى أن « نظرية الكبت » هى حجر الأساس الذى يقوم عليه كل بنـــاء التحليل النفسى (٢)

حسبنا هذا عن عملية الأبدال(٣)، ولنعرض ثالث عمليات الحلم الرئيسية :

٣ - تجسيم المعانى Dramatization :

كثيرا ما يعبر الحلم عن الأفكار المجردة برموز محسوسة ، وقد لاحظ

---

(١) انظر فى « دالبية Dalbiez ج ١ ص ٨٣ وما بعدها مقارنة الابدال عنـد « فرويد » بالعمليات التى تشبهه من بعض الوجوه ، أو تماثله فى بعض الحالات تماما ، كالانعكاسات الشرطية عند « بافلوف » والانتقال transference عند« ريبو » Ribot والاشتقاق derivation عند (جانيه) Janet

2) History of the Psycho-Analytic Movement, P, 297

(٣) أقرأ الفصل الذى كتبه (فرويد) عن عملية الابدال فى I. D, ص ٢٨٣ وما بعدها

جمهرة علماء النفس الدور الكبير الذى تقوم به الصور البصرية فى هذا الصدد، فالأفكار الذهنية يبدو أنها تتحل فى الحلم إلى صور تقبل التشكل، وهذه هى العملية التى يسميها «فرويد» بتجسيم المعانى والحقائق والمعقولات. وقد كان «سلبرر» Silbrer — أحد أتباع فرويد الذين انسلخوا عنه — أول من اهتدى إلى دليل قوى يشهد بهذا التراجع الفكرى نحو الصور بوجه عام، إذ لاحظ أنه فى الحالات التى يستغرق إبانها فى عمل عقلى محض، على الرغم من شعوره القوى بالرغبة فى الاستسلام للنوم، كثيرا ما يتلاشى تفكيره المجرد، وتأخذ مكانه صور يبدو فيها البديل الذى استعيض به عن هذا التفكير المجرد (١).

وقبل «فرويد» بأمد مديد لاحظ الماركيز «هرفى دى سانت دنيس» وهو من ذكى المشتغلين بدراسة الأحلام، أن استخدام الحلم للصور اللفظية، يتخذ فى بعض الأحيان صورة التورية — فى البيان — وقد ساق هذا المثال للتدليل على صحة ما يقول:

أثارت كلمة Rosalie فى الحلم صورة سرير طرزته ورود انتثرت فوقه(٢) وربما بدا هذا التفسير غير مساغ، وقد يتهم صاحب الحلم بالحاجة إلى التبصر wit، وليس هذا مثارا للغرابة، فأن عدم فهمه لمعنى الكلمة الفرنجية السالفة، هو الذى حمله على ردها إلى: «rose à lit» أى ورد على سرير..! ومن ثم جر تداعيه صورا بصرية تعبر عن هذا المعنى.

ولكن تراجع الفكر نحو الصور البصرية، لا يتم فى كل الحالات، بطارق التداعى اللفظى، ومن أمثلة ذلك ما ترويه مسز Spielrein، من أن شابا كان

---

1) Freud, I. D. P. 328.

2) Hervey de Saint-Denis, Les réves et les moyens de les diriger p. 413.

يفكر فى إيثار حالة من حالتين ، الانغماس فى حب طلق لا تحده قيود ، أو الجرى على طريقة أبيه القسيس فى مسلكه الصارم فى حياته ، وبينما كان مستغرقا فى تأمله بصدد ذلك ، أدركته الحالة التى تسبق النوم ، وهى حال لا ينبغى الخلط بينها وبين الأحلام بمعناها الدقيق ، وعندئذ رأى نفسه عند مفترق طريقين ، ولما أصبح الصباح ، أنبأ مسز « سيلبراين » نبأ هذا الحلم ، فسألته عن المكان الذى رآه فى حلمه ، فصرح بأنه المكان الذى تحدث فيه مع الفتاة التى أوحت اليه بأمكان الحب الحر ، وأن أحد الطريقين اللذين يتفرعان منه ، يسلم إلى بيت أبيه ، والآخر يشبه طريقا يثير فى نفسه ذكريات حبه ، وتفسير هذا واضح ، وهو أن التأملات العقلية الكامنة فى هامش الوعى Subconscious قد بدت صورا حسية ، كان ينتظر أن يعبر عنها الوعى بألفاظ .

ومن أمثلة هذه الظاهرة كذلك ، أن سيدة كانت تفكر مرة فى هذه الحياة التى لا تستحق ما يستنفد فى سبيلها من جهود ، فأن الإنسان يصاعد راقيا حتى إذا بلغ القمة ، وقع ما يضطره إلى السقوط هابطا .. ! وعندئذ يكون عليه أن يشرع فى الترقى جاهدا من جديد ، واستسلمت السيدة للنوم وهى فى هذه الحالة الميئسة ، فرأت « خنفساء » تتسلق درابزونا ، فلما بلغت قمته ، مست رجلها طفلة ، فهوت هابطة لكى تعود إلى تسلقه من جديد . ! ولم تفطن صاحبة الحلم أول الأمر ، إلى أن هذه الرؤيا التى وقعت فى حال الأقبال على النوم ، hypnagogic vision ليست إلا تعبيرا بالصور الحسية عما جرى فى اليوم السابق لرؤياها ، من خواطر طافت بوعيها ، فلما سئلت عن أول خاطر طاف بذهنها ، عند التفكير فى هذه الصورة الحسية ، قالت لمحللة أحلامها . إن المرء إذا نزعت به الهمة إلى الترقى ، أغراه الشيطان بالعدول عن نزوعه (١) .

والمعروف فى مذهب « فرويد » أن العلاقات المنطقية لا تبدو فى الأحلام

---

1) Cf. Dalbiez 1, P. 93-4.

لأنها ليست فى متناول الحس، وإنما تدرك بالعقل وحده، فالحالم يرى الأشياء المتشابهة، ولكنه لا يرى التشابه نفسه، ومثل هذا يقال فى التضاد والتناقض ونحوه. ومن هنا رأى «فرويد» أن العلاقات المنطقية المحضة. لا تتجلى فى صور حسية، وما يظهر فى أحلامنا من عمليات عقلية، ينحل عند التحليل إلى مادة . . .

حسبنا هذا عن تجسيم المعانى ولنعرض لرابع العمليات فى عمل الحلم:

٤ – تحويل المحسوسات إلى رموز Symbolization :

يخلط كتاب الفرنجة من أمثال «فرنك»(١) بين Symbolizaiion Dramatization ولهذا توخينا فى ترجمتهما إلى العربية، أن تبين الترجمة عن أخص ما يميز بينهما، لأن الخلط بينهما يلاشى الفرق بين اتجاه المتعصبين من تلامذة «فرويد» وحوارييه، واتجاه أتباع «يونج» Jung و «سلبرر» Silbrer و «مايدر» Maeder و «نيكول» Nico!l ومن إليهم فى فهمهم لفكرة الرمز . وأكبر ما يميز بين اللفظين السالفين:

(١) أن Dramatization تشير إلى التعبير عن المجرد بالمحسوس، وعن المعقولات بالصور الحسية، أما Symbolization فأنها تشير إلى التعبير عن المحسوس بالمحسوس، وعن صور الأشياء بصور حسية مثلها

(٢) أن العلاقة بين الرمز والدلاله التى يعبر عنها فى حالة تجسيم المعانى، (Dram.) علاقة فردية، ولكنها فى حالة تحويل المحسوسات إلى رموز (Sym.) واحدة مشتركة بين الناس جميعا (٢)

---

1) Frink, p.p 72-5. 2) Freud, I. L. P. 126

ولعلنا لاحظنا أن مفكرى الاسلام، قد عرفوا دلالة هذين الاتجاهين وإن لم يميزوا بينهما على هذا النحو الواضح.

والمتفق بين جمهرة علماء النفس، أن من الأحلام ما يبدو تعبيرا صريحا سافرا لا يعوزه التأويل، ومنها ما يبدو مقنعا فى رموز تتطلب التحليل. كما ذهب مفكروا الاسلام فى هذا الصدد - ويراد بالرمز الثوب التنكرى الذى تختفى وراءه معانى الأحلام، وقد عرف هذا من قديم الزمان، ولكن أول من كشفه بحق هو «شيرنر» Scherner وقد لبث كتابه Das Leben Des Traümes, Berlin 1861 مطموسا مجهولا من القراء نحو خمسين عاما، ثم كشف بعد هذا عن قيمة التحليل النفسى الذى شاع فى أوروبا حينذاك (١).

أما عن ميكانيكية تكوين الرموز، فأنها أشبه بعملية الإبدال، منها بتجسيم المعانى، وفكرة الرمز تقوم - فيما أشرنا من قبل - على أساس من فكرة العلية، وتفسير هذه المشكلة يحتمل أحد أمرين: (١) التركيب، بالبدء بالعلة والانتهاء بالمعلول، أو التحليل، بالبدء بالمعلول والانتهاء بمعرفة علته، أى أن اكتشاف مضمون الأحلام، يمكن أن يتبع منهج التركيب، كأن يقال إن سواد السحب علامة على المطر، (٢) أو منهج التحليل، كأن يقال إن آثار أقدام الحيوان، آية تشهد بمروره من هذا المكان، ولكن التحليل النفسى عند «فرويد» يؤثر منهج التحليل، فيبدأ بالمعلول - وهو الرمز - ويتجه إلى اكتشاف علته - وهى الدلالة التى يحملها، والتى كانت سبب وجوده - ويجد «فرويد» فى هذا المنهج، ما يبرر اسم «التحليل» النفسى.

وقد كانت الرموز فى الأحلام مثار التفكير من قديم الزمان، ولكن «فرويد» قد ساهم فى موضوع بحثها بأضافات ثلاث: أولها حديثه عن أسباب

---

(١) قارن هامش ص ٢٤٩ فى كتاب فرويد .I. D

الحلم، وثانيها : الجانب الجنسى فى تحويل المحسوسات إلى رموز، وثالثها : منهجه فى تحديد المعنى الذى يختفى وراء الرموز، والأخير أعظمها أهمية ـ وحسبنا أن نشير الآن إلى أنه يرى أن تداعى الخواطر، بالغا مابلغت وجوه الاختلاف فيه باختلاف أصحابه، فأن هناك وجوها من هذا التداعى يشترك فيها الناس جميعا، ومن هنا وجدت رموز واحدة تعبر عند جميع الشعوب عن أشياء بعينها فالرجال يرمز إليهم فى العادة بالأشياء الطويلة أو الحادة من عصى ومظلات، وسكاكين وأقلام ونحوها، بينما ترمز للجنس اللطيف، الأشياء المجوفة من كهوف وصناديق وسفن وجيوب (١)، وقبعات وأحذية ونحوها (٢) والسقوط فى الحلم قد يعبر عن ذكرى السقوط فى عهد الطفولة، وقد يرمز عند النساء للتسليم الجنسى، وقد يعقبه تحليق فى الجو، يمثل الرغبة فى الهرب من مواجهة هذه الحقيقة المؤلمة، أو يمثل الشعور بالحرية والتعالى على البيئة وتقاليدها (٣). وقضيب الرجل فى رأى « فرويد » يرمز إليه بالعصى والمآذن. والمداخن، وقدرته على القذف، يعبر عنها بطلق البنادق والمسدسات ونحوها، وعضو التناسل عند النساء يستدعى بالتداعى ـ لأنه مجوف ومستقبل ـ صور الصناديق والأوانى ونحوها (٤)

ولكى نوضح رأى فرويد، نعرض للحديث عن مثل من أمثلة الرموز الجنسية التى أصابت أوفر حظ من اهتمامه، وهى ظهور قضيب الرجل فى الحلم، ممثلا فى عصا أو أى شىء اسطوانى. إن فرويد لم يقصد إلى القول بأن كل عصا تظهر فى الحلم تعبر عن قضيب، ولكنه يرى أن بين القضيب والعصا علاقة تشابه « موضوعى » فى الشكل، ويتكفل هذا التشابه ـ بربط المتشابهين حتى عند الذين لم يخطر لهم إبان اليقظة أن يربطوا بينهما فى وضوح وصراحة، والتداعى بالتشابه ليس إلا تمهيدا تجريبيا للتصنيف العقلى، فأن القضيب والعصا يدخلان ـ من غير شك ـ فى المقولة المنطقية للأشياء الأسطوانية

---

1) Tridon, p. 54 2) Brown, W., p. 41
3) ibid p, 75
4) Freud, I. L. p. 131. & I. D. p. 336, & Dalbiez p. 114-5

تفسير حلم:

رأت فتاة فى منامها، أن رجلا يحاول أن يعتلى صهوة جواد صغير أسمر يستخفه المرح . فأخفقت محاولته ثلاث مرات ، وفى الرابعة تمكن من أن يستقر على سرجه . ومضى به بعيدا (١) ، وركوب الحصان فى مذهب «فرويد» يعبر فى أكثر الحالات عن «الجماع» Coitus (٢) ، وقد أخذ «فرنك» فى تأويل الحلم ، فى ضوء تداعى المعانى عند صاحبته ، فأثار الفرس فى خاطرها - وقد كانت لغة أمها الانجليزية - ذكرى طفولتها ، حين أطلقوا اللفظ الفرنسى Cheval علما عليها ، ودلها أبوها على معنى اللفظ - ولاحظ المحلل من ناحيته ، أنها دقيقة الحجم سمراء خفيفة ، وهى نفس الصفات التى اتصف بها الفرس الذى ظهر فى حلمها . . ! والرجل الذى كان يحاول ركوب الفرس ، هو أحد أصدقائها الأعزاء ، وقد صرحت بأنه فى أثناء مزاحها معه ، كان يحاول العبث بها ، حتى لقد أراد ثلاث مرات أن ينال من عرضها . . ! ولكنها كانت تتمكن فى كل مرة من ضبط نفسها وكبح نزواتها ، والاعتصام بالخلق الرصين وردّ هذا الصديق عن غيه ، وبهذا أفلتت من شره ، واتقت شر الاستجابة لشهواتها . . . ولكن هذا النوع من الكبح لا يقع فى الأحلام ، إلا حين يكون تحقيقاً لرغبة لم يتيسر تحقيقها فى اليقظة ، ولهذا نال صاحبها منها فى حلمها فى رابع محاولة ، فكان هذا تحقيقا لرغبة دفينة عندها ، قاومتها فى اليقظة استجابة لبواعث خلقية ، فتحققت فى المنام على هذا الوجه . . ! وهذا التأويل يرينا أن التحليل النفسى يجد «علاقة علية» بين المضمون الصريح للحلم ، والحالات النفسية السابقة التى يكشف عنها تداعى الخواطر

حسبنا هذا عن الرموز ، ما كان منها تجسيما لمعانى ومعقولات ، وما كان تعبيرا عن محسوسات ، ولنتحدث عن :

---

1) Prink, p. 73. 2) Fréud, I. L. p. 138.

طبيعة الرموز بين المحدثين من علماء النفس :

انتهت مدرسة التحليل النفسى ، إلى القول بأن مجموع الأفكار التى يحملها الحلم فى صورة رموز ، تحد أفكار الحياة الأصلية المكبوتة ، وهى التى تتصل بالنفس الحسية والعلاقة بالأسرة والمولد والحب والموت ، فهذه الأفكار الرئيسية تظل قوة محركة للحياة الأنسانية ، فى ثقافة اللاوعى عند الإنسان (١) وهذه النظرية التى تعزى إلى « فرويد » ، قد أحسن تبسيطها « إيرنست جونس » E. Jones ، وقد تضاءل إلى حد كبير عدد الأفكار الإصلية التى يمكن صبها فى رموز ، وإن كانت مدرسة « يونج Jung » تعالج الرموز بقطع النظر عما إذا كانت الأفكار أصلية أو ثانوية ـ كما سنرى بعد ـ وهكذا أصبحت الرموز عند جونس ، عملية عرض لأفكار أصلية مكبوتة قليلة العدد لا تتجاوزها أبدا ، وإن كان المسلم به أن الرموز التى تعبر عن هذه الأفكار القليلة ، قد تبلغ الآلاف عدا . . .

ويقول « جونس » فى بيان فكرته ، إن أفكار الحياة الأصلية ، هى وحدها التى يمكن أن تتمثل فى رموز ، والتحليل النفسى يؤكد لنا بأنها تحتفظ مابقيت فى اللاوعى ، بخطرها الذى كان لها من قبل ، ومنها — وليس إليها — ينبع النشاط ، وهى تؤلف أكبر جزء من أفكارنا المكبوتة ، وأما ما سواه فليس فى حاجة إلى قناع يخفيه ، وهذه النتيجة هى محك نظرية الرموز التحليلية (٢) هذه هى وجهة النظر التى أيدها أتباع « فرويد » التجريبيون

أما « يونج » فإنه يخلط بين الرموز والأفكار الأصلية ، أو يعتبرهما شيئا واحدا ، فيرى أن الكرة ترمز إلى الشمس ، وقتل الثور يعبر عن قتل المسن فينا ، ويتكلم عن الأم والأب باعتبارهما رمزين . . . فهو بهذا يضع الأفكار الثانوية ـ أو رموز الأفكار الأصلية ـ مع الأفكار الأصلية فى مستوى واحد ، وكل منها قد يكون رمزا للآخر ، والرسم التالى يوضح فكرته

1) Lincoln, Dream in the Premitive Culture p. 18
2) E. Jones, « The Theory of Symbolism», فى كتاب
Papers on Psychoanalysis. طبعة ثالثة ص ١٨٣ & Dalbiez, p. 109

عن الرموز - وإن كان من المتعذر أن ندعى بأننا أحسنا فهمها فيما يقول «لنكولن» - وبجانبها فكرة فرويد التى تمتاز بالدقة والوضوح :

يونج : شمس	كرة	أب	أسد	ملك
عريش	منارة كنيسة	قضيب رجل	سيف	ثعبان
كهف	أم	كنيسة	بحر	ملكة

هذه أسماء تحمل أفكاراً ، وكل فكرة يحملها اسم من هذه الأسماء فى سطر ما ، يمكن أن تكون رمزاً لغيرها من الأفكار . . هذا عند يونج ومدرسته.

أما فرويد فإنه يجعل :

الشمس والكرة والأسد والملك ، رموزا لفكرة أصلية هى فكرة «الأب»

والعريش ومنارة الكنيسة والسيف والثعبان ، رموزا لفكرة أصلية هى فكرة القضيب عند الرجل .

والكهف والكنيسة والبحر والملكة ، رموزا لفكرة أصلية هى فكرة «الأم»

ومن هنا نلاحظ أن النشاط فى نظرية فرويد ، يفيض من الأفكار الأصلية (المعانى) المكبوتة إلى الأفكار الثانوية (صورها ورموزها) وليس من الرمز إلى الفكرة الأصلية التى يعبر عنها ، والرموز التى تحمل فكرة أصلية واحدة ، قد تختلط بعضها بالبعض الآخر ، ولكنها جميعا ترمز إلى أفكارها الأصلية وحدها ، ولهذا فإن الأم والأب والقضيب لا يمكن أن تكون رموزاً عند فرويد وأتباعه - فيما يقول لنكولن - لأنها أفكار أصلية ، ومحاولة جعلها رموزا يؤدى إلى الخلط . . ! (١)

(٥) عرض الحلم Secondary Elaboration :

وهو خامس العمليات فى ميكانيكية الحلم ، وقد فطن إليها قبل «فرويد» بعض علماء النفس ، وبالغ البعض فى أمرها حتى عزا إليها الحلم كله . . ! وقد

---

1) J. S, Lincolu , ibid, p. 102-3

ولعل تعبيره عن فكرة فرويد أخف من حقيقتها

ذكر «فرويد» بهذا الصدد نظريات «جوبلو» Goblot و «فوكولت Foucauld» وإن لم يعرض لمناقشتها(١) ويراد بهذه العملية عند «فرويد» «النشاط الذي يقوم به عقل الحالم - عند الاقتراب من التفكير اليقظ - لإدخال نظام صنعي Artficial إلى مناظر الحلم» ولكي يوضح «فرويد» طبيعة هذه العملية، اقتبس عن «هافلوك إليس» Hevelock Ellis قوله: «قد نتصور الوعي النائم وكأنه يقول لنفسه ها قد أقبل أستاذنا - الوعي اليقظ» الذي يعزو إلى العقل والمنطق ونحوه بالغ الأهمية، أسرع..! اجمع مادتك، ضعها في نظام - في أي نظام كان، قبل أن يقبل هذا السيد ويهيمن على الموقف» (١)

ويحذر «فرويد» من الأحلام التي تبدو على اتساق وانسجام يهدف إلى غرض واضح، لأن مثل هذه الأحلام تكون في العادة أبعد عن معناها الحقيقي - معناها العلي - Causal meaning من الأحلام المضطربة المتناقضة..! لأن «فرويد» تمشيا مع مبدئه الأساسي في تأويل الأحلام، يبحث عن مغزاها بين أسبابها، والحلم المضطرب المتناقض، يغري المحلل بمحاولة تحليله لمعرفة مغزاه، أو يبعث عنده اليأس من تفسير رموزه، أما الحلم المتسق اتساقا كاملا فإنه يضلل المحلل ويخدعه، ويوهمه. بأن مغزاه واضح لا يحتاج إلى تأويل (٢)

ويقول «شترومبل» Strumpell إن الوعي يدخل عند تذكر الحلم، الكثير من العناصر عن غير قصد، فيتوهم الحالم صحة هذه الأضافات، وقد كان «جسن» Jessen على حق عندما قال إننا عند تذكر أحلامنا، نملأ ما فيها من فجوات، وتتم صورها عن غير قصد وبدون وعي، وقلما نذكر حلما متصل الحلقات، وربما لا نذكره على هذا النحو أبدا، ومن العسير حتى على أحب الناس للحقيقة، أن يقص حلما دون أن يبالغ في روايته أو يسرف في زخرفته وتنميقه - والعقل الأنساني تواق إلى إدراك كل شيء إدراكا عقليا

---

1) Frend. I. D.. p. 463-4.

2) Dalbiez, p. 121.

متصلا ، وهذا النزوع يبلغ من القوة حدا يجعله يسد عن غير عمد ، كل نقص في تسلسل العلاقات في الأحلام (١) ، ولهذا النسيان أسباب لا نطيل في شرحها ، وهي نفسها التي تؤدي إلى النسيان إبان اليقظة ، وأهمها مايتصل بعامل الاهتمام والدوافع الوجدانية ، والمدركات تنسى – في اليقظة والمنام – متى كانت ضعيفة أو تتصل اتصالا واهيا بالشعور الوجداني ، ولاتصال الأفكار والصور بعضها ببعض ، وسلب العزلة عنها ، أثره البين في تذكرها ، وضعف العلاقات وشيوع الاضطراب في صور الأحلام يساعد على نسيانها ، كما أن انصراف المرء عن أحلامه وعدم اهتمامه بها يعرقل من تذكرها . . . . (٢)

ومن أجل هذا أوجب العلماء المسارعة إلى تدوين الحلم إثر اليقظة صباحا أو ليلا (٣) ، ويقول « إجر » .Egger (٤) ، إن الطريقة الوحيدة التي تمكننا من اتقاء الخطأ في رواية الأحلام ، هي أن نسارع إلى تسجيل كل مانحسه وما نلاحظه في ورقة ، عقب اليقظة توا دون تأخير ، فإن أهملنا هذا امتد النسيان إلى الحلم أو إلى بعض مناظره ومدركاته ، والنسيان التام لاخطر من ورائه ، أما نسيان بعض أجزاء الحلم فإنه يفضي إلى فساد الحلم ، لأن صاحبه يتم ما نسيه بخياله ، ويتحول من مؤرخ يقص ما وقع ، إلى فنان يضيف إلى الواقع مايراه وإن كان هذا التحول يتم على غير علم منه (٥) ولا يخفى حقيقة الحلم – على ماعرفنا .

وقد أثبتت تجارب العلماء صدق ذلك ، وبرهنت على وجود فارق بين الحلم كما يسجله صاحبه وكما يرويه بعد ذلك (٦)

* * *

---

1) S. Freud, I. D. P. 38 2) ibid. p. 36 ff.

3) A. Tridon, Sleep & Dreams, p. 148 & M. Forster, Studies in Dreams, P. 97 4) Egger V. « La Durée apparente des Rèves. » Revue philosophique Juli, 1895.- كما أشار « فرويد »

5) Freud. op. cit., p. 38-39. 9) cf. Tridon. Sleep & Dreams, p. 148ff.

وبعد . . . فحسبنا هذا عن العمليات التى ينتقل بها المضمون الكامن للحلم إلى مضمونه الصريح ، ولعل الأبانة عنها ، قد هدتنا إلى موقف المحدثين من علماء النفس من تأويل الاحلام ، وكشفت لنا عن وجوه من التشابه والتخالف بين مذاهبهم وآراء مفكرى الأسلام ، ورجحت فى رأينا أن التشابه فى تيارات الفكر فى موضوع الأحلام ، إبان العصور القديمة والوسطى والحديثة ، مرده إلى وحدة العقل البشرى وتشابه استجاباته للمؤثرات المتشابهة - مع اختلاف زمانها ومكانها - وإن كان لعدوى الثقافات وتزاوج الحضارات ونقل اللاحق عن السابق ، أثره الذى لا ينكر فى الكثير من وجوه هذا البحث .

ومن الضرورى أن نلتزم الحيطة عند الكلام على موقف المحدثين من علماء النفس ، ومدى ما أفادوه من القدامى ، فإن الأصول التى نبتت عند اليونان والشرقيين قديما ، وعاشت عند المسلمين فى العصور الوسطى ، قد صادفت من اهتمام المحدثين ما مكن لدراستها دراسة علمية دقيقة مفصلة ، تساير منهج البحث الحديث ، وتتمشى مع تقدم الدراسات السيكولوجية والفسيولوجية والميتافيزيقة ، فى المرحلة الأخيرة من عصورنا الحديثة .



مصـــادر البحث (١)

أهم المصادر العربية (٢)

الإبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف - ح ٢ دار الطباعة السنية (ثالث طبعة)

ابن تيمية : الرسائل الكبرى - جزءان - الطبعة الأولى بالمطبعة العامرية الشرقية عام ١٣٢٣ هـ

ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل - الطبعة الأولى بمطبعة التمدن عام ١٣٢١

ابن خلدون : المقدمة - طبعة المطبعة البهية المصرية

ابن رشد : المقالة الثانية من الحاس والمحسوس (فى الجزء الثانى من مجموعة رسائل لبعض مترجمى العرب مصورة فوتوغرافيا رقم ٦٩ بمكتبة الدراسات الأسلامية بجامعة فؤاد الأول) وهى ملخص رسالة أرسطو فى النوم والرؤيا ، مع إضافات أيد بها الرؤيا الصادقة التى رفض أرسطو التسليم بها — وإن لم يشر ابن رشد إلى ما يميز آراءه من آراء أرسطو .

ابن سينا (الرئيس أبو على) : ١ - الأشارات - الطبعة الأولى (المطبعة الخيرية)

٢ - رسالة فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها نشر وتعليق زميلنا الدكتور محمد ثابت الفندى

٣ - رسالة فى إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم (ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات (طبعة هندية)

٤ - النجاة فى الحكمة المنطقية والطبيعية والألهية - طبعة ثانية

---

(١) اضطررنا إلى حذف «فصل المراجع» الذى كان يلى «مصادر البحث» لنفاد الورق المصرح به ، مع أننا أشرنا إليه فى بعض هوامش الكتاب .!

(٢) المخطوطات فى هذه المصادر قد رقمت أوراقها لا صفحاتها ، ولهذا رأينا أن نشير فى هوامشنا إلى ظهر الصفحة لرقة بعلامة + قبل رقم الورقة التى نرجع إليها - واتبعنا هذا فى كل هوامش الكتاب

٥ - القانون فى الطب - الجزء الثانى (دار الطباعة ١٢٩٤ هـ)

ابن الطفيل : رسالة حى بن يقظان - طبعة ليون جوتيه

ابن عربى : ١ - الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والملكية ج ٢ طبعة بولاق ١٢٩٣ هـ - (٢) فصوص الحكم (شرح الشيرازى)

ابن مسكويه : الفوز الأصغر - طبع المكتبة الأهلية بيروت ١٣١٩ هـ

أبو حيان التوحيدى : المقابسات - الطبعة الأولى بمصر ١٣٤٧ هـ

إخوان الصفا : الرسائل ج ٢ ، ٣ ، ٤ طبع المطبعة العربية بمصر ١٩٢٨ م

الأشعرى (أبو الحسن) : مقالات الإسلاميين ، الجزء الثانى طبع استانبول سنة ١٩٢٨ م

الإيجى : جواهر الكلام (نشر الدكتور أبى العلا عفيفى فى المجلد الثانى من مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد - عدد ديسمبر ١٩٣٤

التهانوى : كشاف اصطلاحات والفنون جزءان - طبعة الهند

حاجى خليفه : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (طبعة دار الطباعة فى جزءين) ١٢٧٤ هـ

الرازى (فخر الدين) : ١ - الفراسة (نشره زميلنا الدكتور يوسف مراد مع مقدمتين علميتين وترجمة فرنسية للنص العربى

٢ - مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) الطبعة الثانية

رشيد رضا (السيد محمد) : الوحى المحمدى - الطبعة الثانية ١٣٥٢ هـ

الزمخشرى : الكشاف (فى تفسير بعض الآيات المفصلة للرؤيا) الطبعة الأولى بالمطبعة البهية

السهروردى (المقتول) : هياكل النور . مطبعة السعادة ١٣٣٥ هـ

السهروردى (شهاب الدين أبو حفص) : عوارف المعارف - طبعة مصر عام ١٢٩٤ هـ

الشعرانى (عبد الوهاب) : ١ - الجواهر والدرر - على هامش كتاب

الأبريز - بالمطبعة الأزهرية المصرية عام ١٣١٧ هـ
٢ - اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر ، جزءان - المطبعة الميمنية عام ١٣١٧ هـ
٣ - لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية جزءان (على هامش لطائف المنن) بالمطبعة العثمانية ١٣١١ هـ
٤ - الميزان الشعرانية (الكبرى) جزءان - الطبعة الثانية بالمطبعة الأزهريه
٥ - لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق - جزءان - المطبعة العثمانية ١٣١١ هـ
طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، الطبعة الأولى بحيدر أباد بالهند
الغــزالى : ١ - مقاصد الفلاسفة - الطبعة الأولى عام ١٣٣١ هـ
٢ - إحياء علوم الدين ، الجزء الأول والثالث والرابع طبعة أولى بالمطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢ هـ
٣ - الرسالة اللدنية ، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٣ هـ
٤ - معراج السالكين ، الطبعة الأولى سنة ١٩٢٤ م
٥ - كيمياء السعادة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٤٣ هـ
٦ - المنقذ من الضلال ، الطبعة الثانية لمكتب النشر العربي بدمشق عام ١٩٣٤ م
الفارابى : ١ - آراء أهل المدينة الفاضلة .
٢ - مقالة في العقل عند القدماء (نشر الأب بويج)
القشيرى : الرسالة القشيرية - مطبعة التقدم العلمية ١٣٤٦ هـ
القنوجى : أبجد العلوم جزءان

الكندى : رسالة فى النوم والرؤيا (١)

الماوردى : أعلام النبوة ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ١٣٣٠ هـ

مدكور (دكتور ابراهيم) : بحث قيم نشره بالرسالة فى سلسلة أعداد عن نظرية النبوة عند الفارابى

المجوسى (على بن عباس) : كامل الصناعة الطبية ـ دار الطباعة ١٢٩٤

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ ـ طبعة دار الرجاء بالقاهرة

مصطفى عبد الرازق باشا : ١ ـ بحث فى الوحى ومذاهب المتكلمين والصوفية والفلاسفة فيه ـ لم يطبع بعد
٢ ـ فيلسوف العرب والمعلم الثانى ـ طبعة الجمعية الفلسفية عام ١٩٤٥ م
٣ ـ تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية ٩٤٤

محمد عبده : رسالة التوحيد ـ طبعة المنار السادسة ١٣٥١ هـ

هيكل (محمد حسين باشا) حياة محمد ـ الطبعة الثانية ١٣٥٤ هـ

للمشتغلين بالأحلام من رجال الشرع :

أبو سعيد بن أبى عثمان : البشارة والنذارة فى تعبير الرؤيا ـ مخطوط بدار الكتب

ابن سيرين (٢) : ١ ـ تعبير الرؤيا

---

(١) لخصها الكندى عن أرسطو وأضاف إليها تأييده للرؤيا الصادقة التى كان المعلم الاول يرفض التسليم بها ، توجد نسخة مخطوطة منها فى استانبول ، نشرها فى آخر القرن الماضى المستشرق الايطالى « ألبينو ناجى » مع بعض رسائل للكندى بالعربية ، وتسمى رسالة النوم والرؤيا : علة الرؤيا وما تأمر به النفس — فيما يقول القفطى - أو وما يرمز به النفس — فيما يقول ابن النديم — وقد نقلها إلى العربية الاستاذ محمد متولى بمعونة وإشراف الاستاذ يوسف كرم مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

(٢) تعزى إليه مصنفات كثيرة بعضها مترجم الى اللغات الأجنبية ، وفى مكتبة الدراسات الأسلامية بجامعة فؤاد ترجمة لتعبير الرؤيا لمؤلفها Achmetis Sereimü وهى ترجمة لاتينية عن نسخة يونانية ناقصة ، أرجح — بعد قراءتها — انها لمؤلف سواه ـ لان اسمه المعروف لنا محمد لا احمد ولا أحماد كما يقول واضع المقدمة اليونانية وهو يتحدث عن مؤلفه الطبيب العربى . ! والكثير من الكتب ، نسبت اليه أملا فى رواجها بين الناس

٢ ـ منتخب الكلام فى تفسير الأحلام (على هامش جـ ١ من تعطير الأنام للنابلسى)

ابن غنام : تعبير الرؤيا ـ مخطوط بدار الكتب .

السالمى : الإشارات فى تفسير المنامات ـ مخطوط بدار الكتب (التى تزعم فهارسها بأنه لابن سيرين (١)

الفداوسى (عبد الله محمد بن عمر) : تحفة الناظر ونزهة المناظر ـ مخطوط بدار الكتب

النابلسى (عبد الغنى) : تعطير الأنام فى تعبير المنام جزءان ، مطبعة السعيدية عام ١٣٥٤ هـ وهو تصنيف طيب واف لآراء من سبقوه ـ فيما يعترف هو نفسه ص ٣٤٩ وما بعدها) مع إضافات قليلة أشار إليها فى موضعها

أهم المصادر الفرنجية (٢)

Affifi (Dr. A., E.) The Mystical Philosophy of Ibnul'Arabi

Archer, W. On Dreams, 1935.

Aristotle, De So et Vigilia.

De Somniis.

De Divinatione per Somnum.

فى الجزء الثالث من طبعة أكسفورد ١٩٢٨ وقد أشرف عليها الأستاذ :

Rose, (W. D.) وهى طبعة علمية ممتازة .

---

(١) يذكر ابن شاهين فى « الاشارات فى علم العبارات » ص ٣ أن للسالمى كتابا هو « الاشارة فى علم العبارة » ـ ويلاحظ أن مقدمة الكتاب من اضافة الناسخ فيما يرجح على الظن

(٢) بين المصادر الفرنجية مؤلفات لا تمثل أحدث وجهات النظر السيكولوجية ، وقد توخينا الرجوع اليها لنتمكن من عرض الاتجاهات القديمة ، ونعقب عليها بتفنيدها ، لبيان أحدث التطورات التى انتهى اليها البحث السيكولوجى فى وقتنا الحاضر

Artemidori Daldiani, Oneiro Critica. (١)
فى خمسة أجزاء صغيرة ـ نسخة يونانية وبها ترجمة لاتينية، طبعة قديمة، سنة ١٩٠٣ بمكتبة الدراسات الاسلامية بمكتبة جامعة فؤاد نسخة منها، وهى فى مجلد يضم كتابا لأحمد (لا محمد) بن سيرين فى تعبير الأحـــلام كما أشرنا من قبل)

وفى مكتبة معهد الآثار الفرنسية بالقاهرة نسخة فرنسية لكتاب أرطميدروس ترجمها هنرى فيدال .H. Vidal تحت عنوان : La Clef des Songes ou les cinq livres, de l'interprétation des songes, rêves et visions, 1921.

Brain., W. R. et Strauss, E, B, Recent Advances in Neurology. (3rd. edition)

Bouché-Leclerq, L'Histoire de la Divination, dans l'antiquite.
أربعة أجزاء عنينا منها بالجزء الأول خاصة

Brown, W., Psychology & Psycho-therapy. 1934.

Cicero. De Divinatione.
ومئات التعليقات التى وضعها عليه .Charles Appuhn فى طبعة « جارنييه » Garnier الفرنسية و « فالكونر » Falconer فى طبعة لويب Loeb الإنجليزية وغيرهما ـ وهو الكتاب الذى نقلناه إلى العربية، وسننشره قريبا

Dalbiez, R, La Méthode Psychanalytique et la Doctrine Freudienne جزءان أولهما عرض والثانى مناقشة ـ وقد ترجمه الى الأنجليزية T. F. Lindsay عام ١٩٤١ تحت عنوان : Psychoanalytical Method and the Doctrine of Freud

وقد تناول الأحلام فى الجزء الأول من ص ٢٨ - ١٢٥ ولعله أوثق من

---

(١) يرى الدكتور مدكور فى مقالاته السالفة أن من المحتمل أن يكون العرب قد عرفوا آراء أرسطو (فى النوم والرؤيا) عن طريق أرطميدروس ...! والراجح عندنا أن سذاجة الاخير وسطحيته تمنع من التسليم بهذا الرأى، ولم يكن العرب فى حاجة الى ذلك لان آراء أرسطو ترجمت فى الشرق الاسلامى عن طريق الكندى، وفى الغرب الاسلامى عن طريق ابن رشد — كما عرفنا من قبل

كتبوا فى هذا الموضوع :

Forster, M. : Studies in Dreams 921

Freud, S., 1- Interpretation of Dreams - فى نصف ألف من الصفحات
وقد نقله من الألمانية إلى الانجليزية A. A. Brill وقد رجعنا إلى عاشر طبعة
١٩٢٣ - وقد ترجمه إلى الفرنسية Meyerson تحت عنوان La Science des Rèves

2 - Introductory Lectures on Psycho-Analysis 1922
وهو يشمل ثمانى وعشرين محاضرة ألقاها فى جامعة فينا ، وقد ترجمه إلى
الانجليزية J. Rivers وقدم له ، إرنست جونس E. Jones، رئيس الجمعية
الدولية للتحليل النفسى President of International Psycho-Analytical
وتوجد الأحلام فى القسم الثانى من ص ٦٧ - ٢٠٣

Jones, E , Papers on Psycho-hanalysis الطبعة الثالثة

Lane, E. W . Manners & Customs of the modern Egyptians

Lincoln, J. S., The Dream in the Primitive Culture (1935)
مجموع بحثين جاز المؤلف بأحدهما امتحان الدكتوراه فى الفلسفة فى جامعة
لندن ، وثانيهما امتحان الماجستير فى جامعة كاليفورنيا - وقد تناوله ببضع
تعديلات حين هم بطبعه مع البحث الأول ، وقدم للكتاب الأستاذ سليجمان
C. G. Seligman ومن بين مصادر الكتاب مؤلفات لمعاصرين لم تطبع بعد
واهتم المؤلف مع هذا باتصاله الشخصى وتجاربه فى افريقيا الجنوبية وغيرها

Madkour, (Dr. I.) La Place d'Al Fârâbi dans l'Ecole Phi'osophique Musulmane (1934)

Montieth, M., True Dreams. 1929

Mourad, Y., La Physiognomie Arabe.

Odds, E. O., Telepathy & Clairvoyance in Classical Antiquity
بحث وضعه صاحبه أستاذ اليونانية بجامعة برمنجهام فى كتاب Greek Poetry & life
الذى وضع تذكارا للأستاذ ، جلبرت موراى G. Maurray، عند بلوغه سن
السبعين فى ٣ يناير ٩٣٦ والبحث المشار إليه ص ٣٦٤ - ٣٨٦

Sharpe, E. F., Dream Analysis 937

ثمرة تجارب المؤلفة مع العاديين والشواذ من أصحاب الأحلام ، وهو الحلقة التاسعة والعشرون من سلسلة مطبوعات مكتبة التحليل النفسى العالمية The International Psycho-Analytical Library إذ كانت المؤلفة عضوا فى لجنة التعليم Training Committee وألقت مادة الكتاب فى سلسلة محاضرات فى الأعوام ٩٣٤ - ٦ تحت إشراف معهد التحليل النفسى بلندن Insttute of Psycho-Analysis وقد قام بنشره الدكتور إرنست جونس رئيس اللجنة السالفة الذكر

Stewart, P., Diagnosis of Nervous Diseases (8th ed.)
Tridon, A., Sleap & Dreams 921
Woodworth, R., Pychology, a study of Mental Life -925
الفصل التاسع عشر ص ٤٩٩ - ٥٠٨ من الكتاب
Wright, S., Applied Phsiology (6th. ed.)

ثم دوائر المعارف : البريطانية - الإسلامية - الدين والأخلاق (لناشرها Hastings) فى مادة Divination — Dream ..... الخ وبعض المعاجم مثل : معجم ديزوبرى وباشليه Dezobri & Bachelet وغير هذا من مصادر ورد ذكرها فى صلب الكلام وهوامش الصفحات .

تصــــــويبات

صفحة ١٥٣ وضعت فى ذلك الموضع خطأ ، والصواب أن توضع بعد صفحة ١٦٨ مباشرة

وفى السطر ٢٠ من ص ١٦٣ يوضع رقم ٣ على كلمة « ونحوه » ويكتب فى الهامش : (٣) قارن الشعرانى فى اللطائف والمنن ج١ ص ٩٨ - ٩٩

ص ١٦٩ يحذف هامش رقم ١ أسفل الصفحة ويصحح ترتيب بقية الهوامش

ص ١٩٤ يكتب آخر هوامشها 5 - Cicero, Divination 1. ch. 53

ص ٢١٦ يوضع رقم ٢ على آخر كلمة فى سطر ١٥ ويكتب فى الهامش :
2 - The Origin & Development of Psycho-Analysis p. 148
(أنظر دالبييه ج ١ ص ٥٧)

فى العنوانات الصغيرة المدرجة تحت عنوان الفصلين الأول والثانى من الكتاب الثانى (ص ٨٦ و ١٢٣) نقص يمكن تلافيه بالرجوع الى الفهرس التحليلى .

وبقية الأخطاء لاتخفى على فطنة القارىء.

كشاف بأهم الأعلام (١)

---

(١) أهملت فيه أسماء المدارس والفرق والمذاهب - من فيثاغورية وأفلاطونية ومشائية ورواقية وأفلاطونية محدثة ونحو ذلك وأغفل فيه ذكر الاسماء التى وردت فى مقدمتى الكتاب ووضعت فيه الاسماء التى تبدأ بحرف ما ؛ أحدها مع الآخر بغير ترتيب واضطررنا الى اختصاره لضيق المقام

للمؤلف

١ - الأحلام عند مفكرى الإسلام - دراسة مقارنة - تقوم بنشره مكتبة الآداب ظهر فى آخر سبتمبر ١٩٤٥

٢ - الشعرانى : إمام التصوف فى عصره - ظهر فى سلسلة أعلام الإسلام التى تصدرها لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية... فى أغسطس ٩٤٥

٣ - التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام - يصدر فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ... فى اكتوبر ٩٤٥

٤ - الفلسفة والإلهيات Philosophy & Theology ترجمة عن ا. غليوم A. Guillaume نشرت مع التعليق عليها فى كتاب تراث الإسلام The Legacy of Islam الذى قامت بنشره لجنة الجامعيين لنشر العلم ظهر فى اكتوبر ٩٤٥

٥ - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه - قامت بنشره لجنة الجاميعين لنشر العلم ..... فى نوفبر ١٩٣٦ (وسيعاد طبعه قريبا)

٦ - العلم بالغيب فى العالم القديم - ترجمة عن فيلسوف الرومان وخطيبهم شيشرون + ٤٣ ق.م. - Cicero وقد قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقا لرسالة الدكتوراه التى جازت الامتحان فى مايو ٩٤٣ بمرتبة الشرف الممتازة (سيطبع قريبا)

٧ - التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى - بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة الشرف فى يونيه ٩٣٨ (سيطبع قريبا)

الثمن ٣٠ قرشا